ذكريات معتقل

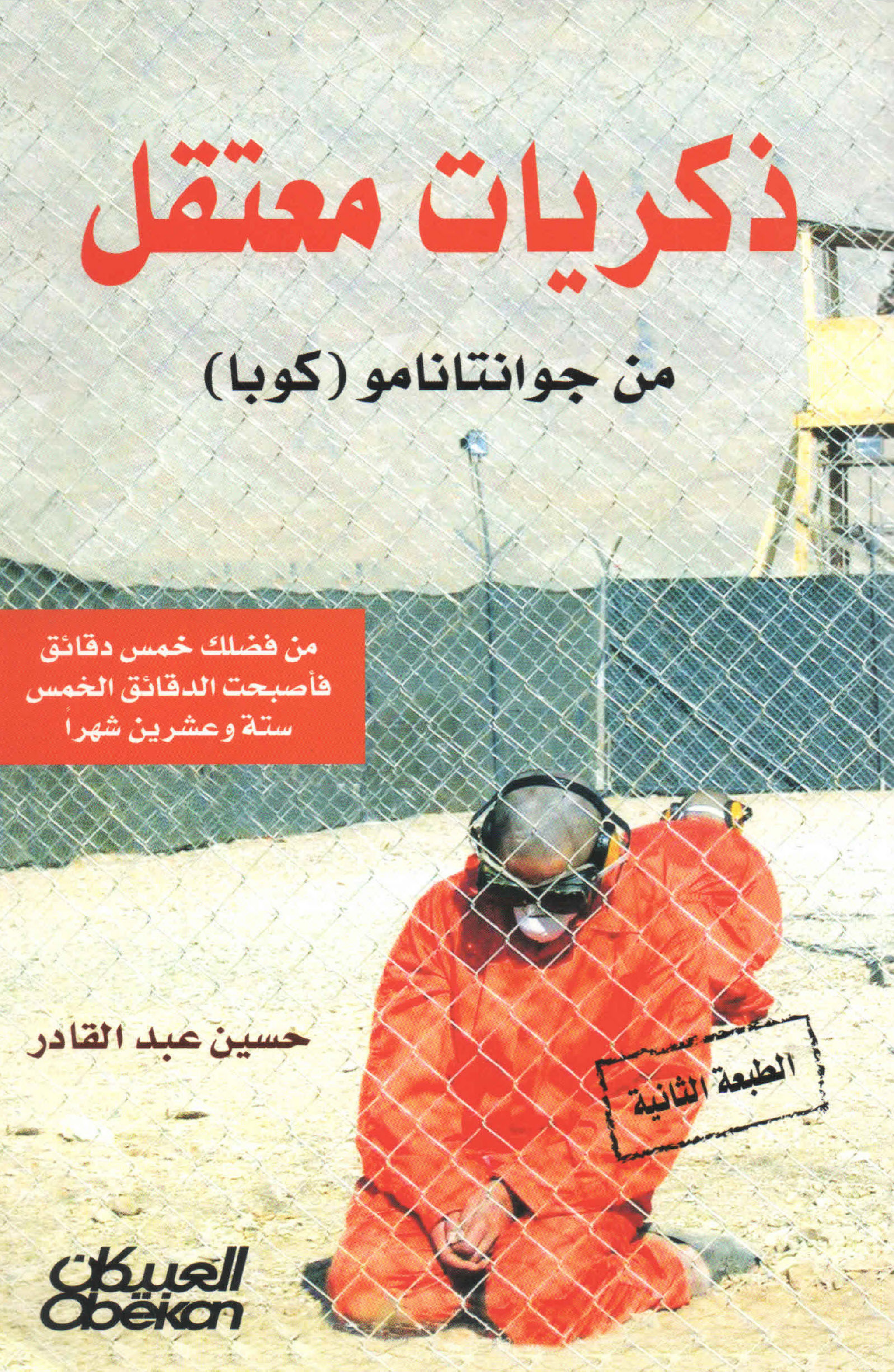
من جوانتانامو (كوبا)

من فضلك خمس دقائق
فأصبحت الدقائق الخمس
ستة وعشرين شهراً

حسين عبد القادر

الطبعة الثانية

العبيكان
Obeikan



ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبدالقادر، حسين

ذكريات معتقل./ حسين عبدالقادر.- ط٢.- الرياض، ١٤٣٤هـ

٣٦٠ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٨-٤٧٠-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- سجن غوانتانامو ٢- التعذيب أ. العنوان

ديوي ٢٧٣, ٩٢٣ ٢٣٨٨ / ١٤٣٤

الطبعة الثانية

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 4808095 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى روح الشيخ الشهيد عبد الله عزام، أستاذ مدرسة الجهاد في العصر الحديث.

- وإلى روح ولدي عبد الله الذي وافته المنية، وأنا رهن الاعتقال.

أهدي هذا الكتاب

حسين عبد القادر

مُحتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

لقد أنزل الله عز وجل عشر آيات من سورة النساء ذكر فيها قصة طعمة رجل من الأنصار، وحادثة السرقة التي اتهم بها يهودي بريء. إن الآيات تبرئ اليهودي من السرقة

وتثبتهـا على طعمة ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥).

هـذه التبرئـة لليهـودي في زمن لا يدخـر فيه اليهـود سهماً إلا وطعنـوا به الإسلام، وفي وقت لا يكف اليهـود فيه عن التآمر والكيد للإسلام وأهله، لكنه العدل في الإسلام الذي يبرئ هذا اليهودي من السرقة، ويثبتها على رجل من الأنصار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ (يوسف: ٨١).

لقد أرسـل الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لخرص تمر خيبر الذي أعطاه الرسول ﷺ لليهود على حصة من الثمر، فقدموا له نوعاً جيداً من التمر هدية خاصة له (رشوة) ليحابيهم في تقدير كميـة التمر على الشجـر، فقال لهم: يا إخوان القـردة والخنازير، أترشونني، لقـد جئتكم مـن عند أحـب الناس إلي (يعنـي رسول الله ﷺ) وإنكـم لأبغض خلـق الله إلي، ولكن حبي لرسول الله ﷺ

وبغضي لكم لا يمنعني من العدل معكم، وخرص لهم التمر وقدره كما هو دون زيادة ولا نقصان.

إذا كانت الدول والمؤسسات الآن، تعتمد على دراسات وأبحاث وإحصائيات وجمع معلومات، بشتى الطرق وكافة الأساليب، وتصدر بعد ذلك أحكامها، وتطبق مخططاتها وتنفذ توسعاتها وأطماعها، بناءً على هذه المعلومات، فإن رب العالمين الذي خلق البشر، ويعلم ما توسوس به نفوسهم وتنطوي عليه أفئدتهم، لا يحتاج إلى هذه الأبحاث والدراسات، وهو الذي يقول ويحكم ولا معقب لحكمه وهو أصدق القائلين.

قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٩).

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٩).

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٢٠).

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (النساء: ٨٩).

[الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا]، هذا الكلام ليس تحاملاً على الغرب أو غير الغرب؛ لأن الواقع والحال وما يجري وما يقال ويسمعه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ينبئ عما يقال.

ما ورد في هذا الكتاب ربما لا يعجب الكثيرين، لكنه الذي لمسته وشاهدته وفي المثل العربي (ليس من رأى كمن سمع).

الاعتقال في باكستان

مساء يوم الأحد ٢٠٠٢/٥/٢٥ صليت العشاء ورجعت إلى بيتي الموجود في ضاحية حياة أباد - بيشاور - باكستان، فوجدت عائلتي تنتظرني على طعام العشاء، إذ كانت الساعة العاشرة ليلاً، وقد كان في ذلك الوقت فصل الصيف والنهار طويل، فجلست على المائدة ولم أكد أكمل اللقمة الثالثة، حتى قرع جرس البيت، فقلت لابني إبراهيم البالغ من العمر اثني عشر عاماً: انظر من بالباب، فذهب الغلام وفتح الباب، ورجع مسرعاً يبكي ويقول: الشرطة، الشرطة.

وقبل أن ينهي الغلام كلامه، فإذا بمجموعة من الشرطة الباكستانية ٥-٧ يدخلون مسرعين يشهرون سلاحهم، وقفت وقلت لهم: ما الأمر؟ قالوا: أين أبو عبد الله البلخي؟ قلت هأنذا ماذا تريدون؟ قالوا: نريدك قلت: لماذا؟ قال: خمس دقائق إلى مركز الشرطة وترجع. قلت: ماذا فعلت؟ قالوا: تفضل، قلت لهم: أنا

أعيش بشكل قانوني في باكستان، أحمل جواز سفر أردني وأحمل بطاقة من الأمم المتحدة منذ ثماني سنوات، وأخرجت لهم البطاقة، أخذها مسؤول الحملة وقرأها، ثم وضعها في جيبه، وقال: اخرج معنا إلى المركز وسترجع، قلت: أين؟ قال: اخرج. وأمر أحد الجنود المرافقين له أن يضع القيد في يدي، ففعل الجندي، وكان معي في البيت أحد أبنائي، واسمه محمد الذي أنهى الصف الثالث الثانوي، عمره ثمانية عشر عاماً، ينتظر التسجيل في الجامعة الإسلامية في إسلام آباد، قيدوه أيضًا معي، واقتادونا إلى خارج البيت، خرجنا وإذا بسيارات أخرى مليئة برجال الشرطة، وعند الباب الخارجي للدار، يقف رجل يبدو من ملامحه أنه غربي، يتهيأ للدخول إلى البيت مع امرأة يبدو أنها مثله أيضا، نزلت من سيارة باجيرو(Pajero) بيضاء، كانت تقف بجوار باب البيت.

وتحركت السيارة التي تقلنا بعيداً عن البيت؛ كي لا أرى ولا أسمع ما يحدث في البيت، فقد دخلت مجموعة من الشرطة الباكستانية مع الرجل والمرأة الغربيين، ثم أخبرتني العائلة بعد ما خرجت من السجن، أن الشرطة وضعت ما تبقى من العائلة زوجتي وأربع بنات وإبراهيم الصغير في إحدى غرف البيت وأغلقوا عليهم الباب، ثم قاموا بتفتيش البيت دون أن يراهم أحد، ثم تبين أنهم قاموا بكسر ما وجدوه مغلقاً من الغرف، وبعدما أنهوا مهمتهم أخذوا ما يريدونه وخرجوا.

أمـا جاري الذي يسكن معي في الطابق الثاني، فقد كسروا قفل بيته ودخلوا وأخذوا ما يريدون ومن جملة ما أخذوه، أسورة من ذهب لزوجته، كانت موجودة في خزانتها، مع أن عائلتي أخبرتهم أنه غير موجـود، لا رب البيـت ولا عائلته، وكانوا قد خرجـوا من البيت قبل ثلاثـة أيام من مداهمة البيت، بعد ذلـك تحركت السيارة، فسألت الشرطـي الـذي يقودني: إلى أيـن تأخذنا؟ قال: خمسـ دقائق إلى مركز الشرطـة، نسألك بعض الأسئلة وترجـع، عندها قام شرطي آخـر وأخرج قطعاً من القماشـ وربطها على عيوننا ولم نشاهد بعد ذلك شيئًا، ولا نعلم إلى أين تسير بنا السيارة.

وبعد عشرين دقيقة وصلنا إلى أحد مراكز الشرطة، فاستجوبونا بسرعة، حاولت أن أعرف أين أنا ومن حولي، لكن لم أستطع، وعندما أنزلونا من السيارة التي كنا فيها إلى سيارة أخرى، استطعت أن أرى ابنـي الكبير عبد الله يركب معنا، معصـوب العينين، مكبل اليدين، فقـد اعتقلـه الشرطي الـذي كان يقف عند باب بيتنـا، عندما رجع إلى البيـت وعرف أنـه ولدي، بعد نصف ساعة مـن اعتقالنا، وهذا الشرطي الذي اعتقله كان ينتظر الذين يفتشون داخل البيت فحاول عبـد الله أن يقنعهـم بإطـلاق سراحه، وعدم اعتقالـه وأنه مريض بالقلـب، لا يستطيـع أن يعيش في السجن، وأنه بحاجـة إلى الدواء، وربما الطبيب أحياناً، لكنهم لم يلتفتوا إلى كلامه.

لقد كان اعتقالي مؤثراً عليه، إذ أصبح مسؤول العائلة الأول، وهموم الأسرة كلها عليه، وذلك بعد إطلاق سراحه في اليوم الثاني، وعلاوة على ذلك ازداد مرضه وتعددت زياراته للطبيب، وكثرت الأدوية التي يتناولها، ومن ثم ساءت حالته، وتوقف عن الدراسة الجامعية بناءً على نصيحة طبية، وأخيرًا جلس في البيت، حين تضاعف مرضه كثيراً، خاصة بعدما سافر إلى الأردن، حيث العلاج المرتفع التكاليف، سواء فيما يتعلق بثمن الأدوية أو كشف الطبيب، وفي النهاية وافته المنية وانتقل إلى جوار ربه، بعد ستة أشهر من وصوله إلى الأردن، متأثراً بهذا المرض العضال، حيث أصابته أزمة قلبية، تقبله الله في الصالحين وأسكنه فسيح جناته.

تحركت بنا السيارة نحن الثلاثة، أنا وابناي، لكن لا نعلم إلى أين نذهب، دخلنا مكاناً آخر، دخلنا إلى بوابة كبيرة، ثم أغلق الباب، رفعوا الغطاء عن عيوننا وأدخلونا إلى غرف السجن، كل واحد في غرفة، فكوا قيد اليدين وأخذوا ما معنا من أغراض وأمانات، عندما دخلت غرفة السجن بدأ شريط الذكريات يمر في خاطري.

لقد سمعت أن الميت إذا احتضر وبدأ يعالج سكرات الموت، يمر في ذهنه من ذكريات حياته منذ أن أصبح واعياً حتى لحظة موته، هذا الشريط يمر في ذهن المحتضر بسرعة؛ ليبين له قصر عمر الإنسان الذي قضاه في الحياة الدنيا، لقد حدث معي ما يشبه

هـذا، إذ عندمـا أدخلت غرفـة السجن، مر شريط مـن الذكريات السريـع في خاطري، وهكذا شبهت السجـن بالموت، لكنه موت منه رجعة، أما الموت الحق فلا رجعة منه إلى الحياة الدنيا. لقد شبهت السجـن بالقبر، لكنه قبر فيه حياة وحركة بخلاف القبر الحقيقي، أي أن السجن هو الموتة الصغرى.حاولت النوم، إذ بدأت أتقلب على مـا وجدته من فراش في الغرفة، لكن لم أستطع النوم، بسبب الحر الشديد، وعدم نظافة الفراش.

بعد منتصـف الليل جاء رجال الشرطـة، وأخذوا ابنيّ محمدًا وعبد الله، وقالوا لي: إنهما سيرجعان إلى البيت الآن، وأنت ستخرج غـداً، ودّعاني وانصرفا، لكن بعد قليل جـاء رجال الشرطة ومعهم مجموعة من العـرب، ستة معتقلين، أعرف بعضهـم، أو معظمهم، وقـد علمت من بعضهـم أن رجال الشرطـة الباكستانية قد اعتقلوا في هـذه الليلة التي اعتقلوني فيها عشرة مـن العرب، أخذوهم من بيوتهم، يحملون أوراقًا رسمية مـن الحكومة الباكستانية. ويعملون في مؤسسـات إغاثية معترف بها مـن الحكومة الباكستانية. أحضر رجـال الشرطة ستة إلى المـكان الذي كنت فيـه، ووضع الباقون في مكان آخر.

كان الصيـف قـد بـدأ في باكستـان، حيث الجو حـار، وغرف السجـن غـير نظيفـة، والفراش متسخ، والمـاء حـار، إذ يقدَّم في

قارورة بلاستيكية مملوءة من حنفية موجودة في الخارج، وفي زاوية الغرفة سطل حديدي صغير لمن أراد التبول عند الضرورة، فقضاء الحاجة ثلاث مرات يومياً فقط الساعة السابعة صباحاً، وقبيل الظهر الساعة الثانية عشرة والنصف، وعند غروب الشمس، أما الطعام فنوعه رديء، وكميته قليلة فالفطور الساعة السابعة، وهو عبارة عن رغيف خبز صغير غير ناضج مقلي بالزيت، مع كوب شاي مختلط بالحليب، وربما يقَدَّم لك كوب آخر.

والغداء الساعة الحادية عشرة، وهو صحن صغير غير نظيف فيه العدس والطماطم، ورغيف خبز، والعشاء الساعة السابعة. أما الفاكهة فلا توجد، واللحم مرة كل أسبوع وهو عبارة عن قطع صغيرة وقليلة جداً مع الأرز، فالاغتسال مرة كل أسبوع، فالصابون والمكان والأواني غير جيدة، مع أن تهوية غرفة السجن غير جيدة، فالعرق كثير من حرارة الجو، مع انقطاع التيار الكهربائي أحياناً.

مكثنا في السجن الباكستاني في بيشاور أحد عشر يوماً، جرى فيها التحقيق معنا مرتين، مرة في اليوم الأول من وصولنا للسجن، عصر اليوم الأول، إذ جاء رجال الشرطة الباكستانية وقيدونا كل اثنين معًا، والعيون مغطاة بعصابة، وأركبونا في السيارات إلى مكان لا نعرفه، ولم نره قبل ذلك، وأنزلونا من السيارات وفكوا عصابة الغطاء عن عيوننا، وأدخلونا واحدًا بعد الآخر إلى غرفة كبيرة،

فيهـا الأغراضـ التي صادروها مـن بيوتنا جميعـاً، كان يجلس بها باكستانيون ورجال ونساء تبدو ملامحهم أنها غربية.

فقامت سيدة وأخذت البصمات لنا جميعاً، كل واحد على حدة، وقـام رجل يتقـن العربية باستجوابنـا بأسئلة بسيطـة عن الاسم، والبلـد، والمكان الـذي ولدت فيه وتاريخ الميلاد، ثـم رجعنا كلٌّ إلى غرفته بالطريقة نفسها التي أحضرونا بها.

أما المـرة الثانية التي أخذونـا فيها للتحقيـق، فكانوا يأخذون كل يـوم واحداً أو اثنـين إلى المكان نفسه الذي ذهبنـا إليه في المرة الأولى، وحقـق معنـا الرجل نفسه الذي حقق معنـا في المرة الأولى، وبعـد مضي تسعة أيـام حضر رجال الشرطـة الباكستانية، وقيدوا يـديَّ وغطوا عينيَّ بعصابـة، وحملتني السيـارة إلى المكان السابق نفسـه، حيث هناك رجل غربي يتقـن العربية، ويتكلم معي من دون مترجم، فسألني عن سيرتي الذاتية.

السيرة الذاتية

كانت أسئلة الرجل الغربي عن المولد، والدراسة، والعمل، وسبب وجودي في باكستان هذه المدة الطويلة من سنة ١٩٨٥م -٢٠٠٢م، فأخبرته بأنني فلسطيني، وتاريخ ميلادي ١٩٥٣م من قرية سيلة الحارثة، قضاء جنين، من أب وأم فلسطينيين، وأنا رابع إخوتي وأصغرهم، وهم ذكران وأنثى، توفيت والدتي قبل عشر سنوات تقريباً، فتزوج والدي زوجة أخرى، وأنجب منها بنتين وولدًا، وهو يعمل تاجراً متوسط الحال، أكملت دراستي الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدرسة القرية، ولكن الصف الثالث الثانوي أكملته في مدرسة المدينة- جنين، سنة ١٩٧٣م، نجحت في الثانوية في هذه السنة، وفي السنة نفسها حصلت على منحة دراسية في المملكة العربية السعودية، وهناك أكملت دراسة البكالوريوس والماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وبين البكالوريوس والماجستير، عملت واعظاً في فلسطين مدة سنتين، على حساب إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد السعودية؛ وبعد الحصول على الماجستير ١٩٨٢-١٩٨٣م رجعت إلى فلسطين ومكثت سنة دون عمل، ثم عملت مدرساً في جامعة الخليل مدة سنة، بعدها سافرت إلى باكستان سنة ١٩٨٥م، وبقيت هناك، حتى سنة ٢٠٠٢م وقت اعتقالي، فقد عملت مدرساً للطلاب الأفغان المهاجرين والعرب وغيرهم في الجامعات والمعاهد والمدارس والكليات، ولم أغادر باكستان طيلة هذه المدة إلا يوم أن غادرتها عن طريق اعتقال الأمريكان لي.

إن تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والأمنية في فلسطين تضطر الإنسان إلى البحث عن عمل خارج وطنه، فقد فصلت من العمل الذي كنت فيه في جامعة الخليل، وبحثت عن عمل آخر فلم أجد، فاضطررت إلى أن أذهب إلى باكستان، حيث اتصلت بقريب لي، فقال لي: توجد هنا مدارس وجامعات كثيرة للمهاجرين الأفغان، وهم بحاجة إلى مدرسين عرب، فوصلت إلى بيشاور مع عائلتي والتحقت فور وصولي بالعمل في جامعة الدعوة والجهاد، وهي في حي يبعد عن بيشاور نحو عشرين كيلاً، يسكنه المهاجرون الأفغان، وهو مخيم فقير به جامعة لتعليم الطلاب الأفغان، عملت بها مدرساً لتعليم العلوم الإسلامية سنة ٨٥-١٩٨٦م، لكن بسبب بعدها عن مكان السكن تركت العمل بها، والتحقت بمعهد المعلمين

العـالي التابع للجنة الدعوة الإسلاميـة الكويتية؛ لقربه من بيتي، و لأنه أعلى راتباً من العمل السابق.

بعد ذلك عملت في معهد الأنصار العالي، وهو يتبع رابطة العالم الإسلامـي السعودية، وفي إجازة الصيـف ذهبت مدرساً في مدرسة داخـل أفغانستان، مدة أربعة أشهر؛ لتعليـم الطلاب الأفغان العلوم العربيـة والإسلامية، ثم رجعت إلى عملي في معهد الأنصار العالي، وفي أثنـاء عملي في هذا المعهـد عملت متطوعـاً في مكتب الخدمات لترحيـل الشبـاب العرب الذيـن كانـوا يعملون متطوعـين لمساعدة الشعـب الأفغاني، فقد كنـت أقدم لهم اللباس والحـذاء والحقيبة، وغير ذلك وهذه المواد كان يقدمها مكتب الخدمات لهؤلاء الشباب.

إن هـؤلاء الشباب كانوا يدخلـون إلى أفغانستان في أثناء الغزو الروسي لأفغانستان، ويقومـون بإحصاء الأيتام والمدارس والأرامل والشهداء، وتقديم مـا يمكن تقديمه من العون المادي لهذا الشعب، لقـد كانت هناك مؤسسات عربية وغربيـة وشرقية تساعد الأفغان المهاجريـن في أثناء الغزو الروسي لبلادهـم، وهذه المؤسسات كان لهـا نشـاط في باكستان وفي داخـل أفغانستان، وكانـت لها مدارس وجامعات ومستشفيات وملاجئ ودور للمعوقين والمجروحين.

بعـد ذلـك جلست مـدة بلا عمل، وبـدأت أعيش في باكستان دون أوراق أو وثائـق رسمية، وعندما انتهـى الجهاد الأفغاني بدأت

المضايقات للعرب الذين كانوا يساعدون الشعب الأفغاني، وفي هذه الحقبة انتهت مدة جواز سفري، ولم أستطع تجديده ولا تمديده، إنني أريد السفر لكن لم أستطع، وفي هذه المدة انتهت مدة التصريح الإسرائيلي الذي خرجت بموجبه من الضفة الغربية عام ١٩٨٥م، وإذا انتهت مدة هذا التصريح، فإنه لا يسمح لي بدخول فلسطين؛ لأنه غير ساري المفعول، فحاولت تجديده عن طريق أهلي في فلسطين فلم يستطيعوا ذلك.

كادت الشرطة الباكستانية تلقي القبض علي، لكن أفلت منها بقدر من الله عز وجل.

اضطرتني الحاجة إلى أن أذهب إلى الأمم المتحدة، عام ١٩٩٢م وشرحت لهم وضعي، وبعد مراجعات ومقابلات لهم، قبلوني لاجئاً في باكستان تحت مظلة الأمم المتحدة. إن قبولهم لي لاجئاً يعني أن يقدموا لي وثيقة رسمية أعيش بها، وأتنقل بموجبها داخل باكستان دون مشكلات، ويقدموا لي مساعدة مادية قدرها (١٥٠) دولاراً في كل شهر، ويساعدوني في رسوم المدارس، ويقدموا ثمن الملابس والحقائب والكتب والدفاتر لطلاب المدارس. لقد كانت هذه الأمور بالنسبة لي أمراً مهماً وكبيراً، وبقيت معي وثيقة الأمم المتحدة منذ ذلك الوقت، حتى سنة ٢٠٠٢م وقت اعتقالي.

لقد كان بإمكان من يحمل هذه الوثيقة أن يعمل عملاً إضافيا، بجانب ما تقدمه الأمم المتحدة له من مساعدة، ففي سنة ١٩٩٤-١٩٩٥م عملت في بيشاور محاضراً في الأكاديمية الإسلامية- جامعة العلوم والتقنية التابعة لهيئة الإغاثة الإسلامية السعودية، وبعدها عملت في معهد الأنصار العلمي في بيشاور، التابع للمعاهد العلمية اليمنية، الذي كانت تشرف عليه السفارة اليمنية في إسلام آباد، وقد بقيت في هذا المعهد حتى سنة ٢٠٠٠-٢٠٠١م ثم أُغلق من قبل الحكومة اليمنية التي قامت بإغلاق المعاهد كلها، ومن ثم كان هذا المعهد من جملة المعاهد المغلقة، وبعد إغلاق المعهد بقيت عدة أشهر من دون عمل، أبحث عن عمل، لكن لم أجد، وفي يوم ٢٠٠٢/٥/٢٥م كان اعتقالي.

وهذا اليوم كان آخر العهد لي بباكستان ومعاهدها ومدارسها وجامعاتها، فهذه المدارس والجامعات والمعاهد، تدرس مواد كثيرة من ضمنها المواد العربية والإسلامية، وتدرس اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم والاجتماعيات والرياضة والفن، فهي مدارس نموذجية عصرية، وليست مدارس دينية فقط.

كانت مدة استجوابي قصيرة لا تتعدى الساعة، وفي نهاية التحقيق سألت المحقق عن سبب اعتقالي، فقال لي: علاقتك بالإرهاب. قلت له: أي إرهاب وأي إرهابيين الذين لي علاقة بهم؟ قال: سوف تعرف فيما بعد، وانتهت الجلسة وعدت إلى غرفة السجن معصوب العينين مكبل اليدين، بسيارة «بك أب» كما جئت.

بعد مـرور أحد عشر يوماً جاء رجـال الشرطة الباكستانيون، وأخبرونا أنهم سيأخذوننا غداً إلى إسلام آباد؛ ليتم التحقيق معنا هناك؛ لأن التحقيق هناك أسهل وأوسع وطلبوا منا أن نكتب رسائل لعائلاتنا، نخبرهـم فيها بأمر السفر هذا، وبعد صلاة العشاء من هـذا اليوم جاء إلينا أعداد كثيرة من الشرطة الباكستانية، وكبلوا أيدينـا خلـف ظهورنا، ووضعـوا العصابات على عيوننـا، وأركبونا سيارات «البك أب» وبـدؤوا يعانقوننا، ويطلبون منا أن نسامحهم، وظهر على بعضهـم البكاء، وقالوا: نحن مضطرون، وكنا مجبرين -علينا ضغوط خارجية لتسليمكم- وتحركت السيارات ليس لإسلام آبـاد، ولكن إلى مطار بيشاور، حيث السيـارات تقترب وتمشي بنا، وصوت الطائرات نقترب منه شيئا فشيئا، وتوقفت السيارات بجانب الطائرة، هكذا تشعر، وأنزلونـا من السيارات وأجلسونا على أرض المطار، لا نرى شيئاً.

بـدأ الشرطـي الباكستـاني ينادي علـى الأسماء، جـاء اسمي فوقفـت، أمسكنـي الشرطـي الذي ينـادي على الأسمـاء، وقدمني خطوتـين، وقام شخص وفك غطاء عينـي، واستلمني مجموعة من الجنـود قريبًا من بـاب الطائرة الخلفي، فهـم يحيطون بي من كل الجهات، اليمين والشمـال الأمام والخلف، ألبسوني كيساً في رأسي لا أرى منه شيئـاً، فهؤلاء الجنود الجدد ألبستهم وسحنتهم تختلف

عـن الوجوه الباكستانية، إنهم حمر أو شقر، لم يساورني شك أنهم غربيـون أمريكان، فكـوا يديّ وربطوهما خلـف ظهري بقيد محكم حديـدي مـؤلم. أدخلوني إلى الطائـرة من البـاب الخلفي بطريقة شديدة وعنيفة.

الترحيل إلى بجرام

أجلسونا على أرض الطائرة بجانب بعضنا، الأرجل مقيدة ومثبتة في أرض الطائرة، والأيدي مقيدة خلف الظهر، ثم شدوا جنزيراً غليظاً على صدورنا، وكان هذا من أشدها علينا، فقد كادت أرواحنا تخرج من أجسادنا، والرأس يغطيه الكيس الذي يمنع الرؤية، ويعيق التنفس، والجو حار .أقلعت الطائرة من بيشاور. فالكلام ممنوع والحركة ممنوعة .وأنت من دون أوامر لا تستطيع الحركة بسبب قيود الحديد التي تحيط بك، والجو يوحي بالخوف، يا إلهي، إن هذا يعني أنهم سلمونا للأمريكان!

ماذا صنعنا، ما جريمتنا؟ إنه الظلم، فالدنيا والظلم قرينان لا ينفصلان، ما دامت هناك دنيا فلا بد أن يوجد فيها ظلم، لقد راودني شعور صادق وأمنية صحيحة أكيدة، أن تسقط بنا الطائرة ونموت، لكن بعدما يقرب من ساعة نزلت الطائرة لا ندري أين

نزلت، أنزلونا من الطائرة خلف بعضنا، ربطونا بحبل، الواحد تلو الآخر، كل في ذراعه، الأصوات تعلو من الجنود، لا تتحرك، لا تتكلم، الخوف والرعب يتملكنا، ساقونا مقيدين نخطو إلى الأمام بصعوبة بسبب قيد الأرجل، فقدت حذائي في أثناء المشي، بدأ السير بطريق ملتوية، ذات حجارة وحصباء، مما تسبب في آلام الأرجل.

بعد نصف ساعة، أدخلونا إلى بناء، وأجلسونا على الأرض بعد أن حلوا الحبل الذي يربطنا ببعضنا، بدأ واحد يتكلم، وآخر يترجم الكلام من خلفنا: ممنوع الكلام، ممنوع الحركة، أنت بيد القوات الأمريكية المسلحة، يجب أن تحافظ على النظام وتنفيذ التعليمات. أدركنا الفجر ونحن على هذه الحالة، فصلينا الفجر على حالنا كما نحن. بدؤوا يأخذوننا واحدًا تلو الآخر دون أن نعلم، أو نرى إلى أين.

الحياة في بجرام

جـاء دوري، وتقـدم جنـدي ساقتـي أمامـه، وهـو يمسك بي، وأدخلـت إلى غرفـة، حلـوا قيد الأيـدي ورفعوا الكيس عـن رأسي، حلـوا قيد الأرجل، إنهـم يحيطون بي من كل مـكان ،طلبوا مني أن أخلـع ملابسي كلها، تلكأت؛ لأن هذا يحدث للمرة الأولى في حياتي، لكـن تحت ضغط الـكلام العالي، والغضب، فعلـت .أخذوا مني كل شـيء وأعطوني لباسا آخر - أبرهول - وحـذاء خفيفاً وكتبوا على الأبرهول الرقم١٧١ ، وقالوا: هـذا رقمك وأعادوا قيد الرجلين، ثم قيد اليدين، لكـن من الأمام، وأدخلـوني إلى غرفة صغيرة، وحُقّق فيها معي تحقيقًا سريعًا، ثم أدخلوني إلى حظيرة أرضية تحيط بها الأسلاك والأشواك المدببة من كل جهة، لكن أرض الحظيرة خشب عليه سجاد خفيف.

إنهـا ست، أو سبـع حظائر، بجانب بعضهـا، كل حظيرة تتسع لعشريـن شخصًا، كل حظيرة منفصلة عن الأخرى بأسلاك مدببة

وأدخلوني إلى الحظيرة رقم (١) لقد كان الوقت صباح يوم الجمعة ٦ أو ٧ لعام ٢٠٠٢م، يشرف على هذه الحظائر حراس من الطابق الثاني، معهم أسلحتهم الرشاشة المصوبة على الحظائر، كما يوجد أيضاً حراس في الطابق الأول حولنا، يحملون أسلحة صغيرة، مسدسات أو نحوها، يحملونها على صدورهم، أو على أفخاذهم يسيرون حولنا، أو يجلسون أمامنا، يقومون بتقديم الخدمات، كالطعام أو الماء للسجناء، عرفنا فيما بعد أن هذا المكان هو قاعدة بجرام في أفغانستان.

الطعام ثلاث وجبات، أولاً الفطور، بعد صلاة الفجر مباشرة، والغداء الساعة الحادية عشرة، والعشاء الساعة الرابعة بعد الظهر، والطعام عبارة عن وجبات معلبة ليست جيدة، ولكنها ليست سيئة، متشابهة ومتكررة يومياً، وهي أكياس جاهزة يحضرها الحارس لكل حظيرة في وعاء بلاستيكي، وكل سجين له وجبة مكونة من كيس، فيه معكرونة أو أرز بالدجاج قطعاً صغيرة جدًا والكمية قليلة أو أرز مع قطع اللحم القليلة والصغيرة أو فاصوليا سوداء مع قطع الدجاج الصغيرة، بالإضافة إلى قطعتين من البسكويت، علبتين صغيرتين جداً فيهما صن فلكس (Sunflax) وهو بسكويت خفيف، وفي الأيام الأخيرة كانوا يقدمون عبوة من الزبيب صغيرة جداً لكل سجين، أما الخبز ففي كل أسبوع نأخذ مرتين، والفاكهة لم نرها إلا مرات قليلة خلال الشهرين.

وبعد انتهاء وجبة العشاء عصراً، يسمح لكل سجين أن يستعمل معجون الأسنــان والفرشاة مرة كل يوم، يحضرهـــا الحارس يومياً ويأخذهـــا بعد انتهـــاء الاستعمـــال، ولا يسمح ببقائها مــع السجين، ولــكل سجين فرشــاة خاصة عليها رقمــه، لا يستعملها غيره، والمياه ٣-٤ لـــترات يومياً لكل سجين، وهي للشرب والطهارة والوضوء، أما الاغتسال، فمرة كل أسبوع مدة خمس دقائق، والماء غير كافٍ وغير نظيــف والذهــاب للحمام مقيد اليديــن والرجلين، ومغطى العينين، وربما ربطــوا العشرة والعشرين شخصاً بحبــل، الواحد تلو الآخر، وإذا وصلنـــا إلى مـــكان الحمام، فكـــوا القيود من أيدينـــا وأرجلنا، وأزالـــوا الغطـــاء عـــن العينين، والحمـــام ساتر من ثلاثـــة أوجه إلى منتصف الشخص إذا وقف، والجهة الرابعة مكشوفة.

أمـــا التفتيش، فالسجين معرض للتفتيش في أي وقت من ليل أو نهـــار، وبطريقة استفزازية وعنيفة، ولا تستطيع أن تعترض على أي شـــيء، فالخوف والرعـــب كان يتملكنا في هـــذه القاعدة، وربما كان بعضنـــا لا يستطيـــع النوم أو الأكل أو الشـــرب من شدة الخوف، إنه بمجـــرد أن يقول الحارســـ: تفتيش، يقف جميـــع السجناء في زاوية الحظـــيرة، الأيدي خلف الرأس، وممنـــوع الحركة، يدخل مجموعة مـــن الجنـــود داخل الحظـــيرة، ويبقـــى بعضهم في الخـــارج، ويقوم أحدهـــم بإشهار السلاح واليد على الزناد، والتفتيش يشمل الجسم في كل ناحية منه، ويشمل تفتيش الأغراض.

أمـا الحمام، حيث مـكان قضاء الحاجة، فيوجـد برميل لكل حظـيرة يجلس فوقـه الشخص عند قضاء الحاجـة، وهو مكشوف من الجهـات كلها إلا الجهة الخلفية يستره الجـدار، لكن السجناء يسـترون أنفسهـم بالبطانية عند دخولـه، ويجب أن يكـون القسم العلـوي مـن جسمك، وأنـت داخله ظاهـراً للحارسـ، وإذا حاولت تغطية نفسك بالبطانية عند قضاء الحاجة، صرخ عليك الحارس، حتى تكشف رأسك المغطى بالبطانية؛ من أجل أن يراك.

بعـد مضـى ثلاثة أسابيـع قاموا بحلـق شعر الرأسـ واللحية والشوارب، فاعترض بعضنا وطلب إعفاءه من الحلق، لكن لم يسمعه أحد، وقد كرروا علينا الحلق في بجرام مرتين، بعض السجناء تأثر كثـيراً، ولم يستطع الأكل عدة أيام، فأحد السجناء طلبوه للحلاقة، حيث جلس على الكرسي مقيد اليدين والرجلين، وبدأ الجندي يحلق لـه، لكنه في أثناء حلق لحيته يبـدو أن آلة الحلاقة تسببت في إيذاء لحيتـه ووجهة، فقام السجين مـن دون قصد، وأمسك بيد الجندي الذي يمسك آلة الحلاقة، يريد أن يقول له: لقد آذيتني، هذا العمل أثار غضـب الحارس، وأمسك بخناق السجـين ورماه على الأرض، وجلسـ فوقـه، والسجين مقيـد اليدين والرجلـين، فهجم مجموعة مـن الجنود، وساعد بعضهم الجندي علـى السجين وانتهى المشهد بانتصار الجنود على السجين المقيد.

ولما رجع السجين إلى الحظيرة التي نعيش فيها سوياً، سألناه: مـا الذي جرى، أتريد أن تمنــع الحارس من الحلاقة؟! قال: لا إنما آذتني آلة الحلاقة، فأمسكت بيد الحارس دون قصد، وكأنني أقول له: لقـد آذتني آلة الحلاقة، فظن الحارس أني أريد أن أمنعه من إتمـام الحلاقـة، لقد كان هذا الأمر شديـداً علينا، نحن المسلمين؛ لأن اللحيـة عندنا في الدين لها مدلول وحكم معين، إن بعض الناس لم يحلـق لحيته طيلة عمره، منذ أن نبتـت على وجهه، أما أنا فإنها المـرة الأولى التـي تحلق فيها منذ ٢٩ عاماً، لكـن ربما هذا الأمر لا يعني شيئاً عند الأمريكان، أو غيرهم.

التحقيق

بعد خمسة أيام من وصولي إلى بجرام، وعند الساعة العاشرة ليلاً نادى الحارس على رقمي (١٧١) لا يوجد هناك أسماء أنت مجرد رقم في مسألة فما لبثت إلا قمت مذعوراً؛ لأنها المرة الأولى التي أمثل فيها أمام التحقيق، فالتحقيق الذي مر معنا في باكستان لم يكن بمثل هذا الجو، وهذه الرهبة، فتقدمت إلى الشبك، وقيد الشرطي يديّ ورجليّ ووضع الكيس في رأسي، وساقني أمامه، ثم صعد بي على الدرج، وأدخلني إلى غرفة، وأجلسني على الكرسي، عرفت أنني في الطابق الثاني، رفع الكيس عن رأسي، بعد دقائق جاء رجلان يلبسان اللباس المدني، فعرفت فيما بعد أن أحدهما محقق والآخر مترجم، بدأ المحقق يسأل والمترجم يتكلم معي، وأنا مقيد اليدين والرجلين، فالمترجم عربيته مكسرة، لكنه يفهم، فهو ليس عربياً يبدو من سحنته أنه غربي مثل المحقق، فداخلني شعور

وإحساس يقول: هذا المحقق لا أدري عن أي شيء سيسألني، ماذا صنعت في حياتي ضد الأمريكان ليسألني عنه، فأول سؤال يتوجه به المترجم إلي: هل تشرب البيرة؟ قلت: لا، قال: هل تأكل لحم الخنزير؟ قلت: لا، هذه أمور محرمة في ديننا قلت في نفسي: ما علاقة البيرة ولحم الخنزير بالإرهاب، أو بتفجيرات نيويورك وواشنطن ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ (النساء: ٨١).

المترجم يسألني عن الاسم، وسنة المولد، والعائلة، والدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، والتحصيل الجامعي، والعمل بعد التخرج، والزوجة والأولاد، والعمل في باكستان، ثم بدأ يسألني عن الشباب العرب الذين يهربون من أفغانستان إلى باكستان، وعن أماكنهم ومن يساعدهم في المال والوثائق للسفر للخارج، فقلت: لا أعلم، قال: كيف لا تعلم، إنك تعيش في باكستان؟ قلت: أنا أعيش في باكستان، لكن أعيش في مناطق الحكومة الباكستانية، ولا يعيش في المناطق الحكومية إلا من يحمل وثائق وإقامة من الحكومة الباكستانية، وهؤلاء الذين تسألني عنهم، تقول: إنهم يحملون وثائق وجوازات غير صحيحة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يعيشوا في مناطق الحكومة، ثم تقول: إنكم أمسكتم بمجموعة من هؤلاء، إذاً هم موجودون عندكم، فاسألهم: هل يعرفونني؟ اسألهم: من يساعدهم؟، فإن سألتني عن الذين يعيشون في مناطق الحكومة، ربما أعرفهم، أما الآخرون فلا أعرفهم.

بعـد ساعتين تقريباً انتهت الجلسة، ورجعت للحظيرة رقم (١) التـي أسكنها، مقيد اليديـن والرجلين، والكيسـ في رأسي، لكن عند دخول الحظيرة -على بابها- يقوم الحارس بفك قيد اليدين والرجلين ونزع الكيس من الرأس.

إن التحقيق لا يكون يوميـاً، وليس له برنامج منظم، كل أسبوع مـرة مثلاً، فهو حسب المحقـق الذي يستلم قضيتـك، يطلبك متى يريـد، مضت أيام قليلة لم أذهب إلى التحقيق، وفي منتصف إحدى الليالي إذا بشاب سجين في الحظيرة نفسها التي أعيش فيها يرتفع صوتـه، بصراخ ممزوج ببـكاء، بعد ذلك عرفتـا القصة، وهي أن أحـد الحراس قام بمعاقبة هذا السجين، والعقاب أن يقف ساعة أو أكثر، ويداه إلى أعلى مقيدتان معاً، ومربوطتان بشبك حديد الباب، ووضع الكيس في رأس المعاقب.

هـذا العقـاب للشخصـ العادي الـذي لا يوجد عنـده مرض، خاصـة في رجليه محتمل، مع وجود بعض التعب، لكن من يعاني من مرضـ في رجليه، أو في مكان آخر، فهـذا العقاب الذي يبدو خفيفاً يتعبـه، إن هذا السجين نحيـل ضعيف الجسم، متعـب ومريض، لا تحتمـل قدماه الوقوف ساعة كاملـة، ويبدو - كما سمعت - أنه كان قد تعرض للضرب والتعذيب في المعتقل الذي جاء منه، وعلى صراخ هـذا السجين هـرع الحراس؛ لـيروا المشكلـة، وإذا بالسجين معلق بالباب، مدلى على الأرض لا تحمله قدماه.

والعادة أن الحراس يهرعون إذا ما سمعوا أي صوت؛ لأن الصوت دليل على وجود مشكلة ما، خاصة أن الجو العام لجميع الحظائر الستة الصمت والسكوت، فالكلام ممنوع مع الآخرين، حتى الكلام مع نفسك غير مسموح به، فقام الحارس بفك قيد السجين من حديد الباب، فسقط المسكين على الأرض؛ لأنه كان معلقاً بيديه على الباب، طلب منا الحارس رفعه وإرجاعه إلى فراشه وتقديم الماء له، لكن تنفس هذا السجين وتشخيره مرتفع، فقد كان عنده ضيق تنفس، جاء الطبيب- كانت سيدة- فقدمت له بعض الكبسولات، تفرقنا عنه؛ لأن التجمهر ممنوع، تركناه يشخر، وأسلمنا أنفسنا للنوم.

العقاب في السجن كثير، ولأتفه الأسباب وأقلها، وربما من دون سبب؛ لأن المطلوب إلقاء الرعب في قلوب المساجين، وإلزامهم بأنظمة السجن وقوانينه، من تكلم مع جاره، ولو بصوت منخفض، أو تكلم مع نفسه، أو خالف أي قانون من قوانين السجن أو خالف أي أمر من أوامر الجنود، ولو كانت أوامر الجنود ليست من قوانين السجن ولوائحه فإنه يعاقب، والأذان ممنوع، فقد قام أحد السجناء العجم، وحاول أن يؤذن مرة، فقال له الحارس بالإنجليزية: اسكت، ولكني لست أدري هل قانون السجن يمنع الأذان، أو هو أمر من الحارس، ومن أراد الأذان كان يؤذن بصوت منخفض، ويلتفت يميناً ويساراً؛ حتى لا يراه أحد.

وصــلاة الجماعة ممنوعــة، والوضوء بالماء، ولــو بالماء القليل الــذي هو نصيب السجين واستحقاقه ممنــوع، إلا أن يكون الوضوء خفيــة، وإذا رآك الحارســ يصرخ عليك بــأن الوضوء ممنوع، وقد سمعــت أذناي مــن الحارس قوله: استعمال المــاء، ولو كان قليلاً في دورة الميــاه غير مسموح به، وطلب الحوائج والخدمات من الحراس لا بــد أن يسبقــه كلمــة: PLEASE –من فضلك– لا بأســ بهذا، لكن لــو نسيت هذه الكلمــة عامداً أو ساهياً، فإن هذا السهو لا يجبره أي شيء على المذهب الأمريكي.

كان معنــا في الحظــيرة رقم (٦) أحد السجنــاء المعوقين، من دون ســاق، قام مــرة وطلب قارورة ماء من أحــد الحراس، فغضب الجنــدي وقال للسجين: قل لي: PLEASE مــن فضلك أعطنــي الماء، وغــاب الجندي عشرين دقيقة تقريباً، ثم رجع وقال للسجين، تريد الماء مني؟ إذا طلبت شيئاً من الحارس فقل له: من فضلك لو تسمح أعطني، وكرر هذا الكلام على السجين عدة مرات.

ماء الشرب الذي يقــدم للسجناء، ماء حار، غير بارد، ودرجة الحــرارة مرتفعة، ومن أجل أن نــبرد الماء، كنا نقوم بتغليف قارورة المــاء بــورق الفاين T.P منديــل الحمام عدة طبقــات، ونصب الماء على الفاين؛ حتى يتشرب ورق الفاين الماء، ونتركه قليلاً في الهواء، فيــبرد الماء، وهذا يتــم خفية عن الحرســ، وإذا رآه الحارس منعه وصادر علب الورق.

كنت أرى بعض السجناء لا يفارقه قيد اليدين والرجلين، سواء في داخل الحظيرة التي ينام فيها أو عند الذهاب للتحقيق، فعيون الحراس ترقبه ليل نهار.

أما اللباس، فقد مضى عليه شهر دون تغيير، وظهر عليه الوسخ ورائحة العرق، بسبب الغبار الكثير والحرارة المرتفعة، وإذا تمزق لسبب أو لآخر، فمن الصعوبة تغييره أو إصلاحه، فقد تمزق لباسي -الأبرهول- لأنه لباس ليس على قياسي؛ إنه ضيق، لقد تمزق من أول يوم، ومع ذلك لم يغيروه لي، حتى أخبرت أعضاء الصليب الأحمر الذين كانوا يزوروننا بين الحين والآخر، حتى اللباس الجديد تمزق وانكشف بعض جسدي، فطلبت تغيير اللباس من الحرس، فأجابوا بالرفض، ولكنني لا أستطيع النوم أو الصلاة فيه، أو حتى الجلوس به، فأخذت قطعة حديد من الأسلاك الموجودة، وبدأت أثقب القماش مكان إبرة الخياطة، وأربط مكان الثقب بخيط، وهكذا من هنا خيط، ومن هناك خيط آخر حتى تم إصلاحه، ولكن ليس بشكل جيد.

بعد مضي أسبوع على وجودي في الحظيرة رقم (١) قام الحراس بنقلي إلى الحظيرة رقم (٦)، وقد بقيت فيها حتى رُحِّلنا إلى كوبا، وقد بقيت في بجرام مدة شهرين.

بعد مضي أيام من وصولي إلى هذه الحظيرة طلبوني للتحقيق، وسألوني إن كنت أعرف الأشخاص الذين يساعدون المقاتلين

الهاربين من أفغانستان إلى باكستان، أو إلى خارج باكستان، من يساعدهم ويقدم لهم المال، أو يقدم لهم الجوازات، ويعمل لهم التأشيرات للدخول أو الخروج، من يرشدهم ويدلهم على الأماكن والطرق؟ فقلت لهم: أنا لا أعرف إلا الذين يعيشون في بيشاور؛ لأنهم يحملون وثائق صحيحة وإقامات من الحكومة الباكستانية، وهؤلاء الذين تسألونني عنهم لا يمكنهم العيش في أماكن تسيطر عليها الحكومة؛ لأنهم يحتاجون إلى وثائق وجوازات صحيحة وإذن تصريح إقامة من الحكومة، وهذه لا توجد معهم.

بعد ذلك سألوني: هل يمكن أن يعيش هؤلاء الذين لا يحملون الجوازات والوثائق الصحيحة في مناطق القبائل التي لا تخضع لسيطرة الحكومة الباكستانية؟ فقلت لهم: نعم، الهاربون من أفغانستان إلى باكستان، ربما يعيشون في مناطق القبائل، لأنها مناطق حرة، لا تخضع لحكومة، وهي مناطق لا تحتاج إلى تأشيرات وإذن إقامة من أحد، ثم إنكم تقولون: إنكم اعتقلتم مجموعة من هؤلاء الهاربين من أفغانستان، في المناطق الحدودية والقبلية، اسألوهم عن الأشخاص الذين يساعدونهم بالمال أو بالوثائق وغيرها، لماذا تسألونني عنهم، ثم اسألوهم إن كانوا يعرفونني، أنا لا أعرفهم ولا يعرفونني؟ فقالوا لي: لقد شهد عليك بعضهم بأنك تقدم لهم المساعدة، قلت: هذا غير صحيح، قالوا: كيف غير

صحيح؟ إن الشاهد الذي شهد عليك موجود هنا، في إحدى هذه الحظائر، قلت لهم: إن كان ما تقولونه صحيحاً، فليحضر هذا الشاهد هنا، وليشهد علي وليقلْ: كيف أقدم لهم المساعدة ومتى وما هي المساعدة التي قدمتها لهم، وفي أي مكان قدمت لهم ذلك، فقالوا: الشاهد عليك موجود، لكن لا يريد أن يقابلك، قلت: هذا الكلام إذاً غير صحيح، فهو كلام بلا بينة، لا يستحق الرد عليه.

انتهت الجلسة وانصرفت كما جئت، مقيد اليدين والرجلين والكيس في رأسي، بعد يومين طلبني المحقق وكان هذا المحقق جديداً، فسألني عن أقاربي الموجودين في باكستان والأردن، فقد كان يتقن العربية وسألني عن أفراد عائلتي، أولادي، الذكور والإناث، ثم سألني سؤالاً محرجاً لا علاقة له بالقضية التي جمعوا الناس من أجلها، قال: بناتك كبيرات، قلت له: نعم، قال: ابنتك الكبيرة جميلة؟ قلت له: إن كانت جميلة أو غير جميلة فما علاقة هذا الأمر بالتحقيق؟ أنت اعتقلتني من باكستان إلى هنا، حتى تسألني هذا السؤال.

وكانت بيده سيجارة يمصها بقوة، ثم ينفث دخانها من فمه علي، وينظر إلي بغرابة، قال: إني أشعر بالملل والسآمة، قلت له: لماذا؟ كل شيء متوافر لديك، الصحف والمجلات والقنوات الفضائية، والأفلام والمآكل والمشارب والنساء، قال: إني أشعر

بالضجر والملل، أنا مسجون مثلك، لا أستطيع مغادرة هذا المكان، إنني مقيد الحركة، أتمنى أن أرجع إلى زوجتي وأولادي، كما تتمنى أنت، قال: الشيخ عبد الله عزام قريبك؟ قلت: نعم، قال: ما صلة القرابة بينكما؟ قلت: عمي، قال: أين عائلته، قلت له: في الأردن، فسألني عن أولاده وبناته وأزواجهن، وأسمائهم، قلت له: الكبير محمد، قتل معه مع أخيه إبراهيم، ثم حذيفة ويدرس في كلية الشريعة، ثم حمزة ومصعب يدرسان في الأردن، قال: بناته، قلت له: الكبيرة كانت في باكستان، وسافرت مع زوجها إلى الأردن، ثم الأخرى زوجها يدرس في روالبندي، وسافر إلى الأردن، قال: عبد الله أنس، قلت له: صهر الشيخ قال: أين هو؟ قلت له: في بريطانيا، قال: ماذا يعمل؟ قلت: لا أدري، هو لاجئ هناك منذ عشر سنين.

ثم سألني من قتل الشيخ عبد الله عزام؟ قلت: لا أعرف، كان رجال الشرطة الباكستانية يأتون ويأخذون التحقيق والمعلومات من عائلته، ويخبرونهم بأن التحقيق في قتله مستمر، وسنخبركم فيما بعد عن القتلة، فعليكم بالصبر، ثم قلت له: إن ضياء الحق الرئيس الباكستاني سقطت طائرته منذ أربعة عشر عاماً، وحتى الآن لم تعلن الحكومة الباكستانية عن سبب سقوط الطائرة، ولا يزال الشعب الباكستاني ينتظر الجواب من حكومته خاصة عائلة الرئيس، أتريد منا أن نعرف من قتل الشيخ، والحكومة الباكستانية

لم تعلن أي شيئاً عن هذا الأمر، على الرغم من أنه قتل على أراضيها، وكان يعمل دكتوراً مبعوثاً من رابطة العالم الإسلامي إلى الجامعة الإسلامية، ورابطة العالم الإسلامي هيئة حكومية سعودية عالمية، فقتل الشيخ ليس كقتل أي شخص عادي، إنه شخص ينتسب إلى جامعة حكومية وهيئة سعودية عالمية، لكن غاب كل شيء ولا يعرفون عن القتلة شيئاً.

كان يبدو على المحقق الإرهاق والتعب، فقال لي: إني متعب، قلت له: لماذا لا تستريح؟ قال: لا أستطيع الراحة، والإرهابيون موجودون، وكان الوقت ليلاً، فقال: انتهت الجلسة الآن انصرف، وعدت إلى الحظيرة كما جئت مقيد اليدين والرجلين مع الكيس في رأسي.

إنهم يراقبون ويسجلون، ويحاسبون السجين على كل حركة، أو تصرف يقوم به إن الإنسان في السجن يشعر بالفراغ الكبير، إن اليوم في السجن طويل، فلا بد أن يطرد الإنسان الملل والسأمة عن نفسه أولاً، ثم لا بد أن يملأ هذا الوقت بالنافع من القول والعمل، إن جميع الاتصالات بالعالم الخارجي غير موجودة، ليس هناك صحيفة ولا مجلة، ليس في السجين تلفون أو تلفزيون، لا كتاب ولا شريط، لا يوجد معك إلا القرآن الكريم أو العبادة التي تملأ السجين بالأمن والطمأنينة والسكينة، والرضا بالقضاء والقدر، لا يوجد معك إلا الاتصال برب الأرض والسماء، والعبادة والدعاء بأن يكون فرج الله

للمظلومين قريباً بقدرة رب العالمين، قال لي صاحبي: لا تكثر من العبادة والنوافل وقراءة القرآن أمامهم إنهم -الحرس- يراقبون كل واحد، ويكتبون كل صغيرة وكبيرة يعملها.

وصدق صاحبي في ملاحظته بعد يومين من نصيحته لي، طلبني المحقق وقال لي: أنت جيد، أنت مسلم ملتزم، صادق، وأنت كم تصلي في اليوم، كم مرة كنت تذهب إلى المسجد؟ قلت له: كيف عرفت أني مسلم صادق؟ قال: أنت تصلي كثيراً، قلت له: لا يوجد عندنا أي شيء من الكتب والمجلات والجرائد، لا يوجد شيء يؤنسنا، ويخفف عنا ساعات السجن إلا الصلاة وقراءة القرآن، أنت لا يعجبك هذا لا تحبه؟ قال: لا، لا، أنت تفعل ما تحب، هذا أمر يخصك، قلت لصاحبي لما رجعت: لقد سألوني عن الصلاة والقرآن، قال: ألم أقل لك، قلت له: إذاً لماذا هم يقدمون لنا القرآن الكريم؟ قال: أنت مسكين، إنهم يقدمون القرآن الكريم لك؛ ليعرفوا كم تقرأ منه يومياً؟ هل أنت متعلق به أم لا؟ ليعرفوا مدى احترامك وإجلالك للقرآن؟ بينما لو لم يسلموك القرآن، فكيف يعرفون هذا.

لقد كنت أرى بعض المسجونين يقللون صلاتهم وقراءتهم للقرآن، ويخففون عباداتهم ونوافلهم؛ حتى يظهروا عامدين أمام الحراس الأمريكان بأنهم عاديون، وليسوا متطرفين متشددين،

وليسوا متزمتين (حسب تفسيرهم) إنهم أرادوا أن يأخذ عنهم الأمريكان أنهم مسلمون (سكر خفيف) كما يقول بعض الناس، بل إن بعضهم كما سمعت قال للمحققين: إنه ترك دينه، إنه تنصر ودخل في دين المسيح عليه الصلاة والسلام؛ ليخرج من السجن، لقد ظن هذا المسكين أن المحققين سيصدقونه ويطلقون سراحه.

وقد فطن له المحققون، وأدركوا كذبه وأن الذي يفعله هذا الشخص إنما هو حيلة ورخصة يترخص بها؛ ليخرجوه من السجن، وليس جاداً فيما أظهره، لقد كان بعضهم يتعمد الكلام مع المجندات، كلما مرت إحداهن من أمامه، بل لا يطلب ما يريده من أغراض إلا من المجندات، مع وجود الجنود والحرس، إنه يطيل الكلام مع النساء، ويضحك، وربما بدأ يغني، ويظهر في اللباس الرياضي في غرفته في مكان الرياضة، بل ربما يتكلم مع المجندة بكلام لا يقوله الرجل إلا لزوجته، يقول لها: أعطني قبلة، إنني أحبك (I LOVE YOU) وغير ذلك، أنا لا أدري هل هذه هي حقيقة هؤلاء السجناء أم هو التظاهر بقلة الدين والتحلل، لأمر يقصدونه.

لقد كان بعض السجناء يستلم بعض آلات التسلية، مع أنه لا يعرف استعمالها، ولا يريد أن يستعملها أصلاً؛ حتى لا يقول عنه الأمريكان: إنه ليس متشدداً أو إرهابياً كما يسمونهم، كما كان بعضهم يتسلم الشطرنج مثلاً أو أوراق الشدة- البليت- أو غيرها

مـن الألعاب، ويضعهـا في غرفته؛ حتى لا يُقَال عنه: إنه متزمت، بل إنـه منفتح وليس منغلقاً على نفسه، لقـد سمعت أن بعض السجناء لبس الصليب، وترك الصلاة، وترك دينـه الإسلام ودخل في دين آخـر، إنه ارتد عـن دينه لأمر يقصده ولحاجـة دنيوية يطمع فيها، ومضى عليه وقت طويل لم يحصل على هذا المقصد ولم يحقق هذا الطمع، بل تعسر حاله وساءت أحواله، وازداد بلاؤه وصعبت حياته، وتسلط عليه الضنك والهم والحزن.

ومضت أيام قليلة وحضر الحارس وقال: رقم (١٧١) للتحقيق، فوقفت على باب الحظيرة؛ ليقوم الحارس بتقييد اليدين والرجلين، ثم أخذ الكيس وألبسه في رأسي وساقني كالمعتاد إلى الطابق الأعلى دخلت الغرفة، وجلست علـى الكرسي، ورفع الكيس عن رأسي، وإذا أنا أمام محقق جديد ومعه مترجم- سيدة- جلست، حيث كان الوقت ليـلاً، فقلـت له: مساء الخير، قـال: أنا لست بخير، قلـت له: لماذا؟ قـال: أنا لا أستطيع أن أستريح حتى أقتل جميع الإرهابيين، قلت له: مـن هـم الإرهابيون؟ قال: أنتـم، قلت له: ليس كل مـن جمعتموهم هنـا إرهابيـين، إن كثـيراً منهم لا يعـرف أسامة بـن لادن، ولم يره طيلـة حياته وقسم منهم لم يدخل أفغانستـان أبداً، جمعتموهم من باكستان، حيث كانوا يعملون في مؤسسات إغاثية وإنسانية، ويقيمون بـأوراق وجـوازات صحيحـة وإقامـات مـن الحكومـة الباكستانية

التـي تعـرف عنهم كل شــيء، عملهم، مسكنهــم، تحركاتهم، قال: هؤلاء الإرهابيون كيف يدخلـون إلى باكستان من الحدود الأفغانية وباكستــان دولة فيها حكومة وجيشـ وشرطة كيف تسمح لهم؟ قلت له: أنا لا أعرف.

ثم أردفت قائلاً له: إن علاقتكم بالحكومة الباكستانية جيدة وعلى أحسن حال يمكنكم أن تسألوهم عنهم، وفي أثناء الحديث مرت فراشة من أمامي، وجعلت تذهب وترجع أمامي، فأردت أن أقتلها برجلي، قال لي: ماذا تريد منها؟ قلت: أريد أن أقتلها، قال: لا تقتلها أنت إرهابي؟ قلت: لا، إنها أزعجتني وأزعجتك أنت أيضا، فأردت قتلها.

وبعد أيام حصل مثل هذا الموقف وأنا في الحظيرة مكان النوم، فقـد رأى أحـد الحراس من يريد قتل مثل هـذه الفراشة فنهاه عن قتلها فسألت أحد السجناء عن سر النهي عن قتل مثل هذا الفراش، فقــال لي السجــين: إن أحـد الجنود أخـبره أنهم يحبـون مثل هذا الفراشـ يطبخونه مع الزيت وهو وجبة لذيــذة عندهم، والله أعلم بمـا قاله السجين، ومــا قاله الجندي، ثم سأل المحقـق سؤالاً آخر، فقال: هــل يمكن أن يقوم هؤلاء الإرهابيــون بتقديم أموال ورشاوى للشرطــة الباكستانية حتى تغض الطرف عنهم، وتسمح لهم بالمرور من أراضيها أو العيش فيها؟

قلــت له: لا أدري، قال: هل قمت طيلة حياتك في باكستان بدفع رشوة للشرطة الباكستانية، قلت له: لا؛ لأنني أقيم في باكستان بشكل

قانوني، قال: هل يمكن أن تقبل الشرطة الباكستانية الرشاوى، قلت لـه: أنـا لا أعرف، قال: هل سمعـت أن أحداً قـدم الرشوة ليتجاوز القانون أو يتخطاه؟ قلت له: لم أسمع، قال: هل يعقل هذا؟ قلت له: أنـا لم أسمع، أنا ليس لي اختلاط بالناس، قال: ما هي بارة ودارة؟ قلـت له: أسمع بهما ولم أرهما، إنهما منطقتان قبليتان لا تخضعان للحكومة الباكستانية، قال: هل يمكن أن يكون بهما إرهابيون؟

قلت: أنا لا أعرف إن كان بهما إرهابيون أم لا، أنا لست مراقباً على الناس حتى أعرف أين يعيشون، وكيف يتحركون ويمن يتصلون، وعندكـم وسائل حديثة وأجهزة متطورة أكيد أنها أخبرتكم عن كل شـيء أو أخبرتكم عـن أكثر الأشياء، ثم أخـرج خريطة لحياة أباد وهـي منطقة سكنيـة جميلة ونظيفة وهـي حي من أحيـاء بيشاور، الخريطة، كبيرة طولها متر، وعرضها متر ثم قال: أين بيتك؟

قلت له: عفـواً أنا لا أستطيع أن أستعمـل الخريطة العسكرية، اقـرأ لـي أنت أسماء الأحيـاء والشوارع والمناطـق، عندها يمكن أن أخـبرك أين بيتي، وفعلاً قـرأ اسم الشوارع والمناطـق قلت له: هنا بيتنـا قـال: وبيت فـلان وفـلان، وهم أشخاصـ مسجونـون معنا، واعتقلـوا معنا في ليلة واحدة، قرأ أسماء الشوارع والمناطق قلت له: هنا يكون بيـت فلان، وهنا يكون بيت فلان انتهت الجلسة، ورجعت إلى الحظيرة، مكان الإقامة والنوم.

مضـت أيام، وإذا بالحارس ينـادي على رقمي (١٧١) تحقيق قلـت: هأنذا، قيدني كالمعتـاد ووضع الكيس في رأسـي وساقني إلى الطابـق الثاني مكان التحقيـق، جلست على الكرسـي وإذا المحقق جديد، سألني عن السيرة الذاتية اسمك، مولدك، دراستك،عملك، حتـى ألقي القبض علي، ثم قال لي: هناك معادن نشيطة متحركة، غـير ساكنـة تؤثر في غيرهـا وتنشطهـا، أنت عنصـر نشيط، مثل المعـدن النشيـط، قلت لـه: المعلومات هذه غير صحيحـة، قال: هل تعـرف الفارين مـن أفغانستـان إلى باكستان، أيـن يسكنون، ومن يساعدهـم في عمل الجـوازات والتأشيرات، ومـن يرشدهم، ومن يقدم لهم المال؟

قلت له: أنا أعيش في بيشاور، وهي منطقة حكومية، إن سألتني عنهـا أعرف وأجبـك، وهؤلاء الذيـن تسألني عنهـم لا يستطيعون السكـن في منـاطـق الحكومـة، إنهـم يسكنـون في المنـاطـق القبلية والحدودية التي لا تخضع لسيطرة الحكومة، وهذه مناطق لا تحتاج إلى وثائـق وجـوازات، ولا تحتـاج إلى إذن إقامـة أو تصريح دخول وخـروج، ولا تحتاج إلى إذن أحد، قال: بـل تعرف ويوجد من يشهد بذلك عليك.

قلـت: هذا غـير صحيـح، وإن كان صحيحـاً، فأحضر لي من قـال لـك، وليشهد علي أمامي، قـال: أنا متأكد أنـه يوجد من قال:

إنـك تعرف، قلـت: أؤكد بجميـع التأكيـدات أنني لا أعـرف، قال: انصـرف الآن وفكـر في الأمر، عدت إلى الحظـيرة رقم (٦) مكان النوم، وفي اليـوم الثاني استدعاني، وقال: هل فكرت؟ قلت له: فيم ذا: قـال: فيما أخبرتك بالأمس، قلت له: إنني أنا، قلت لك: إنني لا أعرف، فأجلسني على ركبتي، ويداي مقيدتان خلف رأسي ورجلاي مقيدتان، وقال: أجب، وأخبرني عما سألتك، قلت له: ليس عندي إلا هذا الجواب، لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الذين سألتني عنهم، أبقاني ساعـة علـى هذه الحالـة والكيس في رأسي، والجو حـار وألجمني العرق وضاق نفسي.

بعـد ساعة جـاء، وقال: انصـرف الآن وفكـر في الأمر وسوف نطلبـك فيمـا بعد، رجعت وكان الوقـت نهاراً وفي اليـوم نفسه ليلاً طلبني، والذهاب إلى التحقيق أو الرجوع منه لا يتم إلا بتقييد اليدين والرجلـين والكيس في الرأس، جلست، فوجدت المحقق السابق ومعه شخـص آخر، يبـدو من سحنته وخلقته أنه من جنـوب شرق آسيا، كأنـه يابـاني أو صيني، هكذا يبدو إليّ شكلـه، أجلسني على ركبتي ويـداي خلف رأسي مقيدتان ورجـلاي مقيدتان أيضا، لكن لا يوجد كيـس في رأسي، قال لي هذا الرجل الجديد: هل فكرت فيما سألك عنـه بالأمس، هل تعرف أم لا تعـرف؟ قلت له: أنا أخبرتك بالأمس أنـنـي لا أعرف، وأؤكد لك ذلك فشـد لحيتي بيده شداً عنيفاً وقال:

لماذا تكذب؟ قلت: له أنا لا أكذب، قال: إنكم تعتقدون أن الكذب على العدو -علينا- يجوز في دينكم.

الكذب على العدو، وفي الحرب مباح وجائز أليس كذلك؟ قلت له: أنا لا أكذب عليك، قال: إن الكثيرين ممن يوجدون معك في الحظائر كذبوا علينا، ثم رجعوا وغيروا اعترافاتهم، وقالوا لنا: لقد كذبنا عليكم، وقالوا لنا: الأخبار والمعلومات صحيحة، قلت له: أنا لم أكذب عليكم، حتى أبدل كلامي وأغير معلوماتي، قال: سوف ترى هذا الكلام كله ليس من المحقق القديم، بل من المحقق الجديد- الياباني- إنه يهدد ويتوعد، أوقفني ووجهي على الجدار وقدماي مقيدتان ويداي خلف رأسي مقيدتان أيضاً، ووضع الكيس في رأسي، والحر شديد ألتقط نفسي بصعوبة وألجمني العرق كان العقاب ساعة تقريباً، بعد مضي الساعة قال: أتعرف أم لا تعرف؟

قلت: لا أعرف، قال: انصرف الآن، لنا معك عودة أخرى، نادى الحارس، أمسكني الحارس ودفعني أمامه بشدة وهو يمسكني بيديه، يد على منكبي واليد الثانية على خاصرتي، ومن شدة دفعه لي، كدت أسقط من أعلى الدرج، وصلت الحظيرة رقم (٦) مكان النوم، وفي اليوم اللاحق نادى علي الحارس: رقم (١٧١) تحقيق، ذهبت، قال لي المحقق: أظن أنك غيرت رأيك وستخبرنا عما طلبناه منك، كما فعل ذلك كثير من السجناء.

قلـت له: أؤكد لك أنني لا أعرف، مـن دون قصد وانتباه بدأت أقسـم لـه بالله العظيـم إنني لا أعـرف، بدأ يضحك هـو وصاحبه ويقـول: إنكـم تعدوننا كفـاراً يجوز الكـذب علينا، أنتـم لا تحبوننا تريـدون إيصال الضرر والشر إلينا؛ لأنكم تعتقدون أننا كفار يجوز أن تفعلـوا ضدنـا كل شـيء، هكذا أنتـم تظنون، قلت لـه: إن كنت كافـراً أو غير كافر، فهذه ليست مسؤوليتـي، وهذا ليس عملي، هل أحضرتني من بيتي في باكستان إلى هنا؛ لأنني أنا مسلم وأنت كافر؟ إن المسلمين في العالم كثيرون لماذا لم تحضرهم هنا وتحقق معهم؟ إنك تتهمني بشيء وأنا منه بريء، لا علاقة للإسلام والمسلمين به، إنكـم تجمعـون الناس بلا ذنب وتحققون معهـم وتتهمونهم بما هم منه براء.

قـال: إذا لم تخبرني بمـا سألتك عنه فسـوف نحضر زوجتك إلى هنا، وبعـد أيام سوف تنهض من النوم وإذا بزوجتك هنا معك في السجـن، قلت له: ما علاقة زوجتي بما تتهمنـي به وأنا منه براء، فكيف بزوجتي؟ قال: زوجتك تعطي المحاضرات والدروس وتحرض على القتل والإرهاب، قلت له: يا هذا، زوجتي امرأة أمية لا تستطيع أن تلقـي المحاضرات والدروس، إنها ربة بيـت ومربية أطفال، أنت واهـم، الأخبار التي وصلتك خطأ ١٠٠٪ لم يكترث بما أقول أوقفني وأعاد علي عقاب الأمس، لكن الوقوف اليوم على قدم واحدة وليس

علـى قدمين، انتهت الساعة، أصبحـت ثيابي كأنني خارج من بركة ماء من كثرة العرق، قال: انصرف الآن وسنعود إليك، جاء الحارس وأرجعني إلى مكان النوم.

بعـد أيام استدعـاني للتحقيق وأعاد علي السـؤال السابق: هل أعـرف الإرهابيين، كما يسمونهم ومـن يساعدهم؟ قلت: لا أعرف كـرر علي السـؤال، وكررت عليه الجـواب بالنفي، لقـد استدعاني هـذا الشخص اليابـاني أو الصيني الشكل، وسألنـي السؤال نفسه عـدة مـرات، وأعيد عليه الجواب نفسه، فليسـ عندهم أي تهمة أو شبهـة إنما هي اتهامات وافـتراءات ليس لها أي نسبة من الصحة، ليسـ عنده إلا هذا السؤال والاتهام، يعيده علي وأعيد عليه الجواب نفسـه، وفي كل مـرة العقـاب ساعـة، الكيس في الرأسـ والرجلان مقيدتـان، واليدان خلف الرأس مقيدتان أيضاً، وهذا العقاب يكون وأنـا واقف ووجهي نحـو الجدار، وهم يجلسـون أو هو يجلس وحده يرقبنـي حتى أبقى على الحال نفسه، دائم الوقوف لا أستريح، لقد مرّ في ذهنـي وأنا على هذه الحالة قولـه تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. (البروج: ٧).

وبعد مـرات كثيرة، وهو يطلبني للتحقيـق، ولا يوجد عندي إلا الجواب نفسه، وأظنه يرى أنني صادق فيما أقول، ولا يوجد أي دليل ضعيـف أو شبهة، تثبت علي ما يقوله، قلت له: لو كان معك مسدس

أو علقت لي حبل المشنقة في سقف هذه الغرفة، ثم هددتني إما أن أقول لك ما تريده أو تنفذ حكم الإعدام في بالمسدس أو بالمشنقة، لقلت لك: أنا لا يوجد عندي إلا الجواب نفسه الذي قلته لك نفذ الحكم الذي تريده؛ لأنني متأكد مما أقوله لك وأنا صادق ١٠٠٪ فيما أقوله لك، إلا إن أحببت أن أقول لك كلاماً كاذباً، أتريد مني معلومات كاذبة؟

قال: لا أريد، قلت له: إن المعلومات الكاذبة لا تفيدك، فإن كنت غضبان علي الآن شيئاً قليلاً لأنني صادق، فكيف لو قلت لك معلومات كاذبة، إن المعلومات الكاذبة تضر أو تؤخر التحقيق الذي تقوم به معي أو مع غيري، إنكم تريدون معلومات توصلكم إلى الحقيقة، أو توصلكم إلى الإرهابيين الذين تبحثون عنهم كما تسمونهم، والمعلومات الكاذبة لا توصلكم إلى الحقيقة يبدو لي أن قسمات وجهه ارتاحت لما أقوله وصدق ما يسمعه، قال: جيد انصرف الآن وسنعود إليك بعد ذلك.

نادى الحارس وأرجعني إلى حظيرة النوم، ثم طلبني في اليوم اللاحق ليلاً وقال لي تكلم، قلت: صدقني إني بريء وبدأت أحلف له وهو يضحك، أنا جاد في يميني؛ لأنني أظن أنه يصدقني في يميني؛ قلت له: صدقني لا يوجد عندي إلا الصدق والكلام الصحيح، قال لي: سنرى، نادى على الحارس وأرجعني إلى حظيرة النوم، رجعت

نمت مباشرة من شدة التعب، ولم تمضِ على نومي إلا ساعتان، وإذا بالحارس يوقظني بصوته العالي، فزعت من النوم، قلت له: ما الأمر؟ قال: ممنوع النوم وقفت مكاني، ثم أردت أن أرجع للنوم، قال: لا تنم، فعرفت أنه عقاب، لم أنم تلك الليلة، إلا ساعتين.

وفي اليوم اللاحق طلب مني الحارس أن أنقل فراشي البسيط، بطانيتين إلى غرفة صغيرة مشبكة بالحديد، أمام الحظيرة التي أسكن فيها؛ لأن كل حظيرة من الحظائر الستة يوجد في مقدمتها غرفة صغيرة ١,٥ × ٢ متر تقريباً، هذه الغرفة يدخل منها السجناء الموجودون داخل الحظيرة، ويخرجون إلى التحقيق أو إلى الحمام، أو أي غرض آخر، وتستخدم هذه الغرفة عقاباً للسجناء؛ لأنها صغيرة لا تتحرك فيها كثيراً، ومغلقة دائماً، حتى الحمام لا تذهب إليه إلا بالإذن، بخلاف باقي السجناء، يذهبون إلى دورة المياه من دون إذن، كما يشاؤون، ومن يجلس في هذه الغرفة يكون مقيد اليدين والرجلين، وحتى الذهاب إلى دورة المياه يكون السجين مقيد الرجلين، واليدين، ونادراً ما يفك لك الحارس قيد إحدى اليدين؛ ليسهل عليك استعمال دورة المياه، ثم يعود ويربطها لك بعد ذلك، ثم إن هذه الغرفة- غرفة العقاب- أمام الحراس والجنود ٢٤ ساعة تحت المراقبة ١٠٠٪، إنك تأكل وتشرب فيها.

وقد جلست في هذه الغرفة أياماً لم يسمح لي بالنوم فيها إلا قليلاً، حتى النوم وأنت جالس على الأرض (متربع برجليك)

بجسمـك علـى الأرض غير مسموح به، النوم قليـل، وإن نمت وأنت جالـس على الأرض، قال لك الحارس: قف لا تنم؛ لأن الغرفة تحت المراقبـة الكاملة ١٠٠٪، وإن وقفت تعبت من الوقوف، ولا يسمح لك أن تتكـئ علـى جدار الغرفة الحديـدي لا بيديـك ولا بجسمك، إنه إرهاق شديد.

مضـى على هذا العقاب أيام، ثـم أدخلني إلى داخل الحظيرة، مكان النوم السابق، فرحت كثيراً لهذا التحول، لقد عافانا الله -عز وجل- من هذا العقاب الذي لا ناقة لي فيه ولا جمل كما يقول المثل.

إن جميع أوامر الحراس والجنود التي يوجهونها إلى السجناء، إنمـا يتلقونها مـن المحققين، الذيـن يديرون السجن مـن أوله إلى آخره عن طريـق الحراس والجنود الذين ينفـذون أوامر المحققين وتعليماتهم بدقة، إنهم لا يستطيعون عصيانها أو تأخيرها أبداً.

في بجـرام كانوا يفرضـون على السجنـاء المعاقبين زيادة على وضع الكيس في الرأس والتقييد بالسلاسل، كانوا يطلبون من بعض المعاقبين تنظيف الأرض من الأوساخ، والأشد من ذلك كان سجناء كل حظـيرة يقومون بتنظيف حظيرتهم، وكان كثير من الأوساخ بين الأسـلاك ذات الشوك المدبب، ولا بد لـك من إدخال يدك بين هذه الأشواك، مما كان يتسبب في كثير من الجروح في أيدينا.

في بجرام يأمرك الحارس بما يحلو له، ذات مرة أراد واحد من الحراس أن يأمرك بأوامر لا ندري ما الحكمة منها، وما هي الفائدة في فعلهـا، قال: ضع القرآن جانبـاً لا تمسه، لا تقرأ فيه ولو غيباً، لا تتكلـم حتى مع نفسك، اجلس على الأرض ولا تقف ولا تتحرك من مكانـك، الجميع جلس كان كل واحد منا جماداً في مكانه، بعد قليل قـال: قم واقفز مكانـك، بعدها جلوس، بعـد الجلوس هرولة داخل الحظيرة خلف بعضنا.

إن مشاهـدة النساء -المجنـدات- باللباس الرياضي القصير شـيء عادي عندهم ومألـوف في حياتهم، لكن عنـد السجناء هذا الأمـر غير مألوف، إنه أمـر يضايقهم، ربما تمر المجندات باللباس الرياضـي القصـير من أمـام السجناء، إنه مـرور في الطريق تراه يومياً مرات كثيرة، خاصـة أن الجو حار، إنه فصل الصيف، وربما جـاءت المجنـدة باللباس الرياضـي وجلسـت مع الجنـدي مقابل الحظائـر التي نعيش فيها يتحدثـان ويضحـكان، إن بإمكانهما أن يذهبـا بعيداً عن أعين السجناء، ولكـن لا نستطيع الكلام معهما أو الاعتراض على فعلهما.

ذات صباح جاء الحارس، وقال: كل واحد يضع القرآن جانباً، لا يمسـه، لا يقرأ فيـه، والمطلوب من كل واحد الوقـوف والقفز إلى أعلى، وحركات رياضية أخرى غير معتادة ومتعبة، بعد ذلك الجلوس

مع عدم الكلام، أو الالتفات إلى أي جهة، باستثناء الجهة التي فيها الحراس لمراقبة الوضع، الكلام مع غيرك ممنوع، وحتى الكلام مع نفسك غير مسموح به، وللحارس أن يختار من يشاء لإيقاع العقاب عليه دون أن يسمح للسجين أن يدافع عن نفسه والسجين يكون مقيد اليدين والقدمين والكيس في الرأس، ولما حاول أحد السجناء الدفاع عن نفسه بالنقاش والكلام الهادئ، شددوا عليه العقوبة، ربطوا يديه خلف ظهره والكيس في رأسه، وأجلسوه على الأرض دون حركة مدة ساعة.

بعد منتصف إحدى الليالي، وقبل أذان الفجر جاء أحد الحراس وقال لي: أنت تكلمت، قلت: مع من؟ قال: مع هذا الرجل، وأنت تعجب أو تسأل ما الذي يجعلنا إلى هذا الوقت من الليل دون نوم؟ إن معظم الليالي وليس هذه الليلة لا نستطيع النوم إلا آخر الليل والسبب أن الإضاءة الكهربائية علينا شديدة جداً إن الأنوار الكاشفة تحيط بنا من كل جانب، كأنها إضاءة في ملعب كرة القدم.

إن جميع السجناء في جميع الحظائر وفي جميع حالات وجودهم داخل الحظائر، سواء أكانوا نائمين أو جالسين، أو واقفين إنهم طيلة اليوم (٢٤) ساعة، تحت الرؤية الواضحة جداً للحرس، وإذا حدث أن ضعفت الإضاءة أو تعطلت إحدى اللمبات، تجد الحراس يهرعون إلى أسلاك الحظائر، ويقتربون منها ويصرخون على

السجنـاء بعـدم الحركة، والبقاء نياماً على الأرض، حتى لو أردت الصلاة أو الذهاب إلى دورة المياه، لا يسمحون لك بذلك، نعود إلى القصـة، هذا الحارس وقبل أذان الفجر قال لي: أنت تكلمت، قلت: مـع من تكلمت؟ قال: مع هذا الرجل الـذي يصلي، قلت: إنه يصلي كيـف أتكلم معه؟ قال: بل تكلمت، أخبره أنه سيعاقب مثلك، قل له: فليحضر، قلت له: إنه يصلي، انتظر حتى ينتهي.

قـال: أخبره، وأمام إصرار الحارسـ، وهو يرى ويشاهد، قلت للسجـين: يقول لك هـذا الحارس احضر إلى جهـة الباب من أجل العقـاب، لكنه يصلـي، لم يجبني، لم يقتنع الحارسـ، وبدأ يصرخ علـى المصلـي، لكن المصلـي أكمل صلاتـه وتقدم، ووقفنـا بجانب بعضنـا مكان العقاب، ربط اليدين معاً، ثـم ثبتهما بباب الحظيرة الحديدي، ووضع الكيس في الرأس وربط القدمين بسلسلة حديدية، هذا العقاب مدة ساعة، وأنت واقف على رجليك.

بعـد يوم طلبني المحقـق للتحقيق، وقال لي: هـل تسمع بكوبا؟ قلـت: نعم إنها في أقصـى الأرض قرب بلادكم، قال ماذا بها؟ قلت لـه: قبل اعتقالنا كنا نرى فيها الشباب الذيـن تقولون عنهم: إنهم أسرى تنظيـم القاعدة وطالبان، إنكم تسمونهـم الإرهابيين، إنهم يلبسـون اللباس البرتقالي، قـال لي: إذا لم تتكلم الكلام الصحيح فسـوف تذهب عندهم هناك بعيداً، وبـدأ يضحك كالمتشفي، قلت:

أنا لم أرتكب جرماً حتى أستحق أن تكافئني بهذه الجائزة، أتريد أن تكافئني أم تعاقبني؟ لا بأس أيها المحقق، أن ترسلني إلى هناك، إن الدنيا مليئة بالظلم وهذا من الظلم يا سيادة المحقق، إنني أفضل أن أذهب إلى كوبا، وأنا صادق خير من أذهب إليها، وأنا كاذب، أقدم لك معلومات غير صحيحة، فظهر عليه الغضب قليلاً، قلت له: أنت الآن غضبان علي، مع أنني أقول لك الحقيقة والصدق، ولو قلت لك المعلومات الكاذبة، فكم سيكون غضبك علي؟

سيكون أكثر بالطبع، قال لي: قد يكون كلامك صحيحًا، لكن لو ذهبت إلى كوبا، وأثبت للمحققين هناك أنك بريء فستخرج من السجن، لكن تحتاج إلى وقت طويل، بينما لو قلت لي هنا: المعلومات الصحيحة وأخبرتني بالحقيقة فستمكث هنا في بجرام وقتاً قليلاً، وسترجع إلى بيتك بسرعة، قلت له: ليس عندي إلا الكلام الصحيح، وهو ما قلته لك، وهو أنني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الذين سألتني عنهم، وليس من مصلحتك ولا مصلحة التحقيق الذي تقوم به معي أو مع غيري من المعتقلين أن أقول لك معلومات خاطئة غير صحيحة، قال: أنت ستذهب إلى كوبا، وستأتي طائرة ونرسلك معها إلى كوبا، قلت: حسبنا الله ونعم الوكيل، الله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أحسست أنه تفهم ما أقوله، لكن لم يخبرني بشيء مما في نفسه، قال: انصرف الآن، وسنطلبك فيما بعد، رجعت مع الحارس لمكان النوم- الحظيرة رقم (٦) كما كنا نسميها.

قبل السفر من بجرام إلى كوبا بيوم واحد استدعاني المحقق نفسه، وكان معه في الغرفة رجل يلبس الزي العسكري وامرأة أذكر أنها كانت بلباس مدني يجلسان ويسمعان فقط، دون تدخل أو دون أي سؤال أو كلام منهما، ولأول مرة أذهب إلى التحقيق من دون قيد الرجلين، كان القيد فقط في اليدين، مع وجود الكيس في الرأس، إنها المرة الأخيرة التي أذهب فيها إلى التحقيق في بجرام، جلست على الكرسي كالمعتاد قال لي: هل ستتكلم أم تذهب إلى كوبا؟ قلت له: ليس عندي أي كلام جديد، أنا صادق، أنا بريء، أنا مظلوم، إنكم تتهمونني، ليس عندكم دليل أو إثبات على ما تقولونه، أكرر لك ما قلته لك: إنني أفضل الذهاب إلى كوبا وأنا صادق خير وأحب إلى نفسي من أن أدلي بمعلومات كاذبة؛ لأنك الآن غضبان ومتضايق مني قليلاً ولو قلت لك معلومات واكتشفت بعد وقت أنها كاذبة سيزداد غضبكم علي كثيراً، وربما يزداد عقابكم لي.

قال: في كوبا سجن جيد أفضل من هنا، لكل سجين غرفة خاصة، وفيها ماء بارد وماء حار، إنها أفضل من هنا، لكن ربما تمكث هناك وقتاً أطول؛ حتى تستطيع إقناع المحققين أنك بريء،

قلت: لا بأس، قال لي: انصرف وسيكون سفرك إلى كوبا قريباً جداً، نادى الحارس الذي قادني إلى مكان النوم في الحظيرة رقم (٦).

قبـل سفرنـا إلى جزيـرة كوبـا - المنكوبـة - بأيام وبعـد أن تم اغتسـال الجميع الاغتسال الأسبوعي المعـروف السريع القليل الماء ثلثـي سطل، الماء نظافته غير جيدة، بعد الاغتسال تم توزيع اللباس البرتقالي على الجميع، بنطلون من دون لباس داخلي، فانيلة نصف كـم وعلى فانيلة كل واحـد رقمه، مكتوب على الظهـر، لا يعرف إلا بهذا الرقم؟ أنت رقم في مسألة (قضية) ليس إلا.

الترحيل إلى كوبا

حـان وقت سفرنـا من بجرام إلى كوبا، عنـد منتصف النهار، وبعـد تناول طعام الغـداء مرت مجموعة كثيرة مـن الحراس ١٥-٢٠ حارسًـا، كلهم يصرخـون بصوت عالٍ: الجميـع وقوف، ممنوع الحركة، ممنوع الكلام، وبدأ أحدهم ينادي على الأرقام، ومن سمع رقمه تقدم إلى بـاب الحظيرة الحديدي المشبك وأدار ظهره للباب وقـام الحارس بتقييده في رجليـه وتقيد يديه خلف ظهـره وألبسه الكيسـ وأخرجه إلى الساحة خارج الحظيرة لا يعرف أحد إلى أين المصـير وأين سنذهب، كان دفـع الحارس لنـا إلى الساحة بشدة؛ لنقـف في الطابور، وربما سقط بعضهم على الأرض من شدة الدفع إذا لم يكن السجين منتبهاً أو متوازياً في حركته نحو الطابور، ربطوا الجميـع بحبل في ذراع كل واحـد، والحبل ممتد من أول سجين إلى آخر سجين.

مشينـــا لا ندري إلى أيــن، وأجلسونا على مقاعد خشبية طويلة بجانــب بعضنا، بدؤوا بفك قيد الرجلـين ووضعوا مكانه قيدًا آخر، فكوا قيد اليدين من الخلـف وجعلوه في الأمام عند البطن، وربطوا الخاصرة بسلسلة حديدية وربطوا هذه السلسلة بقيد اليدين؛ حتى لا ترتفـع اليدان أو تنزل، وضعوا كفوفـاً قماشية غليظة وسميكة في اليديـن، بحيـث إنك لا تتمكن من فـك أي شيء أو ربطــه، مع أنك مقيـد في جميـع أجزاء جسمك نزعـوا الكيس مـن الرأس ووضعوا نظـارة سوداء محكمة على العينـين ولا ستيك مطاطي حول الرأس يمسكها مـن الزوال والسقـوط، ثم أغلقوا الأذنـين إغلاقاً محكماً بقطعتين بلاستيكيتين، بحيـث لا تستطيع أن تسمع شيئاً، كما أغلق الأنف بقطعة قماش وإغلاق الفم كذلك، بحيث إنك لا تستطيع أكل أي شـيء أو شربه، مع أنك مقيد ومع أنه لا يوجد طعام تأكله إلا ما يقدمونه لك.

وعند الأكل أو الشـرب يأتي الجندي ويرفع غطاء الفم ويقدم لك الطعـام أو الشراب الذي تمسكه بيديك المقيدتين، بعد الانتهاء يقـوم الحارس بإعـادة غطاء الفـم إلى مكانه، نقلونـا إلى شاحنة كبـيرة، كل سجين يمسكـه الجنود ويقذفونـه، يناولونه بسرعة من الأرض إلى داخل الشاحنة كما يناولون الكرة ويجلسونه في الشاحنة على مقعد طويل بجانب بعضنا، كان جلوسنا في الشاحنة مدة ساعة والحر شديد مع ضيق النفس، والفم والأنف مغلقان.

تحركت الشاحنة واقتربت من صوت الطائرة، وأنزلونا من الشاحنة إلى الطائرة، فجلسنا على مقاعد الطائرة بجانب بعضنا ومع القيود السابقة التي على جسمك تجلس على مقعد الطائرة، ثم يربطون قيد رجليك بقيد آخر ويربطونه في حلقة في أرض الطائرة، وبعد ذلك يربطون كل واحد بمقعد الطائرة بسلسلة حديدية من هذا الجانب من خاصرتك إلى الجانب الثاني، بحيث لا تستطيع معه القيام أو الحركة إلا الحركة البسيطة وأنت جالس.

فوق هذه الأربطة وقبل إقلاع الطائرة جاء المترجم وأبعد الغطاء عن أذنيك، وقال سوف نعطيك بعض الأدوية، أقراص من الدواء؛ حتى لا تتأثر من السفر؛ حتى لا تخرج ما في بطنك من الطعام بسبب الدوخان في السفر، وحتى لا تتقيأ، لكن تبين فيما بعد كما سمعت من بعضهم أن هذه الأدوية تصيبك بشيء من الدوار والهلوسة، كما حصل معي أنا شخصياً، وحصل كذلك هذا الدوار والهلوسة، مع من سألتهم ممن كانوا معنا في هذه الرحلة المشؤومة، بحيث إنك لا تستطيع النوم، لكن لست أيضاً في حالة استيقاظ، صحيح إنك تشعر بشيء يجري حولك تسمع وتعي، لكن لا تميز جيداً.

ربما يقول قائل: لماذا شربتم هذا الدواء لقد كان بإمكانكم أن ترفضوه؟ لكن الجواب أن شرب هذا الدواء إجباري على الجميع وليس اختيارياً، لقد استطعت أن أسمع كلام من كان يجلس بجانبي من

المعتقلين وكان عربيا، قال الجندي للمعتقل المقيد: أتريد أخذ الدواء؟ قـال له المعتقل: إن كان الأمر باختياري فـلا أريد، قال له الحارس أو الممرض الذي يقدم الدواء: ليس الأمر باختيارك إنه إجباري، فأجابه المعتقـل المقيـد إذا كان أخذ الـدواء إجبـارًا، وليس اختيـارًا فلماذا تسألني أتريد أخذ الدواء أم لا؟ وأعطاه الدواء أو وضعه في فمه طبعاً، يأتـي الحارس ويزيل الكمامة عن الفم ويضع الدواء في الفم ويعطيك جرعة من الماء، ثم يرجع الكمامة كما كانت.

أقلعت الطائرة بعد العصر، والفصل صيف، بداية شهر أغسطس ٢٠٠٢م، أمـا الطعام في الطائرة فإنهم يقدمون لك ساندويتشًا من الفـول السوداني، يضعه الجندي بين يديـك المقيدتين بالسلاسل، ومع السلاسل، الكفوف السميكة يزيل الكمامة عن فمك تبدأ تأكل، لكـن لا بد أن تحني ظهرك؛ حتـى تستطيع إيصال الطعام [الخبز] إلى فمك؛ لأن يديك، لا تصلان إلى فمك بسبب السلاسل، ثم تنهي الطعام، ثم يعطيك تفاحة.

وإذا احتجـت إلى ماء تنادي بصوت لا يسمع جيداً ولا يستطيع أحـد أن يميزه بسبب الكمامة على فمـك، يعطيك جرعات ماء بعد أن يزيل الكمامة عن فمك ثم يعيد الكمامة كما كانت، وهكذا سارت الطائـرة، لكن لا ندري عن وجهتها شيئاً، لا نعرف عن مرور الوقت أي شيء وإن سألـت عن الساعة لا يجيبك أحد، وإن أردت الصلاة

تقدر دخـول الوقت بنفسـك، تجتهد وتصلي منفـردًا، طبعاً كيفما اتجهت بك الطائرة من دون وضوء أو تيمم، تصلي وأنت على مقعد الطائرة مقيد بالسلاسل والحديد كما ذكرنا.

بعد وقت لا نعرف هل كثير هذا الوقت أم قليل نزلت الطائرة في مـكان ما، وأنزلونا من الطائـرة وأركبونا في طائرة أخرى، لا نعرف أي شيء عن هذا المكان، أقلعت الطائرة الجديدة والقيود والسلاسل كما هي وكما كنا في الطائرة الأولى وبعد مرور وقت لا نستطيع تقديره نزلـت في مكان ما لا نعرفه، وطيلة الرحلة منـذ إقلاعنا من بجرام حتـى أنزلونـا في هذا المـكان لا تكلم أحـدٍا ولا يكلمـك أحد، وقفت الطائرة، في هذا المكان الجديد، أنزلونا من الطائرة لكن بشيء من الشدة والعنف، فأركبونا في شاحنة ليس لها مقاعد.

الوصول إلى كوبا

أجلسونا على أرض الشاحنة بشيء من الصراخ، رؤوسنا تكاد تلمس الأرض، والمترجم يترجم كلام رجل بالإنجليزية، ممنوع الحركة، ممنوع الكلام، جو من الرعب والخوف، لا تملك أن تقول شيئاً، ولا تستطيع أن تفعل أي حركة يقول المترجم: هل تعرف أين أنت الآن؟ طبعاً لا يجيبه أحد، لكن هو يجيب نفسه بنفسه: أنت الآن في يد القوات المسلحة الأمريكية، تحركت السيارة لكن لا نعلم إلى أين؟ لا نعلم عن الوقت شيئاً لا نعرف أي شيء يدور حولنا، وقفت السيارة فأنزلونا منها وأجلسونا على الأرض مقيدين كما كنا، الحر شديد، والعرق ألجمنا وغطاء الفم والأنف ضيّق علينا عملية التنفس.

بعد قليل فكوا غطاء الأذن عنا، ثم فكوا كمامة الفم والأنف، وبدؤوا يأخذوننا واحدًا تلو الآخر لا ندري أين يقودوننا، دخلنا إلى مبنى فكوا عنا بعض القيود، قاموا بخلع ملابسنا؛ لأن أيدينا مقيدة، ثم أدخلونا إلى حمام اغتسال عراة تماماً، كما ولدتنا أمهاتنا، باب

الحمام مفتوح، والجنود يشاهدون منك كل شيء، تغتسل أمامهم وهم يرقبونـك، تنهي الاغتسال فتخرج عارياً ثـم يعطونك حذاءً خفيفاً - شبشب- ولباسًا برتقاليًا، يتكون من بنطلون وقميص نصف كم ولباس قصير، أعادوا علينا القيد، اليدان معاً جهة البطن وهذا القيد مشدود بسلسلة تحيط بالخصر، تتدلى من هذه السلسلة سلسلة إلى الأسفل تتصل بسلسلة تربط القدمين معًا، ويمسك بك جنديان يقودانك إلى الطبيـب للكشف عليك، ثـم إلى التصوير، ثـم إلى التحقيق السريع: اسمك، بلدك، عمرك، أين كان اعتقالك، مذهبك سني أم شيعي؟

كان هـذا المحقق يكتب على الكمبيوتر، وآخر يكتب على الورق، ثـم أحضـر المحقق بطاقة صغـيرة وطلب مني أن أكتـب رسالة إلى أهلـي، أخبرهم فيها بأننـي في كوبا، ووصلت بسـلام وكتبت عليها العنـوان وسلمتها له، كان عنده إصـرار لكتابة الرسالة، لكن هنا لا يوجد غطاء للرأس- الكيس- العيون مكشوفة ترى ما حولك.

كان هـذا الوقـت قبيل المغـرب مـن اليـوم الأول لوصولنا إلى كوبـا؛ لأن الشمس كانت تجمع أشعتهـا لتختفي وتغيب خلف المباني المجـاورة والعيادة التـي دخلناها كانـت مكتظـة بالسجناء الجدد وبالحرس والجنود والمحققـين والمترجمين، وخضعنا لعملية تفتيش بعـد خروجنـا من العيادة، ثـم أدخلنا الحراسـ إلى أماكن تحقيق أخـرى خـارج العيـادة الطبية، فقـد كان الوقت بعد المغـرب، وبدأ الظلام ينتشر في المكان، ودخلت على المحقق الذي كان يلبس اللباس العسكري ومعه مترجم.

التحقيق

يظهـر مـن كلام المترجم الـذي صَحِـب المحقق أنـه عراقي، وهنـاك شخصـ ثالث يلبس اللباس المدني يكتـب كل شيء يسمعه، كان هذا في اليوم الأول لوصولنا إلى كوبا، الغرفة هنا نظيفة وواسعة وفيهـا أجهزة تكييف حديثة، وأجهزة أخرى أنا لا أعرفها، أجلسني الحراس على الكرسي، فكوا قيد اليدين فقط، وربطوا قيد القدمين بحلقـة مثبتة في أرض الغرفة، بحيث لا يستطيع السجين أن يتحرك إلا حركـة بسيطـة، لا يستطيع أن يقـف، ولو فكـر أن يقوم ويحاول الاعتداء على المحقق أو المترجم مثلاً لا يستطيع.

بدأت الأسئلة عن السيرة الذاتية من المولد حتى وقت الاعتقال، فأجبتـه كمـا أجبـت غيره كمـا هي السـيرة الذاتيـة في بداية هذا البحـث، قال ما هي آخـر أعمالك؟ قلت: آخر عملـي كان في معهد الأنصار العلمي في حياة آباد بيشاور باكستان، قال هل تظن أن هذا

المعهـد أغلق من دون سبب؟ قلت له: إن هذا المعهد أغلقته الحكومة الباكستانيـة؛ لأنها كانت تريد أن تنهي الوجود العربي في باكستان، لقـد قررت هـذا، وتريد أن تطبقـه سواء كان هذا القـرار برغبتها وإرادتها، أم بسبب ضغوط خارجية عليها.

ثـم إن هذا المعهد كان تابعاً للمعاهـد اليمنية في اليمن، ويعمل تحـت إشراف السفـارة اليمنية ومعرفتها في إسـلام آباد، والمعهد مناهجـه مثل مناهج أي مدرسة حكومية في اليمن، فيه الرياضيات والعلـوم والاجتماعيـات واللغـة الإنجليزيـة وغيرها، لكـن يضاف إلى هـذه المواد مواد إسلامية وعربية، ولمـا قامت الحكومة اليمنية وأغلقـت معاهدها، أغلقت معهد بيشاور؛ لأنـه كان يتبع لها، وعلى حـد سواء أن كان هذا الإغلاق برغبتها وإرادتها، أم بسبب ضغوط خارجية، مع ترجيح الرأي الثاني كما سمعنا.

كان المحقق لا يناديني باسمي الحقيقي -حسين- كان يناديني بكنيتي- أو عبد الله- في كل سؤال يقول: أبو عبد الله كذا...

فأجبته ثم قال لي: إن اسمك أبو عبد الله على اسم أسامة بن لادن، فـإن اسمه أبو عبد الله، قلـت له: إن اسمي أبو عبد الله منذ أكثر من ثلاثين سنة وقبل أن أتزوج وقبل أن أسمع بأسامة بن لادن بعشرات السنين كانت كنيتي أبو عبد الله، قبل أن يخلق عبد الله بن أسامة بن لادن، تبسم المحقق وغير الحديث.

وقد استمرت الجلسة أكثر من ساعة وفي آخرها قال لي: أنت الآن متعب وقادم من سفر بعيد، ترجع الآن إلى غرفتك وتستريح وعندما نحتاجك سوف نطلبك، قلت: جيد، فجاء الحراس وفكوا قيد الأرض الذي يمسك بسلسلة القدمين وأعادوا قيد اليدين، خرجت من مكان التحقيق، وهو غرف طويلة بجانب بعضها يقابلها غرف مثلها بينهما (بهو) كرادور، الغرف ليس لها نوافذ أو فتحات من الخارج، أركبني الحراس في سيارة صغيرة تستعمل داخل المعتقل مكشوفة، أحدهم يجلس بجانبي، ويمسك بسلسلة الخصر الحديدية التي تقيدني والآخر يقود السيارة، وصلنا إلى عنابر النوم والإقامة عبر أبواب وحواجز أمنية مشددة، وصلنا العنبر وصوت المؤذن يسمع لصلاة العشاء، أدخلاني إلى الغرفة وكانت في طرف العنبر من جهة الباب، المطلوب الآن حل القيود والسلاسل.

قال الحارس لي: تجلس على ركبتيك ووجهك إلى الحائط المقابل لباب الزنزانة، أي ظهرك لبابها، وأحد الحارسين يمسك بك بيديه، الأولى يمسك بها كتفك، والثانية على رأسك، والحارس الآخر الذي يوجد معه مفتاح السلسلة يفك أولاً قيد الرجلين والسلسلة متصلة بسلسلة تحيط بخصرك وسلسلة الخصر تشد على جسمك-خصرك يقوم بفكه، فتصبح حركة اليدين الآن سهلة، لكنهما مقيدتان مع بعضهما، ترفعهما من الأمام من جهة

صدرك ووجهك بمستوى رأسك بعد أن يسحب الحارس السلسلة من بـين رجليك جهة الأمام، يقوم الحارس المكلـف بفك السلسلة بفك إحدى يديك من الحلقة ويضعها خلف رأسك، فيمسك بها الحارس الآخـر، ويجعلها ملتصقة برأسك، ثـم يفك الحلقة الثانية ويضعها علـى اليد الأولى ويمسك بهما معاً ويلصقهما برأسك، فتصبح الآن مـن دون قيود، لكنّ يديك خلف رأسك، أنـت الآن كأنك تجلس بين رجليه والآخر يقف بجانبك، يده الأولى على يديك الموجودتين خلف رأسك، ويده الثانية يمسك بها كتفك.

الآن ممنـوع أن تتحـرك أي حركة وممنـوع أن تتكلم أي كلام، الحارسـ المكلـف بفـك السلاسل يقف خلـف ظهرك وظهـره إلى جهـة باب الزنزانة، يخرج هذا الحارسـ متراجعاً القهقرى خطوة خطـوة ووجهه إلى السجين الجالس حتـى يخرج من باب الزنزانة، الآن الحارس الـذي يمسك بك يرجع القهقرى فينظر إليك وظهره إلى بـاب الزنزانـة خطـوة خطوة، ثم يرفـع يده الثانيـة عن يديك الموجودتين على رأسك، يرجع بسرعة، ويغلق باب الزنزانة بسرعة، ولا يسمـح لـك الجنود بـأي حركة مهمـا كانت قبـل أن يغلق الباب بالقيـد -بالقفل- فإذا أغلق باب الزنـزانـة بالقيد يقول لك: انتهى يمكنك أن تقوم الآن.

إن أي حركـة تقـوم بها في أثناء فـك القيـود أو ربطها، سوف تعرضـك إلى عقوبة معينـة، يكتب الحارس الـذي يحرسك، سواء

حـين أخذك من الزنزانة أو حين إرجاعك إليها، يكتب عنك تقريراً عمـا جرى إلى المسؤول عنـه، فيقرر عليك العقوبـة، أولاً تسجل في ملفـك في السجـن بأنك صاحب مشكلات واعتـداءات، وربما يفتح معـك المحقق جلسة بهذا الأمر، وربما تفسر هذه الحركة التي قمت بهـا بأنها محاولة للاعتداء على الحارس بالضرب مثلاً، أو محاولة هـروب، أو مخالفة القوانين في السجـن، أو أي تفسيرات وتعليلات أخرى عندهم.

الزنزانة الانفرادية

دخلنا إلى الزنزانــة التي يسمونها بيتك (Your home) إنك تجـد في الغرفة قطعة مــن الإسفنـج، تصلي عليها أو تنام أو تجلس أو تأكل عليها، أو تستــتر بها عند قضاء الحاجة، ويوجد فيها بطانيتان متوسطتان، واحدة تضعها تحت رأسك -مخدة- والثانية تتغطى بها، ومنشفة صغـيرة وأخرى كبـيرة، وصابونة صغـيرة، وفرشاة أسنان صغـيرة من دون يد تضعها في رأس إصبعك حين الاستعمال لتنظيف الأسنان جيداً، تجد في الغرفة كوب ماء بلاستيكيًّا صغيرًا للشرب، أو الوضوء أو لقضاء الحاجة، ومصحف شريف- طبعة المدينة المنورة- ومعجون أسنان، ومُلاءَة بيضاء متوسطة يسمونها «شيت».

أمــا بناء الغرفة وتكوينها، فكل مــا في الغرفة حديد، الجدران والسقــف والأرضــ، يوجد في الغرفــة دورة مياه- حفــرة- ومغسلة صغـيرة، وحنفية مــاء، وسرير عبــارة عن قطعة حديــد طويلة من

أول الغرفـة إلى آخرها طولاً، وهو أطول من الإنسان بقليل، السرير مثبـت بالجدار، ويرتفع عن الأرضـ أكثر من متر، في سقف الغرفة فتحة صغيرة يأتي منها الهواء البارد؛ لأن الجو حار والزنزانة حديد تمتصـ الحرارة في النهار، لكن البرد في الليل يؤذيك ولا يسمح لك الجنـود بخفض الهـواء البـارد ولا إغلاقه، ولا يسمـح لك الجنود باستلام غطاء آخر زيادة عما عندك لتتقي به برد الليل.

الغرفـة مغلقـة من كافـة الجهـات، إلا فتحة صغـيرة بالباب، يأتيـك منها الطعام والشـراب أو الدواء، يوجـد في الغرفة مروحة صغـيرة لسحب الهواء من داخل الزنزانة إلى خارجها، هذه الغرفة أو هـذا العنبر يسمونه بالانفرادي، طول الغرفة متران ونصف المتر تقريباً، وعرضها متر ونصف المتر إلى مترين تقريباً.

الطعام

كان التاريخ هو شهر أغسطس من عام ٢٠٠٢م بداية الشهر كما أذكر، بعد قليل من وصولنا أحضر الحارس وجبة طعام عبارة عن أكياس جاهزة، داخل هذه الوجبة كيس فيه معكرونة، وكيس فيه قطعتان من البسكويت، مع معجون فول سوداني، وقطعة كيك وكيس فيه عصير وملعقة تأكل بها، لكن وقت الطعام ثلاثون دقيقة من وقت تسليمه، ولا يسمح لك أن تبقي الطعام عندك أكثر من هذا الوقت، إما أن تأكل الطعام وإما أن ترده إلى الحارس، هذه الوجبات ليس فيها لحم أو دجاج أو سمك أو أي شيء من البروتينات الحيوانية، نمت تلك الليلة وفي منتصف الليل أيقظني البرد؛ لأن الغطاء ليس كافياً، ولأن ما يوجد تحتنا قطعة إسفنج لا تقينا برد السرير المصنوع من الحديد.

وقد طلبت من الحارس غطاءً آخر، كنت أظن أن هذا ممكن أو مسموح به، فقال الحارس: لا أستطيع، فعرفت بعد ذلك أنه لا

يمكـن أن يصـرف لك غطاء زيـادة عما عندك، بقيـت أتقلب على السرير دون نوم من شدة البرد حتى الصباح، سمعت الأذان، فقمت توضـأت وصليت الفجـر، كل واحد يصلي في غرفتـه، بعد الصلاة مباشـرة يأتي الفطـور وقته ثلاثـون دقيقة ويتكون مـن كوب شاي وكوب حليب صغيرين، وبيضـة واحدة مسلوقة، وقطعتين صغيرتين مـن الخبز، وثمرة فاكهـة واحدة، وكمية قليلة مـن الدقيق أو الأرز المطحـون المطبوخ، وكمية الطعام قليلـة لا تكفي الإنسان، ولا يسمح لك باستلام طعام زائد.

في الساعة التاسعـة صباحاً جاء جندي ومعه بطاقات صغيرة يعرض فيها علـى السجناء كتابة رسائـل إلى أهاليهـم إن أرادوا، يتسلـم السجين البطاقة وقلمًا بسيطًـا جداً من الحبر الجاف، بعد كتابـة الرسائـل لا يسمح لـك بامتلاك القلم أو إبقائـه عندك، إنه يسجـل عليك كل شيء حتى تـرده إليه بعد الانتهاء من الكتابة، بعد ذلك بساعة جاء جندي ومعه بعضـ الكتب البسيطة باللغة العربية وبالإنجليزية وبالفارسية، باللغـات التي يتكلم بها السجناء، تختار الكتـاب الـذي تريده من هذه الكتـب، تقرؤه ثم تعيده بعـد أسبوع، تستبـدل بهذا الكتـاب كتاباً آخر بعـد أسبوع أو يمكنـك أن تجدده عندك أسبوعاً آخر.

جـاء وقت الغـداء وكان الغـداء، قليلاً مـن الأرز، وخضراوات قليلة وقطعة خبز، وثمرة فاكهة، أما اللحم والدجاج والسمك فأذكر

أنهـم كانوا يقدمون لنا نوعـاً واحداً مرة واحدة في الأسبوع والكمية قليلة طبعـاً، أذن الظهر والغداء قبل الصلاة، فجلس كل واحد بعد الغداء إلى العصر، وبعد العصر إلى المغرب بعضنا يقرأ أو ينام، أو يتكلم مع جيرانه داخل العنبر من خلال النافذة الصغيرة الموجودة في بـاب الزنزانة، أذن المغـرب، فصلى كل واحد في غرفته، ثم جاء طعام العشاء وهو مثل الغداء مع اختلاف قليل، والكمية قليلة، وهذه ليست ملاحظتي بل ملاحظة الكثيرين.

وأذكـر أننـي أخبرت المشـرف الاجتماعي كمـا يسمونه بكمية الطعام القليلة التي تقدم لنا، وذلك في أول مرة أراه، قلت للجيران: مـن هذا؟ قالوا: هذا المشرف الاجتماعي، قلت له: إن كمية الطعام التـي تقدمونهـا قليلـة وإن لم تصدقنـي، فاسـأل الآخريـن، قال: أصدقـك قلت له: اسألهم، قال: قلـت لك: أصدقك، لكن لم يحدث تحول أو زيادة في كمية الطعام، بقيت كما هي مع للأسف، أما وقت الطعـام، فهو ثلاثـون دقيقة، ثم عليك أن ترجـع الصحن والملعقة، وقشر الفاكهة أو بقية التفاحة، أو قشر الموز، ويسألك عنها الحارس إن لم يجدها في الطبق عند إرجاع الطعام، وأخطر شيء عندهم أن تحتفـظ بالملعقة ولا ترجعها لهم؛ لأنهم يعدونها آلة حادة كالسكين، وهذا عندهم شيء خطير وتعاقب عليه وتتعرض للتفتيش الدقيق في جسمك وملابسك وغرفتك وأغراضك.

بعد طعام العشاء أذن المؤذن لصلاة العشاء، والأذان هذا كنا نسمعه بمكبرات الصوت في كل عنبر وفي جميع الأوقات وبعد شهور وقف الأذان عن بعض الأوقات، وبقي في بعضها، وأخيراً أوقفوا الأذان تماماً في جميع الأوقات ولم نكد نسمع أي أذان وكنا نعرف أوقات الصلاة عن طريق الشمس والظل، وكان بعض الجنود يخبرنا بالوقت.

انتهى اليوم الأول بسلام، كان بعض المعتقلين يذهب للتحقيق وبعضهم يذهب للعلاج وهذا العنبر يسمونه بالانفرادي؛ لأن كل سجين في غرفة لا يرى أحداً ولا يراه أحد، الجدران غير مشبكة بل مغلقة، ألواح حديدية لا ترى عن يمينك ولا عن يسارك ولا من خلفك ولا من أمامك ولا من فوقك ولا من تحتك، نافذتك على العالم هي الفتحة الموجودة في باب الزنزانة، ترى منها وتتكلم مع جيرانك منها ويأتيك الطعام والشراب أو الدواء منها، قضيت في هذا العنبر سبعة أيام أو ثمانية كانت غرفتي في طرف العنبر من جهة باب الدخول، وأحياناً أقف على نافذة الباب، أشاهد الجنود يلعبون الورق، أو يتحدثون، أو يقرؤون الجرائد والمجلات، وهذا غير مسموح به للجنود؛ لأنهم كانوا يخفونها حين يحضر المسؤول.

كانت معاملتهم لنا في الأسبوع الأول هادئة، إذ كان يتناوب على حراستنا في كل يوم (٢٤) ساعة ثلاث مجموعات، كل مجموعة ثماني

ساعــات، وهذه المجموعات لا تأتــي عندنا كل يوم في وقت معين، بل ربما يمر الأسبوع والأسبوعان حتى يرجع بعضها إلينا ،كان الخروج إلى المشي والرياضة والاستحمام مرتين كل أسبوع،تخرج مقيداً إلى ساحتــين في مؤخرة العنبر المقابل لباب الدخول، وهما ساحتان لكل عنبر بجانــب بعضهما ،كل ساحة من هاتــين الساحتين المتجاورتين محاطة بالأسلاك المشبكة من كل الجهات،وحتى السقف.

وبجانــب هذه الساحة حمــام اغتسال،سعة الساحة (١٠-١٥) مــتراً طولها، والعرض مثــل ذلك، تدخلها الشمــس والهواء من كل الجهــات، لك الحرية في أن تمشي بها أو تهــرول أو تركض أو تلعب التماريــن الرياضيــة أو تجلس، وقد مرت أوقــات يقدمون كرة قدم لأصحــاب الدرجــات الأولى عندما استحدثت الدرجــات في عنابر السجــن، وربمــا يسمــح لك بالــكلام من هــذه الساحة مــع العنبر المجــاور، الساحــة الواحــدة لا يوضع فيهــا إلا سجــين واحد، بعض الحراس لا يسمح لك بالكلام مع العنبر المجاور، ويقول لك: الكلام مع الآخرين مخالف لقوانين السجن.

الخــروج إلى هــذه الساحة من غرف السجــن، تكون مقيداً في اليديــن والرجلــين والخصــر، ومن حسنــات معسكــر جوانتنامو - كوبــا- أنه لا غطــاء للرأس أو العينين في هــذا السجن، أي أن كيس الرأس غير موجود.

الرياضة والاغتسال

إن الذهاب إلى الساحة الرياضية مرتين في الأسبوع أمر متعب للسجين، مع أن السجين يحب هذا الخروج، ولو كان هذا الخروج فيه تعب، فالخروج كل ثلاثة أيام مرة؛ لأن العنبر فيه (٤٨) سجينًا، وكل يوم يخرج الحراس (١٦) سجيناً، ثمانية في الصباح وثمانية في المساء، يبدأ الخروج صباحاً من الساحة (٨) إلى (١٢) أي حتى وقت الغداء، فيأتي الشفت الثاني، الوردية الثانية الساعة (٢) بعد الظهر، يخرجون السجناء الثمانية، من الساعة (٢) إلى غروب الشمس، نادراً جداً أن تغرب الشمس قبل الانتهاء منهم.

عندما تأتي نوبتك للخروج إلى الرياضة يدق عليك الحارس، فتستعد، والحارس ينظر إليك من نافذة الباب الصغيرة، ولا يمكن أن يفتح عليك الباب حتى تستعد، والاستعداد يكون بالجلوس على ركبتيك على الأرض، وتضع يديك خلف رأسك فوق بعضهما،

فظهـرك يقابل باب الزنزانة وأنت في هـذا الوضع يفتح الحارسان عليـك الغرفـة، ويدخلان بسرعـة، أحدهما يمسـك بمنكبك باليد الأولى، ويمسك باليد الثانية على يديك.

أمـا الحارس الثـاني فيقوم بتقييد رجليك مـن الكعبين بسلسلة تصـل بـين كعبيك، طولها نصف مـتر أو يزيد قليـلاً، كل كعب يقيد بحلقـة ليسـت ضيقة كثيراً علـى رجليك، لكنها لا تخـرج من رجلك تتحـرك داخـل الرجل قليـلاً ويقفل الحلقة بمفتـاح صغير ومن هذه السلسلـة التي تصـل بين كعبيك تخرج من منتصفهـا سلسلة تتصل بسلسلـة يربط بها الحارس خصرك بقفل من جهة ظهرك، ثم تمتد السلسلة ويسحبها الحارس من بين رجليك، وأنت جالس على ركبتيك علـى الأرض إلى جهة الأمام نحو السرة تقريباً، طرف هذه السلسلة الآن فيـه حلقتان على شـكل T بالإنجليزية، كل حلقة تبعد عن أختها (١٠-١٥) سم، يأخذ الحارس إحدى يديك ويضعها في الحلقة الأولى ويغلق الحلقة بمفتاح صغير، ثم يأخذ اليد الثانية ويضعها في الحلقة الثانية ويقفل عليها بمفتاح صغير أيضاً داخل اليد.

حلقـة اليد مثـل حلقة الكعـب تتحـرك- الرسغ- لكـن ليست مشدودة تماماً على اليد، لكنها لا تخرج من اليد طبعاً.

الآن أنـت مقيـد لا تستطيع النهوض وحدك، يقـوم الحارسان بمساعدتـك في الوقـوف ويكون الحـذاء الحفيـف- الشبشب- في

رجلك مسبقاً، كل حارس يقف من جهة، واحد جهة اليمين وآخر جهة الشمال، الواحد منهم يمسك بك بكلتا يديه، اليد الأولى يمسك بها كتفك، واليد الثانية يمسك بالسلسلة الموجودة على خصرك، وتمشي إلى خارج غرفتك ويقوم الحارسان بتفتيشك، وكل حارس يفتش الجهة التي يقف فيها الواحد بعد الآخر، يفتش ثيابك وجسدك حتى أماكن العورة، من الأمام والخلف.

بعض الجنود ربما يفعل هذا وبعضهم يفتش بعيداً دون أن يقترب من العورة، ويقوم الحارس بنفض وتحريك قميصك أو بنطالك الذي تلبسه، ويفتش حتى الحذاء- الشبشب الذي تلبسه -يقوم بطيه والتدقيق والتحسس عليه، إنه يفتش حتى شعر رأسك وشعر لحيتك، إنه يفتش طيات القميص أو البنطال يهزه ويرفعه وينزله حتى تنتهي عملية التفتيش بسلام، وكم أثار تفتيش أماكن العورة من مشكلات بين السجناء والحرس، وإذا وجد بين الحراس مجندات وكان المكلف بنقلك إلى التحقيق أو إلى الرياضة رجل وإمرأة يقوم الرجل بالتفتيش من الجانبين دون تدخل من المرأة.

وكثير من السجناء لا يوافق على الخروج إلى التحقيق أو الرياضة مع امرأة، فيخسر المشي والخروج للشمس أو الاغتسال، تنتهي عملية التفتيش ويمشي السجين بين الحارسين إلى ساحة المشي التي سبق ذكرها، يجلس السجين على ركبتيه لفك القيود

كما جلس في غرفته، عندمـا قيدوه يقوم أحد الحارسين بالإمساك بإحدى يديه على كتفك واليد الأخرى على رأسك.

يقوم الحارس الآخر الآن بفك القيود عن جسمك، بحيث يفك أولاً قيد الرجلين ويحمل السلسلة بيده إلى جهة ظهرك، حيث توجد سلسلة علـى خصرك، مقفلة من جهة الظهر بقفل يفكه ثم يسحب السلسلـة من بين رجليك إلى جهة الأمام، جهة يديك المقيدتين لكن حركتهمـا الآن إلى أعلـى أو أسفل سهلة ثم يرفـع يديك المقيدتين، فوق رأسك فيفك اليد الأولى من الحلقة ويضعها على رأسك، يقوم الحارسـ الأول الـذي يمسك بكتفك ورأسـك، بوضع يده على يدك الموجـودة علـى رأسك، ثم يقـوم الحارس المكلف بالفـك بفك اليد الثانيـة، ويضعها لك على يـدك الأولى الموجودة فوق رأسك، فيقوم الحارسـ الأول بوضـع يده على كلتا يديـك الموجودتين على رأسك، الحارس المكلف بالفك يحمـل السلسلة بيده ويرجع إلى الخلف إلى جهة باب الشبك الذي يحيط بمكان الرياضة.

الآن الحارس الذي يمسك بكتفك ويديك يرجع القهقري خطوة خطوة بعد أن يترك كتفك ويديك، يرجع إلى باب الساحة الرياضية ووجهه جهة السجين ووظهره جهة الباب، لا يسمح لك الآن بعد فك القيـود بـأي حركة حتى يغلـق الحارسان بـاب الساحـة الرياضية المشبك، وعندها يطلبان من السجين أن يقف ويمشي أو يهرول كما

يشـاء، ولو تحرك السجين بعد فك القيود وقبل أن يخرج الحارسان من الساحـة الرياضية ربما تعرض للضرب منهما أو يمسكان به أو يجلسـان عليه؛ لأن هذا يعد محاولة لضربهما والاعتداء عليهما، أو يُعد محاولة للهرب.

إن هـذه المحاولـة تعرض السجـين للعقوبة، فيسمـح للسجين بعشرين دقيقة يمشي أو يهرول حسب رغبته، قد تزيد قليلاً أحياناً، إذا انتهـى وقـت المشـي يجلس السجـين، كما جلس عنـد أخذه من غرفتـه للمشـي ويقيدونه هنا كمـا قيدوه هناك، ثـم يخرجانه من ساحـة المشي إلى حمام الاغتسال، الذي يبعـد خمسة أمتار تقريباً عن باب الساحة الرياضية، إذا أدخل إلى الحمام يجلس كما جلس في ساحة الرياضة، ويقوم الحراس بفكه هنا كما فكوه هناك، يغلق عليه الحراس بـاب حمام الاغتسال، فالمكان للاغتسال فقط وليس لقضـاء الحاجة، باب الحمام مشبـك ربما يضع السجين منشفة أو بنطاله على الشبك إن أراد وقت الاغتسال؛ حتى لا يراه أحد.

أما مدة الاغتسال فهي خمس دقائق قد يزيدها بعض الحراس، لكن المدة القانونية هي خمس دقائق، يحدث أن بعض الحراس يشدد علـى السجـين، وربما أغلق عليه المـاء قبل الانتهاء مـن الاغتسال، والصابـون علـى جسمـه؛ لأن التحكـم في المـاء فتحـاً وإغلاقاً من الخـارج بيـد الحراس وليس بيد السجين، بعض الحراس قد يفتح لك الماء دقيقة أو دقيقتين؛ ليكمل السجين الاغتسال.

وبعض الحراس لا يوافق على فتح الماء، يقول لك: القانون خمس دقائق، ولو لم تكمل اغتسالك، الحارس يقدم لك الصابون- قطعة صغيرة- والشامبو كمية قليلة وبعضهم يعطيك أحياناً العلبة تستعمل منها ما تشاء، يقدم لك الحارس شفرة الحلاقة كل أسبوع مرة؛ لإزالة ما تريده من الشعر، بعض السجناء يحلق لحيته وهم قلة جداً .

حدث أكثر من مرة أن تأخر تقديم الشفرة للسجناء، فتسأل عن السبب فتجد أن بعض السجناء استعمل الشفرة استعمالاً غير جيد، أراد أن يمثل على إدارة السجن أو أراد أن يخوفهم، يظهر أنه يريد أن ينتحر فيجرح يديه أو رجليه بهذه الشفرة، فيخرج الدم من جسمه، بعض السجناء حالته النفسية صعبة لا يدرك ما يفعل عندما يجرح نفسه، ربما يريد أن ينتحر فعلاً وبعضهم يريد طلبات معينة من إدارة السجن، وبعضهم الآخر عليه ضغوط معينة من إدارة السجن، أو من التحقيق، فيقوم بجرح نفسه؛ ليرفع هذه الضغوط عن نفسه؛ ليقابل هذه المشكلات والضغط الواقع عليه؛ ليهرب منها أو. . .

وإذا انتهى الحمام أغلق الحارس عليك الماء، ثم تجلس على أرض الحمام على ركبتيك للربط والتقييد، كما جلست في غرفتك عندما خرجت للمشي، أو كما جلست في مكان المشي تخرج من

الحمـام؛ لكي ترجع إلى غرفتك، تصل الغرفة، تجلس على ركبتيك في الغرفة في آخرها مقابل الباب، قريباً من مكان (قضاء الحاجة) لفك القيود والسلاسل عن جسمك، ثم يخرج الحارسان كما ذكرت من قبل.

إن هـذه العملية من الربـط بالسلاسل، ثم فكها تحدث في كل مرة يخـرج السجين فيها للاغتسال والمشي والرياضة، ثلاث مرات للربـط والتقييد، وثلاث مرات للفك والحـل لهذه السلاسل، مع أن الخروج للاغتسال والمشي مرتان في كل أسبوع.

انتهـى الأسبوع الأول مـن وصولنا إلى كوبا، وبعـد ثمانية أيام من وصولنـا، جاء الحارس وقال لي: اجمـع أغراضك ستنتقل، ثم سلمنـي كيسـاً بلاستيكياً وضعت فيه جميـع أغراضي إلا المصحف وضعته داخل المنشفة لحملـه بيدي، عملية النقل لا تتم إلا بالتقييد والسلاسـل، تجلسـ في غرفتك على ركبتيك وتقيـد بالسلاسل كما تقدم، حملـت المصحف بيدي وسرت إلى العنبر الجديد مشياً على الأقدام، وحارس عن يميني يمسكني بيديه، إحدى يديه على منكبي والأخـرى يمسـك بهـا السلسلة الحديديـة الملتفة علـى خاصرتي، والحارسـ الآخر علـى الجانب الآخر يفعل مثلـه، كان العنبر الذي انتقلت إليه قريباً، فوصلت إلى العنبر الجديد، إنه يختلف عن العنبر الذي كنـت فيه، العنبر الجديد مستطيل الشـكل، عبارة عن عنابر

بجانب بعضها (٤-٥) عنابر، كل عنبر يتكون من (٤٨) أو (٤٦) أو (٢٤) غرفة، نصف هذه الغرف في جانب ونصف الغرف الآخر، في الجانب الآخر مقابلها يفصل بينهما (بهو) كرادور، كل صف من هذه الغرف ملتصق ببعضه والكرادور من أول الغرف إلى آخرها يمشي فيه الحراس والجنود لمراقبة السجناء ولتقديم الخدمات لهم، يفصل بين العنبر والعنبر الآخر مسافة (٣-٥) أمتار.

ويوجد شبك بين كل عنبرين، يرتفع (٣) أمتار تقريباً مغطى بالقماش أو الشادر، وجدران الغرف من جميع الجهات الأربعة مشبكة بشبك صغير كل شبك (٣-٤) سم طول × عرض، إلا الجهة الخلفية، نصفها الأسفل مغلق وليس شبكاً لستر مكان قضاء الحاجة، أما سقف الغرفة فمغلق تماماً بسبب الشمس أو المطر، شبك الغرفة من الجهات الأربعة يسمح بالرؤية ودخول الشمس والهواء ومرور بعض الحاجات الصغيرة بين كل غرفتين ينقلها السجناء سراً بين بعضهم سواء أكانت طعاماً أو غيره.

باب الزنزانة من جهة الكرادور- بهو- مشبك أيضاً، وفيه نافذة صغيرة لتقديم الطعام أو الدواء أو.. منها للسجين، كل غرفة فيها متطلبات واحتياجات السجين الضرورية، سرير مثبت بين جدران الغرفة، يرتفع عن الأرض قرابة المتر والربع، وفي الغرفة مكان لقضاء الحاجة ومغسلة صغيرة وحنفية ماء للشرب أو

الوضوء، وطبعاً جميع أغراضك التي كانت معك في العنبر السابق انتقلت معك إلى هذا العنبر، كان رقم غرفتي (٢٥) أي آخر غرفة من العنبر، يقابلني غرفة رقم (٢٤).

ومثل هذه الغرف، كذلك رقم (١) أو رقم (٤٨) لا يرغب فيها السجناء؛ لأنها منعزلة جانبية، ليست مثل الغرف الموجودة في وسط العنبر؛ لأنها غرف حولها غرف، وأمامها غرف، فيستطيع السجين أن يتكلم مع المسجونين عن يمينه أو يساره أو أمامه، لكن الغرفة التي سكنت فيها تشرف على مكان الرياضة والمشي وأماكن الاغتسال، وهي غرفة تقع طرف العنبر، تدخلها الشمس صباحاً؛ لأنها جهة المشرق، فكنت أرى البحر الذي يبعد مئات الأمتار عن العنبر، عندما دخلت هذا العنبر بدأ السجناء يرحبون بالقادم الجديد ويشجعونه ويسمعونه كلمات المدح والثناء والتثبيت، وهي كلمات تقال عندما يأتي سجين جديد على العنبر، أو كلما غادر سجين عنبره إلى عنبر آخر.

بعد يوم من وصولي إلى هذا العنبر، وبعد أن خرجت إلى المشي والاغتسال ورجعت إلى غرفتي، جاء الحراس لأخذي إلى التحقيق، لا بد من التقييد بالسلاسل والتفتيش، كلما خرجت من غرفتك، سواء للتحقيق أو الاغتسال والمشي، وقد ذكرنا قبل ذلك كيف تكون عملية التقييد والتفتيش، لا بد أيضاً من تفتيش غرفة السجين

وأغراضـه كلما خـرج السجين من غرفتـه، أماكـن التحقيق عادة قريبة من غرف النـوم، تذهب إليها ماشيًا، وبعض العنابر البعيدة يذهبون إلى مكان التحقيق بالسيارة الصغيرة.

دخلنـا إلى غرفة التحقيق، والأسئلة بـدأت عن السيرة الذاتية منـذ ولادتك حتـى تم إلقاء القبض عليك، وتطـرق المحقق لبعض الأسئلـة الأخرى فيمـا إذا كنت أعرف تنظيم القاعـدة أو أحدًا من أعضائه، قلت له: أنا أعيش في باكستان، وهؤلاء الذين تسألني عنهم في أفغانستـان، سألنـي عن بعض أسماء عائلتـي وعملهم وسكنهم، قال: هل تريد أن تسأل شيئاً؟ قلت له: لماذا أنا هنا وكم سأبقى؟ قال: ستبقـى مدة طويلة؛ لأن التحقيق يتطلب هذا، والقضية كبيرة ولا بد من التأكد والتثبت من كل معلومة يقولها المسجون، قال: جيرانك في العنبر من أين هم؟ قلت: حولي أشخاص من العجم وأمامي أشخاص عرب من اليمن والسعودية والعنبر فيه جنسيات مختلفة.

قـال: عـن أي شيء يتكلمون؟ قلت: أنا بعيـد عنهم، أنا في آخر العنبر، إنهم يتكلمون كثيراً وفي موضوعات شتى، يتسامرون، يتلون القـرآن، يصلون، يتكلمون عن عادات وحـوادث في بلادهم، فماذا سـوف يتكلمـون؟! قال: هل تتكلم مـع جارك؟ قلت: إنـه أعجمي لا يعرف اللغـة العربية، كيـف سأكلمه؟ قـال: إذا سمعتهم في العنبر يتكلمـون عن أمور مهمة تضـر بالسجين أو بـإدارة السجن تخبرنا

عنـه، قلت: حسناً، أقـول: سمعت أنه يوجد فيهـم من يخبركم بما يجـري في العنابـر، لا حاجة لكم بي، وسمعـت أن العنابر يوجد بها أجهـزة للتنصـت علـى السجنـاء ولا أدري عن صحـة هذا الخبر، انتهت الجلسة ورجعت إلى الغرفة.

أمـا الكلام في كل عنبر أو صـوت الأذان، فكل عنبر فيه مؤذن يختـاره السجنـاء يؤذن لكل وقـت، أما الكلام، فمسمـوح به داخل العنـبر الواحد بين السجناء، تكلم من تشـاء في داخل العنبر الذي تسكـن فيه، وبصوت مرتفـع، أما الكلام من عنـبر إلى آخر، فغير مسمـوح به، وربمـا يعرضـك للعقاب غالبـاً، لكن بعضـ السجناء يتكلمون من عنبر لآخر ولا يلتفتون إلى العقاب، أما صلاة الجماعة، كمـا هي في المساجد، فغير ممكنة في داخـل السجن؛ بسبب طبيعة بنـاء السجن؛ لأن كل سجين في غرفـة منفصلة عن غيره، لكن كنا نصلـي جماعة وكل سجين في غرفته يتوجه إلى القبلة والإمام يكون في مقدمـة العنبر، متوجهاً إلى القبلـة في غرفته، ويرفع صوته كما يشاء؛ حتى يسمع أكبر قدر من السجناء.

أول الأسرى وصولاً إلى كوبا

إن الـكلام في السجن في بداية مدة السجن وكذلك الأذان، أو حتى الوقوف في داخل الزنزانة كان غير مسموح به، هذه الأمور كانت ممنوعة في بدايـة السجن الذي كانوا يسمونـه إكستري(extray) وهـو أول سجن بني في قاعدة جوانتنامـو العسكرية في جزيرة كوبا لمـن يطلقون عليهـم اسـم الإرهابيين مـن أسرى تنظيـم القاعدة وطالبان، سمعت من بعض مـن دخل هذا السجن (إكستري) وهي أول مجموعـة من الأسـرى تصل إلى كوبا، قال: كانـت رحلة شاقة مليئـة بالعـذاب، بعضهم جلـس شهـراً كاملاً، حيـث تم نقلهم في سفينـة، وبعضهـم وصل في الطائـرة، حيث تعرضـوا للضـرب عند وصولهم إلى جزيرة كوبا.

سمعت من بعضهم أن هذا السجن لم يكن مجهزاً بكل ما يلزم السجين، كان كل سجين في غرفة منفصلة، وفي داخل غرفته (سطل)

وعاء بلاستيكي فيه ماء للشرب أو الوضوء أو . . . ووعاء آخر (سطل) لقضـاء الحاجـة، وهم يسمونها «رقم (١) ورقـم (٢)، كان لا يسمح لهـم بالوقـوف أبـداً، كانوا طيلـة الوقت جلوسـاً، الحارس يأمرهم بالجلوس وعدم الوقوف وعدم الكلام وعدم الأذان ما كان أحد منهم يجـرؤ أن يصلي واقفاً إلا خلسـة وبسرعة؛ حتى لا يراه الحارس، لكن بـدأ السجناء يخالفون نظـام السجن شيئاً قليـلاً، دون أن يستجيبوا لأوامر الحرس، بدؤوا يقفون ويتحركون داخل الزنزانة، بدؤوا يصلون واقفـين، بـدؤوا يتكلمـون مع بعضهم بعضـا، وهكذا تغـيرت الأحوال عندهم إلى الأحسن.

بعـد أيام جاء الحراس، وقالوا لي: عندك تحقيق، قلت: جاهز تم التقييـد بالسلاسل كما سبق، وصلت إلى غرفة التحقيق، وجدت فيهـا شخصاً واحداً، جلسـت على الكرسي بجانبـي طاولة، عليها بعضـ الشوكلاتة الصغيرة والبسكويـت والتمر والحلوى الصغيرة، قـال: تفضـل كُلْ، قلت له: شكـراً، أخذت شيئاً قليـلاً، هذه الحلوى لا توجـد في السجن، نادراً جـداً أن تراها، إنه يتكلـم اللغة العربية بطلاقـة إنه عربي، وليس غربيّاً، قـال لي: أنا باحث اجتماعي زرت مصر وكثـيراً من البلاد الإسلامية، أكتب عـن الإرهاب والتطرف قلـت له: جيد، قال: لو تسمـح لي أن أسأل بعضـ الأسئلة، قلت له: تفضـل، كان بجانبه حقيبة متوسطـة وأمامه مصحف شريف كبير

الحجم طبعة المدينة المنورة، سألني عن سيرتي الذاتية ودراستي والأماكن التي اشتغلت فيها مدرساً وسألني عن التطرف والإرهاب وهل يجبر الإسلام غير المسلمين على اعتناقه أو الدخول فيه.

قلت له: إن الإسلام ما جاء ليجبر الناس على الدخول فيه، ومن كان له رغبة في الإسلام دخل فيه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والإسلام يحبب الناس فيه بالدعوة الحسنة والكلمة الطيبة ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). المسلم يعرض الإسلام على غير المسلم، إن أحب وأراد، ويناقشه بأحسن الأساليب وألينها وأسهلها، ولا يرفع عليه السيف ويهدده ويخبره إما أن تسلم وإما أن أقتلك، قال: هذه آية في القرآن؟ قلت له: نعم، قال: أين؟ قلت له: في سورة النحل في مكان كذا، فتح المصحف وسجل رقم الآية والسورة، إن الإرهاب أو التطرف أسماء وأوصاف ألصقها الناس بالإسلام، لكن الإسلام منها براء، إن أزهى عصور الإسلام هي التي كان يعيش فيها الكثير من غير المسلمين وكانت حقوقهم ودور عبادتهم محفوظة ومحترمة، لا يستطيع أحد أن يعتدي عليهم، كان هذا الباحث يكتب ويسجل كل ما يسمعه، أنهى الجلسة وشكرني وانصرف وجاء الحراس وأرجعوني إلى غرفتي.

بعد أيام جاء الحراس، وقالوا لي: عندك تحقيق، ربطوني بالسلاسل، وسرت معهم إلى غرفة التحقيق، في غرفة التحقيق

يفك الحراس قيد اليدين، لكنهم يربطون سلسلة القدمين بحلقة مثبتة في أرض الغرفة، هذا دائماً في كل مرة ذهبت فيها إلى غرفة التحقيق، جاء المحقق شخص واحد يلبس اللباس المدني لا يعرف العربية، قلت له: لو تحضر مترجماً، قال لي: هل تعرف الإنجليزية؟

قلت: قليلاً، قال: هذا يكفي، أنا أفهم عليك، قلت: لكن أنا لا أستطيع أن أفهمك جيداً أو لا أستطيع أن أوصل إليك ما في نفسي؛ لأنني لا أعرف الإنجليزية جيداً، فمعرفتي بالإنجليزية قليلة منذ أيام المدرسة، قال: هذا يكفي سوف أفهم، بدأ يسألني عن حياتي وبعض أقربائي وعن دراستي، حتى خرجت من فلسطين، وهل لي أصحاب خارج فلسطين في أوروبا وغيرها، سألني هل تعلم أسماء أغنياء خارج فلسطين يرسلون أموالاً إلى الناس في فلسطين؟

قلت له: أنا غادرت فلسطين منذ عشرين عاماً تقريباً، قبل أن تبدأ الانتفاضة، وقبل أن تبدأ التفجيرات والمصادمات بين العرب وإسرائيل، يبدو أنه كان يريد أن يعرف هل لي صلة بما يجري الآن في فلسطين؟ قال: هل يعيش أهلك في فلسطين الآن؟ هو يعبر عن فلسطين بإسرائيل، يقول: داخل إسرائيل، يعني داخل فلسطين، قلت له: نعم يعيش أهلي في فلسطين الآن، قال هل ترسل لهم أموالاً؟ قلت له: أنا لست غنياً، أنا لا أستطيع أن أرسل لهم أموالاً إلى الداخل،

ثم هم ليسوا بحاجة إلى الأموال، كانت الجلسة قصيرة، رجعت بعدها إلى غرفتي.

بعد أيام قليلة طلبوني للتحقيق، ذهبت، لا أذكر الأيام، ولا التواريخ لهذه الأيام؛ لأنه لا يوجد داخل السجن أي شيء تعرف به الأيام والتواريخ والشهور، الورقة و القلم ممنوعان، أي كتابة يعثرون عليها في غرفتك سواء على ورقة أو على أرض الغرفة أو جدرانها أو على السرير، يصورونها ويترجمونها ويحللونها، ثم تكون أنت المسؤول عنها يستجوبونك عنها وربما يفتحون لك عنها تحقيقاً، دخلت غرفة التحقيق، جلست، دخل المترجم وأظنه لبنانياً عرفته بلهجته يلبس اللباس العسكري.

أما المحقق فكان المحقق القديم، أعاد علي بعض أسئلة الجلسة السابقة، وأسئلته كلها تدور حول فلسطين، وما يجري فيها، أنا لا أدري إن كان هذا المحقق أمريكياً يهتم بالشؤون الفلسطينية، أم هو إسرائيلي يحقق معي، بصفتي من مواليد فلسطين وعشت نصف عمري تقريباً في فلسطين، كل ذلك جائز، سألني: هل يمكن أن يعيش العرب وإسرائيل في أرض واحدة متجاورين من دون قتال أو من دون مشكلات، كما تعيش الكثير من الديانات المختلفة في أرض واحدة؟ قلت له: يمكن إذا ضمن كل طرف حقوق الطرف الآخر، قال: لو زرتك في بيتك، هل يمكن أن تستقبلني؟

قلت له: نعم إن الإسلام لا يمنع ذلك، قال: أنا أمريكي غير مسلم، فأنا مسيحي، ولي صديق مسلم، هل تصدق أنني عندما أسافر خارج أمريكا لا أجد أحدًا أأتمنه على زوجتي وأولادي غير هذا الصديق المسلم، إن لي أصدقاء وأقارب كثيرين أرسلهم إلى بيت هذا الصديق؛ ليحافظ لي عليهم، في أثناء غيابي، قلت له: إن والدي تاجر متوسط الحال يشتري بضاعة في بعض الأحوال من تجار يهود إسرائيليين، من حيفا ومن تل أبيب، ولقد اتصل بي بالتلفون من عند هؤلاء التجار أكثر من مرة، له أصحاب تجار كثيرون يتاجر معهم، يشتري منهم ويبيع لهم، الحياة والمبادلة التجارية بينهم عادية، انتهت الجلسة ورجعت إلى زنزانتي.

اقترب موعد شهر رمضان لعام ٢٠٠٢م قامت إدارة السجن قبيل شهر رمضان بعملية نقل وتغيير لأماكن المسجونين، شمل النقل جميع المسجونين وكان النقل من عنبر إلى آخر، بحيث إنهم كانوا يجمعون كل جنسية من الجنسيات الموجودة في السجن بجانب بعضها عرباً كانت هذه الجنسية أم عجماً، أما الجنسيات الموجودة في السجن، فهي كثيرة، سمعت من بعضهم أنها ثلاث وأربعون (٤٣) جنسية من جنسيات العرب والعجم من دول عربية إسلامية وإسلامية غير عربية ومن دول غير عربية وغير إسلامية. توجد جنسيات من دول أوروبية، من أستراليا، وروسيا، والصين وأكثر

الجنسيات وجوداً هي الجنسية السعودية واليمنية والباكستانية والأفغانية، هذه الجنسيات الأربعة تشكل نصف المسجونين في جزيرة كوبا.

استبشر المساجين خيراً بهذا النقل وهذا التجميع، كل جنسية بجانب بعضها؛ لأن بعض الناس نقل أخباراً مفادها: إن إدارة السجن ستجمع كل جنسية مع بعضها بعضاً، ثم تقوم بتصفية المعتقلين الذين لا علاقة لهم بتنظيم القاعدة وطالبان، وبعد ذلك سيتم الإفراج عن أكبر عدد من المسجونين في هذه الجزيرة، ولن يبقى في هذه الجزيرة إلا عدد قليل من المعتقلين (١٠٠-٢٠٠) شخص تقريباً، والبقية سينقلون إلى مكان آخر قريباً من هذه الجزيرة - كوبا-، يجلسون فيه مدة من الزمن قبل أن ينقلوهم إلى بلادهم.

إن السجين ينتظر أي خبر يتعلق بالإفراج عنه، فإن كان الخبر صحيحاً حمد الله -عز وجل-، وإن كان غير ذلك حاول أن يفسره التفسير الذي يفرح به ويزرع الأمل في نفسه، لكن مرت الأيام دون أن يروا تجسيداً وتطبيقاً لما سمعوه، صحيح أن أناساً خرجوا من السجن لكن بأعداد قليلة، ولما خرجت أنا من رهن الاعتقال والأسر، بعد ٢٦ شهراً، مع أحد عشر سجيناً فيهم العرب وفيهم العجم كنت أنا الرقم الحادي عشر أو الثاني عشر من العرب المفرج عنهم؛ لأن

العرب المفرج عنهم أقل بكثير من أعداد العجم. . .من الباكستان أو الأفغان... أو غيرهم، لقد كان أول المعتقلين المفرج عنهم من جزيرة كوبا، بعض الأفغان، ثم جاء بعدهم بعض العرب، لكن ليست أعدادهم كثيرة مثل غيرهم.

لقد سمعت من بعض المسجونين أن أحد المحققين قال له: إن الذين ثبتت عليهم تهمة الانتماء إلى تنظيم القاعدة وطالبان من كل العرب والعجم الموجودين في جزيرة كوبا، حتى الآن خمسة فقط، والله أعلم بما قال، ثم قال له: إن العرب ليسوا كغيرهم ولا يجرؤ أحد من المسؤولين الأمريكان أن يوقع على إخراجهم، وذلك لأن العرب هم أصل هذه القضية والحملة وأساسها، إنهم العمود الفقري في الأحداث التي وقعت، سواء التي وقعت في أفغانستان، أو التي وقعت في أمريكا أو في اليمن أو إفريقيا أو غيرها، حيث الاعتداء على السفارات والمصالح الأمريكية، إنهم يخشون أن يطلقوا سراح بعض هؤلاء الأسرى، فيعودون للقيام بعمليات عدائية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، إن قسماً كبيراً من السجناء العرب بريئون ولا علاقة لهم بتنظيم القاعدة وحركة طالبان، حتى الذين ألقي القبض عليهم في أفغانستان أو على الحدود في باكستان، كثير منهم سمعوا بالجهاد الأفغاني وبالإمارة الإسلامية في أفغانستان، فتحمسوا ليروا بأم أعينهم ما سمعوا، أو ليشاركوا في

هذه الإمارة دون أن يخطر ببالهم أسامة بن لادن أو تنظيم القاعدة الــذي يرأسه، ما كان يخطر ببالهم أن يقوم أسامة بن لادن كما هو منتشــر ومشاع بين الناس بضرب مبنى التجــارة العالمي المكون من عمارتين في نيويــورك، أو بضرب وزارة الدفاع في واشنطن، ما كان هــؤلاء الشباب الذين وفدوا على أفغانستــان يظنون ولو ظناً ١٪ أن تأتي أمريكا في يوم من الأيام لتضرب أفغانستان، وتطالب باستلام أسامة بن لادن، ثم تقوم هذه الحرب الضروس غير المتساوية وغير المتكافئة في كافة المجالات.

ثم يقع هــؤلاء الشباب بيد قوات التحالــف الأفغاني الشمالي، أو بيد الحكومة الباكستانية، ثــم يقوم هؤلاء بتسليمهم أو بالأحرى والأصــح ببيعهم للقــوات الأمريكية، ثم يتهم هــؤلاء الأسرى بأنهم أعــداء الأمريكان ويريــدون تدميرها وإحلال الإســلام مكانها، ما كانــوا يظنون أن تقوم البلــد- أفغانستان التــي استقبلتهم وآوتهم، بــل وسكب الكثير منهم، دمه على أرضها وسقطوا مجندلين شهداء لحمايتهــا وضمــت أرضها قبــور الكثيرين منهم ولا تــزال قبورهم شاهدة وبارزة فيها.

مــا كان يظن هــؤلاء أن يقوم هذا الشعب بقتلهــم ومطاردتهم والبحــث عنهــم وتسليمهــم وبيعهم بثمــن بخس ليصبحــوا عبيداً يباعون في ســوق النخاسة العالمية، وليصبحــوا أسرى بيد أناس ما

كانوا يظنون أنهم يرونهم في يوم من الأيام بأم أعينهم، أو يلتقونهم في أي مكان في الأرض، ما كان يخطر ببال هؤلاء الشباب أن يصبحوا أسرى في يد القوات الأمريكية، ربما كان يخطر ببالهم أن يقعوا أسرى بيد القوات الأفغانية الحكومية الشيوعية، أو في أيدي القوات المسلحة الروسية، أو أن يسقطوا صرعى شهداء بيد هذه القوات، أما أن تقوم هذه الدول التي آوتهم ودافعوا عن أرضها وشعبها وأعراضها ودينها، مثل باكستان وأفغانستان بتسليمهم إلى القوات الأمريكية، فما كان هذا يخطر ببالهم أبداً، إن لسان حال هؤلاء الأسرى يقول:

وظلمُ ذوي القربَى أشدُّ مضاضةً ... علَى النفسِ منْ وقعِ الحسامِ المهنَّدِ

إن حال هؤلاء الذين يعيشون في أقفاص معتقل جوانتنامو وصناديقه في كوبا التي تبعد عن مكة المكرمة أكثر من ثلاثة عشر ألف كيلو متر، إن حالهم يقول:

ولَو كانَ سهماً واحِداً لاتقيتُهُ ... ولكنَّه سهمٌ وثانٍ وثالِثُ

إنهم يعيشون في أرض الأعداء والبعداء، أرض الغرباء، لا يعرف أحد عنهم شيئاً، ولا يسمح لأي وسيلة إعلامية أن تنقل ما يجري في هذه الجزيرة النائية إلا ما يمر من تحت سمع الأمريكان وبصرهم.

قصص اعتقال الأسرى

سمعت من بعضهم كيف كانت عملية اعتقاله وأسره، لما قامت الحرب في أفغانستان فرّ قسم من هؤلاء من أفغانستان إلى باكستان، فقد كانت الحدود الباكستانية مشحونة بالحراس والجنود الباكستانيين، وكنا نشاهد هذا على شاشات التلفزيون قبل اعتقالنا. لقد أسرتهم القوات الباكستانية وأودعتهم معتقلاتها، والذي نجا من الحراس والجنود أسرتهم القبائل الباكستانية الحدودية، لقد خدعتهم هذه القبائل، رحبت بهم في البداية وأكرمتهم بالمبيت والطعام وطمأنتهم بالأمن والحماية وأنهم سيقدمون لهم ما يستطيعونه لإيصالهم إلى بلادهم، سمعت أن بعض القبائل ذبحت لهم الذبائح، أدخلتهم إلى مضايفهم التي زينوها بصور المجاهدين وقاداتهم وصور الآليات والدبابات المدمرة.

لكـن بعد يومـين استيقـظ هـؤلاء الشبـاب فوجـدوا أنفسهم محاطـين بقوات باكستانيـة، قيدتهم وأودعتهـم السجن، ثم بدأت تأخذ استبيانات ومعلومات عنهم، وأخبرتهم أنهم سوف يسلمونهم إلى سفـارات بلادهـم في إسلام آبـاد، أحضرت لهـم بعض رجال الصليـب الأحمر الذي أخبرهم إن أرادو أن يكتبوا رسائل لأهاليهم يخبرونهـم فيها أنهم سوف يعودون إلى بلادهم قريباً، وأخذ منهم مختصرًا عن السيرة الذاتية لكل واحد من هؤلاء.

قسـم من الفارين مـن أفغانستـان إلى باكستـان استطاع أن يصـل إلى لاهـور وكراتشـي وغيرها مـن المـدن الباكستانية، لكن الشرطة الباكستانية لا تستطيع أن تجمع هؤلاء كلهم بهذه الطريقة السهلة والسريعة، إنما كانت هنالك إغراءات مادية لكل من يقبض على عربي ويسلمه إلى الشرطة الباكستانية، وهؤلاء سوف يسلمونه إلى الأمريكان، لقد طالت عملية اعتقال من كان في أفغانستان وفرَّ إلى باكستان، بالإضافة إلى عدد من العرب الذين كانوا يقيمون في باكستـان، بإقامات وجوازات صحيحة وعندهـم أعمال بمؤسسات إغاثية رسمية تعمل في باكستان لا علاقة لها أبداً من قريب أو بعيد بما جرى في نيويورك وواشنطن.

لقد كانـت الطائرة التـي حملتنا من بيشـاور إلى بجرام وهي طائـرة أمريكيـة طبعاً كان فيهـا مجموعة من العـرب تعرفنا على

بعضنا لما نزلنا في بجرام (أفغانستان) قال بعضهم: لقد كنا في كراتشي، وقال بعضهم: كنا في لاهور، وقال بعضهم: كنا في إسلام آباد، فالطائرة حملت مجموعة من كراتشي ثم هبطت في لاهور وحملت مجموعة منها، ثم أقلعت وهبطت في إسلام آباد وحملت مجموعة منها ثم هبطت في بيشاور وحملتنا منها ثم أقلعت وهبطت في بجرام، لقد كانت حملة شعواء شديدة، ويل للعرب منها.

لقد خضع هؤلاء المعتقلون أو معظمهم لعملية تفتيش دقيقة من قبل الشرطة الباكستانية التي صادرت كل ما وجدته معهم من أموال أو ساعات يدوية أو حاجات ثمينة، حتى النظارات الطبية أُخذت منهم، كما سمعت من بعضهم، أما الذين داهمت الشرطة الباكستانية بيوتهم، فقد صادرت منها أجهزة كمبيوتر وأجهزة تلفون وذهب وأموال، كل شيء ثمين طالته أيديهم صادروه ولم ترجع الشرطة الباكستانية منه شيئاً إلى أصحابه وهذه حوادث سمعتها من أصحابها الذين حدثت معهم عندما داهمتهم الشرطة الباكستانية في بيوتهم في بيشاور وغيرها، والله المستعان وحده على ما جرى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سمعت من بعضهم قصة اعتقاله، مجموعة من العرب كانوا جرحى في مستشفى كويته عاصمة إقليم بلوشستان الباكستاني، المحاذي لأفغانستان وإيران، أدخلوهم المستشفى، احترموهم،

رحبــوا بهــم، أي طلب لهــم ينفذونــه ويقدمونه لهم، حتــى إن أحد الجرحــى قال: طلبنا مرة أكلة سمك، فقال: لم يمضِ إلا وقت قليل، وإذا بجميــع أنــواع السمك أمامنــا، المقلي والمطهــو والمشوي، أخذ المستشفى منهم استبيانات، الاســم، الدولة، تاريخ الولادة، الحالة الاجتماعيــة، الأســرة عــدد الأولاد... زارهم بعضــ الدبلوماسيين العــرب العاملــين في سفارات بلادهــم في إسلام آبــاد، فطمأنوهم بأنهم سيرجعــون إلى بلادهم، لكن بين يوم وليلة قلب القوم لهؤلاء الجرحى ظهر المجــن، إذ استيقظوا في ليلة ظلماء وكما يقول المثل: [الليلــة ليس فيها قمــر] على قوات الأمــن الباكستانية تحيط بهم، قيدتهــم، مــع أنهم جرحــى لا يستطيعــون الهــرب، وبعضهم بقدم واحدة، قيدوا أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، ثم حملوهم إلى المطار، حملتهم الطائرة من مطار كويته الباكستاني، وهبطت بهم في مطار قندهار الأفغاني الذي يوجد فيه معتقل للقوات الأمريكية.

إن كل مــن اعتقــل أو ألقي القبضــ عليه عربيــاً كان أو عجمياً مــن باكستان أو مــن أفغانستان ومــا حولهما كان يحمــل وينقل في الطائــرات، إمــا إلى قاعدة ومعتقــل قندهــار أو إلى معتقل بجرام وفي هاتــين القاعدتين يتم الاستجواب والتحقيــق مع المعتقلين ومن ثم يتم تصفية هــؤلاء والتحقيق معهم والفصل في قضاياهم، فإما أن يكون العفو وإطلاق سراحهم وإما نقلهم إلى معتقل جوانتنامو-

كوبا- لكن المفرج عنهم من بجرام أو من قندهار لم يكن فيهم عربي واحد، حتى لو كان هذا العربي يقرأ القرآن أو يصلي فقط وليس له علاقة بالتدريب ولا بالمعسكرات ولا بتنظيم القاعدة ولا بحركة طالبان.

إن كل عربي وصل إلى بجرام أو إلى قندهار نقل إلى (جوانتنامو) كوبا وحصل على شرف الاستضافة الأمريكية، ونال وسام الزيارة لتلك القاعدة المشؤومة والجزيرة المنكوبة المنحوسة، لقد كان بعض المعتقلين الذين نقلوا من أفغانستان إلى كوبا موجودين أصلاً عند حركة طالبان وفي سجونهم ومعتقلاتهم، كان الطالبان يتهمونهم بالتجسس عليهم، لم يكن الطالبان راضين عنهم، فكيف اعتقلهم الأمريكان؟

إن الأمريكان يعتقلون كل من له علاقة وتعاون مع الطالبان وهؤلاء كانوا على علاقة سيئة مع الطالبان، فيكف اعتقلتموهم ونسبتم التهم إليهم؟! سمعت من أحدهم قصة اعتقاله إنه عراقي يعيش في بريطانيا منذ سبعة عشر عاماً، لم تطأ قدماه أرض أفغانستان لم يرَ أفغانستان حتى في المنام والأحلام، كان يعمل في التجارة والأعمال الحرة، وقبل اعتقاله بأسبوع تقريباً قرر السفر في مهمة تجارية، مع مجموعة مكونة من أربعة أفراد إلى دولة في غرب إفريقيا، تسمى جامبيا، مشهورة بزراعة الفستق (الفول السوداني)

إنهـم ذهبـوا إلى هذه الدولـة لإقامة مصنع لهم لإنتـاج الزيت من الفول السوداني؛ بسبب رخص سعره هناك، وبسبب الأيدي العاملة الرخيصـة، إنها مهمة تجارية لا علاقـة لها بالحرب ولا بالإرهاب، لا علاقة لها بتنظيم القاعدة ولا بحركة طالبان، إنها بلد تبعد أكثر مـن عشرة آلاف كيلو متر عـن أفغانستان، إنها في قارة وأفغانستان في قارة أخرى.

يقـول هذا المعتقل: عندما قررنا السفر إلى جامبيا عبر مطار لندن قامت قوات الأمن البريطانية باعتقالنا نحن الأربعة، مباشرة كلفنـا محامياً بالدفـاع عن قضيتنا واستطعنـا الخروج من المعتقل بعـد بضعة أيام، ثم السفر مباشرة خلال أسبوع مرة ثانية، خرجنا من لنـدن وصلنا إلى جامبيا، لما نزلنا مـن الطائرة المدنية ودخلنا مبنـى المطار جاء رجال الشرطة وتسلمـوا جوازاتنا الأربعة، وقالوا لنـا: تمهلـوا نريدكم قليلاً، كان هـذا القليل احتجازنـا مدة أسبوع في مـكان جيد نحن الأربعة، بعد أسبـوع تم إطلاق سراح اثنين منا يحملان الجنسية البريطانيـة، وتم تجديد اعتقال اثنين آخرين أنا أحدهمـا لا يحملان الجنسية البريطانيـة وتم نقلنا إلى مكان آخر غير جيد مـدة عشرة أيام، ثم تم تسفيرنا في طائرة صغيرة وحدنا من جامبيا إلى أفغانستان.

لقد قيدونا على مقاعد الطائرة تقييداً محكماً لا نستطيع معه الحركـة، أما الأعين فمغطاة والأذن مغلقـة والفم والأنف مغطيان،

وحتـى لا نحتاج إلى استعمال الحمام Tiolet قاموا بوضع حفاظات كبـيرة لنا كالأولاد الصغار؛ لاستعمالهـا للبول والغائط إذا احتجنا إليها، وكما يسمونها هم number one and nomber two، وصلنا إلى مكان، بعد رحلة طويلة عرفنا فيما بعد أنها كابل التي لم أزرها وأدخلهـا باختيـاري، فدخلتها ومشيت على أرضهـا بغير اختياري، ثـم أدخلونا إلى سراديب تحـت الأرض لا نرى شيئـاً، الدنيا ظلام طيلة اليوم والأربع والعشرين ساعة سواد دامس، غرفة لا ترى فيها شيئاً، ليس بها حمام لقضاء الحاجة Tiolet. لكن عندك في الغرفة وعاء (سطل) تستعمله لقضاء الحاجة، يعطونك بعض قوارير الماء البلاستيكية للشرب.

أمـا الطعـام فـكان مـرة واحـد كل (٢٤) ساعة، كميـة قليلة مـن الأرز والخبـز، يدخل عليك الحارس الملثم يحمـل بيده فانوساً صغيراً؛ ليرى موقع قدميه، يسلمك الطعام والشراب، ثم ينصرف، فالكلام معه أو مع غيره من السجناء ممنوع، أما الشاي أو الحليب والفاكهة فأشياء غير موجودة، أقاموا هناك ما يقارب ثلاثة أسابيع ثـم نقلوهم إلى جوانتنامو- كوبـا- بالطريقة التي يرحلون بها بقية المعتقلين، تم استجوابه في التحقيق كثيراً، أهله يقيمون في بريطانيا، يأمل أن يرجع إليهم قريباً.

قصـة معتقل آخر أصله مـن إفريقيا، نسيت اسـم هذا البلد، خـرج مـع أمـه إلى بريطانيـا، وهـو صغـير، كانـت حياتـه كحياة

الجاهليين الذين يعيشون في بريطانيا، لكن قبل اعتقاله بسنين قليلة رجع إلى الله وبدأ يستقيم في حياته، سمع بأفغانستان وإن بها إمارة إسلامية يحكمها الطالبان، فقرر أن يزور هذه الإمارة ويراها، وفي أثناء هذه الزيارة وقعت أحداث نيويورك وواشنطن وقامت الحرب في أفغانستان، فخرج ورجع إلى إفريقيا، وفي دولة إفريقية وهي مسقط رأسه تم اعتقاله، ثم تسفيره إلى كوبا، هو رجل رياضي يهتم بتقوية جسمه، يتدرب يومياً حتى في السجن لما كان خارج السجن قبل اعتقاله كان مدرباً يكتسب رزقه من تدريبه لبعض الناس، عنده إحساس شاعري، ينظم الشعر سمعت منه بعض الشعر باللغة الإنجليزية، يتكلم فيها عن السجن، وما يعانيه السجين، وما يقوم به السجانون، الأمريكان، ترجم لي هذا الشعر إلى العربية بلغة مفهومة، وإن كانت صعبة عليه.

يقول في هذا الشعر: إن أمريكا مرتاحة متنعمة، تقوم بالحرب، ترى الدماء والدمار والأشلاء، وغيرها فقير مظلوم بائس، ولأن هذا الشعر لا يعجب إدارة السجن؛ لأنه كان ينشد هذا الشعر على مسامع الجنود، الذين ينقلون ما يسمعونه في العنابر إلى إدارة السجن قامت إدارة السجن وصادرت هذا الشعر ولقد شهدته مرة ينشد هذا الشعر وكان في عنبري، بل جار لي، وقد تجمع الحراس في العنبر أمام غرفته ورأيتهم معجبين بشعره ينظر بعضهم إلى

بعض، يضحكون ويتمايلون بسبب دقة وصفه وتشخيصه للسجن والسجان والسجين.

لقد كان أسود اللون، ولا اعتراض على خلق الله، وسبحان الله العظيم، حتى الجنود الأمريكان ذكورهم وإناثهم وهم نصارى على غير دينه، كان يرى منهم التعاطف والحنو عليه والكلام والنقاش معه، خاصة السود الذين يشاركونه البشرة. كانوا يقضون الوقت الطويل على شبك غرفته، يتجاذبون أطراف الحديث ليلاً ونهاراً وخاصة ليلاً، يتناقشون في شتى الأمور والمشكلات.

لقد كان لونه الأسود يجذبهم إليه، إنك ترى التوافق والانسجام بينهم لكن كنت تحس أن لسان حال الجنود يقول له: كلامك صحيح لكن نحن في جيش لا نستطيع أن نفعل شيئًا، إننا نطبق الأوامر فقط لقد كان مؤدباً لم أرَ منه طيلة وجوده في عنبري أي مخالفة لقوانين السجن والسجان، لكن أظن أن شعره هذا كان سبباً في تأخر الإفراج عنه؛ لأنه تم الإفراج عن أربعة بريطانيين وعن غيرهم، من العرب والعجم، ومنهم سجناء من دول أوروبية قبل أن أخرج من (جوانتنامو) لكن خرجت من كوبا، وهو لا يزال هناك.

قصة رجل آخر أهله هاجروا من إفريقيا إلى دولة في أمريكا الجنوبية (جامايكا) ثم رحلوا من جامايكا إلى بريطانيا، صاحب

القصة ولد في مانشيستر إحدى المدن البريطانية، أهله يدينون بغير دين الإسلام، إنهم نصارى، لكن الله -عز وجل- تفضل عليه وهداه للإسلام، فهو مسلم وزوجته وأولاده كذلك مسلمون دون بقية العائلة الآخرين كما فهمت من قصته، سمع بالإمارة الإسلامية في أفغانستان، فأراد أن يعرف عن قرب هذه الإمارة فذهب إلى أفغانستان، لكن الطالبان اعتقلوه وأودعوه السجن واتهموه بأنه جاسوس، وبقي في السجن حتى قامت الحرب في أفغانستان وسقطت حكومة الطالبان وجاء الأمريكان، فاعتقلوه ورحلوه إلى معتقل (جوانتنامو) ومكث في هذا المعتقل ما يقارب ثلاث سنوات، إن هذا المسكين ما كان له حظ مع حكومة الطالبان وما سلم من الاعتقال من حكومة الأمريكان، سمعت أنه خرج من كوبا قبل خروجنا بشهر.

قصة سجين آخر اعتقلته باكستان، عمل في مؤسسة إغاثية ثم تركها وانتقل إلى تجارة العسل مدة سنين ثم تركها وعمل مع مؤسسة إغاثية يتاجر معها، يترزق ويعيش من هذه التجارة، يشتري لهم الطحين والأرز والزيت ومواد غذائية، رجل هادئ معتدل صاحب خلق ودين، ليس متطرفاً حسب المفهوم الغربي، لما وقعت الحرب في أفغانستان بعد أحداث (١١) سبتمبر وحلَّ بالعرب ما حلَّ نوى الخروج من باكستان لكن قبل أن يغادر المطار اعتقلته باكستان،

أسكنـوه الفندق أيامـاً قليلة ثم سلموه للأمريـكان الذين نقلوه إلى قندهار، حيث عانـى هناك الكثير وبعد شهور نقلوه إلى كوبا، حيث لا يزال هناك إلى هذا الوقت.

قصة باكستاني رأيته في السجن وكان في العنبر الذي أسكنه، يقـول هذا المعتقل: لما وقعت الحـرب في أفغانستان كان أخي هناك قـد تأخـر ولم يرجـع، افتقدناه، فـأردت أن أذهب بنفسـي، أبحث عنـه فحصلت على تأشيرة دخول من السفـارة الأفغانية في إسلام آبـاد، لم يكن لي أي هـدف إلا أن أبحث عن أخـي وأرجعه إلى أبيه (والـدي)، مـا كان لي هدف آخـر، ما كان عندي نيـة أن أقاتل مع الطالبـان ضد الأمريـكان، لما وصلت إلى شمـال أفغانستان وبدأت أبحـث عن أخي اعتقلنـي تحالف الشمال، وظـن أنني من المقاتلين الباكستانيـين الذين كانوا يقاتلون مع حكومة الطالبان ضد تحالف الشمـال، أو قاتل مع الطالبان ضد تدخـل الأمريكان، قلت لهم: أنا جئـت أبحث عن أخي في الشمـال؛ لأن معظم الأسرى الباكستانيين كانـوا في الشمال الأفغاني، فظننت أن أخي هنا معهم وهذه تأشيرة دخـول رسمية من سفـارة أفغانستـان في إسلام آباد أنـا لم أدخل تهريباً وخفية أو من دون تصريح منكم، لكن لم يعيروه أي اهتمام، وأودعوه السجن في منطقة مزار شريف ولاية بلخ.

قصص من سجن التحالف

علـى الحدود الروسية، قال الشاهد أو الـراوي: أدخلونا داخل كونتينر- السيارة التي تحمل صندوقًا حديديًا كبيرًا محكمًا- وهذه المنطقة تخضع لسيطـرة تحالف الشمال، ومسؤول المنطقة يطلقون عليه الجنرال الحاج عبد الرشيد دوستم، وضعونا في هذا الصندوق بأعـداد كبيرة، كأنك ترتب صناديق بيبسي كـولا، أو كراتين حليب نيـدو، كنـا ملتصقين ببعضنـا، لا يستطيـع أحدنـا أن يتحرك من مكانه، امتـلأ الكونتينر بالبشر، فأغلقوه علينـا، وتحركت السيارة التـي تجر هذا الصنـدوق الحديدي المحكم، لكـن لا أحد يعلم إلى أين تتحرك.

مشـت ساعات طويلـة، تعالى صراخ الموجوديـن في هذه العلبة المحكمـة، بالتكبير والتهليـل، والدعاء إلى رب الأرض والسماء أن يفـرج عنهم هذا البـلاء، الأصوات التـي بدأت عالية بـدأت تخبو

وتضعف شيئاً فشيئاً، ضاق التنفس انقطع الصوت خمدت الأنفاس، الموت يقترب من بعضهم، كل واحد منهم لا يستطيع أن يقدم لنفسه، فضلاً عن أن يقدم لغيره أي مساعدة، يا إلهي! سنموت جميعاً في هذا المكان، ولعل هذا المكان يكون قبرنا، لعلهم يحفرون لهذا الكونتينر حفرة كبيرة ويضعونه فيها، فيكون هذا الكونتينر هو الكفن وهو القبر، بعد ساعات طويلة قدرها من في الكونتينر من (٨-١٠) ساعات توقف هذا القبر المتحرك -الكونتينر- فتحوا الباب الحديدي المحكم لهذا الصندوق- غرفة الموت فإذا بعض من فيه قد قضى نحبه وخرجت روحه إلى بارئها، غريباً بعيداً، بأرض ليس له فيها ولد ولا والد، والذين في هذا الصندوق الحديدي منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، أو أنه في حالة خطيرة، أو أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وبعضهم خرج من غرفة الموت، وما زالت الروح فيه قوية؛ ليروي المأساة، ويحدث عن بشاعة ما جرى في هذا السجين الذي نجا فيه من الموت بقدر من الله -عز وجل- ويستمر في حديثه عن بقية المأساة، قال: من قدر الله -عز وجل- له النجاة، لقد أدخلونا إلى سجن في غرف ضيقة غير نظيفة، والغرفة التي تتسع لخمسة وضعوا فيها عشرين، أما الدواء والعلاج فغير موجود، مع العلم أن بعض من كان في الكونتينر مجروح قد تعفن جرحه، ولم يقدموا

لــه حتى المطهر. قالوا له: لا بد أن تقطــع يدك، فقال لهم: اتركوها كمــا هــي وليحدث لها ما يحــدث وأنا أتحمله، وتركـت يده كما هي دون عــلاج، وشــاء الله -الذي علــى كل شيء قديــر- أن يبرأ جرح يــده العميق التي رفض قطعها، ويده الآن مثل يده الأخرى السليمة، أما الطعام في هذا السجن عند تحالف الشمال، فرديء جداً وقليل جداً، إذ إن كل أربع وعشرين ساعة يقدمون للسجين كمية من الأرز، أو قطعــة من الخبز صغيرة وقديمة، أما الفاكهة فلم يروها حتى في المنام والأحلام، أما مياه الشرب فغير صالحة للشرب.

ومــع أن كميــة الأرز التــي كانــت تقــدم للسجــين في معتقـل جوانتانامــو أيضاً قليلة، فإن الذين كانــوا في سجن تحالف الشمال لمــا رأوا كمية الأرز التــي تقدم للفرد الواحــد في جوانتانامو، قالوا: هــذه الكمية التي نأكلهــا الآن في كوبا، كانت تقدم لأربعة سجناء في سجن التحالف الشمالي الأفغاني، ومع أن وجبات الطعام في معتقل جوانتانامــو ليست رديئة، فإنها في الوقت نفســه أيضاً ليست جيدة وكافيــة لمعظم السجناء، ومع ذلك فــإن الذين دخلوا سجن تحالف الشمــال الأفغاني عندمــا رأوا الطعام في كوبا، قالوا: إن سجن كوبا يُعــد فندقًا خمس نجــوم بالنسبة للطعام الذي كنــا نأكله في سجن التحالف الشمالي الأفغاني.

قال الراوي، وهو شاهد عيان على المأساة: لما كان الجوع والبرد همارفيقانــا طيلة مــدة وجودنا في سجن تحالــف الشمال، فقد كنا

نخــرج إلى الشمس مرة كل أسبوع، وأحياناً مرتين، فكنا إذا خرجنا نأكل كل ما نجده على الأرض من عشب أخضر دون أن نعرف ماذا نــأكل من شدة الجوع، حتى إن ساحــة السجن التي كنا نخرج إليها وكانــت مليئة بالعشب الأخضر عادت بعد مدة نظيفة من أي عشب، لقد أكلنا كل ما كان عليها من العشب.

أمــا الحمام- الاغتسال- فــكان في كل شهر مرة لمن أراد، لكن بالماء البارد، مع أن درجة الحرارة منخفضة جداً والمنطقة معرضة لموجات من الــبرد الشديد، ومعرضة لنزول الثلــج عليها باستمرار طيلــة مــدة الشتاء، يقول الــراوي: لقد ظهر علينــا القمل واتسخت ملابسنا لدرجة كبيرة، لكن لا أحد يستطيع التكلم.

أمــا حمــام قضــاء الحاجة فحــدث عنه ولا حــرج، الحمام لا يوجد فيه مــاء ولا ورق حمام (فاين) ولا حجارة قلت له: كيف كنتم تتصرفــون عند قضــاء الحاجة؟ قال: كنــا إذا خرجنا إلى الشمس نأخذ معنا حجراً صغيراً ونخفيه في جيوبنا عن الحراس، ثم ننظف به مكان النجاسة عند قضاء الحاجة، ولا نلقيه بل نضعه في جيوبنا، ونبقــى نستعمله كلما دخلنا إلى الحمــام، وهكذا، حتى نجد حجراً آخــر مكانــه. . لقد كان وضــع السجن مأساوياً بــكل ما تحمله هذه الكلمة مــن معنى، لقد كان الحراس في السجــن يستغلون السجناء أبشع استغلال، يبتزون الأموال القليلة التي معهم، حتى إن الحراس

كانـوا يؤجرون جهاز راديو إلى المساجين؛ ليسمعوا الأخبار مدة ليلة مثلاً، بمبلغ كبير من المال.

ولقـد قـام الحراس والضبـاط في هـذا السجـن، وكلهم من الأفغـان- تحالف الشمال- بعمليات احتيـال كبيرة على المساجين، خاصة الأغنيـاء منهم، إذ إن الضباط طلبوا فدية من المال، مقابل إطلاق سراح السجـين الذي سيدفع هذه الفدية، وبما أن المساجين لا يملكـون مثـل هذه المبالغ، فقد قـام المساجين بكتابـة رسائل إلى أهاليهـم، يعرفونهم فيها بأنهم موجـودون في السجن عند تحالف الشمـال، وإن إطـلاق سراحهـم متوقـف علـى دفع مبلـغ من المال للمسؤولـين في السجن، ولقد سمعت أن أحدهم دفع عنه أهله مئتي ألـف روبيـة باكستانية؛ حتى يتـم الإفراج عنه، لكـن إدارة السجن أخـذت الأموال من أهل هذا السجين ولم تطلق سراحه، أما مصير هـؤلاء السجناء فقد قامت قوات التحالف الشمالي بتسليم، أو ببيع هؤلاء السجناء للقوات الأمريكية في أفغانستان، حيث تم نقلهم إلى معتقل جوانتنامو-كوبا-.

ولقـد حدثنا بعض المعتقلـين، بأنه سمـع من رأى بـأم عينه، جرافة (حفـارة) تقوم بحفر حفرة كبيرة، ثم يؤتـى بأناس مكبلين بالسلاسل يقودهم رجـال، ويلقونـهم (يقذفونهم) في تلك الحفرة وتعـود الجرافـة مرة ثانيـة لتلقي عليهـم التراب وهـم أحياء، لقد

قامت قـوات التحالف بخداع الكثير من المعتقلين العرب والعجم في الشمـال الأفغاني، حيث تجمـع الكثير منهم في مكان واحد، وطلبت منهم الاستسلام، لكن رفض الجميع هذا الطلب، إلا بشرط ضمان السلامـة وإطلاق سراح الجميع، واستسلمـوا، لكن قوات التحالف لم تلتـزم بتعهدهـا، لقـد نقضـت العهد معهـم، وخدعتهـم، فبعد استسلامهـم تم الإفـراج عن بعض الأفغان، أما بقيـة الجنسيات ومنهم العرب، فقد قيدوهـم بالسلاسل وساقوهم إلى السجن، ثم بعد ذلـك تم تسليمهم ببيعهم للأمريكان، الذين نقلوهم بعد ذلك إلى معتقل كوبا.

لقـد قامـت القبائـل الباكستانيـة الموجـودة علـى الحـدود الباكستانيـة الأفغانيـة باستقبـال الفارّيـن والهاربـين من جحيم الحـرب في أفغانستـان، وكان هؤلاء الفارون مـن جنسيات مختلفة عرباً وعجماً، لكن نسبة العرب فيهم أكثر من النصف، هذه القبائل أظهـرت لهؤلاء الفارّين الأمان والاطمئنان، لكن الأمان والاطمئنان كان لغيـر الله، بـل كان لزيـادة المكر والغـدر ولزيـادة التمكن من جمعهم واستدعاء قوات الأمـن الباكستانية لاستلامهم وتقييدهم بالسلاسـل، مقابـل دراهم معـدودة، لقد حملوا هـذه المجموعة في سيارتيـن (حافلتين) كبيرتين، لكن شعر هؤلاء الشباب بأن العملية غدر وخيانة، وأنهم يسيرون نحو المجهول والنهاية المؤلمة، إنه السجن وما بعد السجن.

كانت الشرطة الباكستانية داخل السيارتين وخارجهما على السطح، فقرر هؤلاء الشباب أن يقوموا بعملية ومغامرة؛ لعلهم ينجحون في تحرير أنفسهم من هذا الرق والقيد الذي يعيشون فيه، فاستطاع بعضهم أن يفك قيد يديه وأن يهجموا على الشرطة الباكستانية، ويستولوا على البنادق التي يحملونها وأطلقوا النار عليهم وقامت داخل السيارتين معركة بين هؤلاء الشباب والشرطة الباكستانية، وسائق إحدى السيارتين وهو من الشرطة ركبه الذعر والخوف فترك القيادة، للسيارة وفتح الباب وقفز، وترك السيارة تسير من دون سائق، مما أدى إلى انقلابها بمن فيها، كان هنا القتلى والجرحى من الطرفين نتيجة تبادل إطلاق النار بين الطرفين أولاً، ونتيجة انقلاب السيارة بمن فيها ثانياً.

هذا الحادث سمعنا به وشاهدناه قبل اعتقالنا بعدة شهور، وسمعنا أن الشرطة الباكستانية قامت بدفن القتلى من هؤلاء الشباب، بعض الناس الصالحين من سكان تلك المناطق قام وحفر عن هؤلاء الشباب قبورهم، وقام بإصلاح أكفانهم وتعطيرهم بالطيب، وعمل اللازم نحوهم من الصلاة عليهم، ودفنهم في أماكن أخرى، وبدأ سكان تلك المنطقة بزيارتهم والدعاء لهم والتبرك بقبورهم، أما بقية الأحياء والجرحى من السيارتين فاستمر الغدر والخيانة معهم، حيث أودعوهم أحد سجون المناطق

الحدوديـة بـين باكستان وأفغانستان وما هـي إلا أيام قليلة حتى تم بيعهـم وتسليمهم للأمريكان الذيـن لم تمضِ ساعات على تسلمهم حتى كانوا داخل الطائرة التي كانت تنتظرهم في أقرب مطار، وقد نقلتهم إلى معتقل أمريكي في قندهار أفغانستان، حيث أمضوا عدة شهـور في قندهار، ثم تم ترحيلهم إلى معتقل جوانتنامو، ومن صور معاملة الجنود للأسرى في قندهار:

١- جندي يضع القرآن الكريم في سطل (الخلاء) مكان قضاء الحاجة الذي يستعمله المساجين لفضلاتهم الآدمية.

٢- حبس الأسـرى أحيانـاً في كونتيـنر مغلق حديـدي، مع أن الفصل كان صيفاً، ودرجة الحرارة مرتفعة جداً.

٣- الجلوس مـدة طويلة ساعـة، ساعتين أحيانـاً على الركب والأيدي خلف الرأس، مع أن أرض المعتقل التي يكون فيها العقاب حصباء مدببة تجرح الركب وتدميها.

٤- عند الذهاب للتحقيق يطلـب من المعتقل أن ينبطح (ينام) على بطنه على الأرض والأيدي خلف الظهر، ثم يتم تقييده بالسلاسل بطريقة شديدة وعنيفة.

العـرب الذين كانـوا في البوسنة هؤلاء موجـودون في البوسنة منذ الحرب بين البوسنة والصرب.

هـؤلاء العـرب متزوجون من بنـات البلد، لهـم أولاد، يحملون جنسيـات تلـك البلـد، ألقـت الحكومة القبض عليهـم بتحريض خارجـي بتهمة الإرهـاب (المزعوم) لكـن حتى يكون هنالك مخرج وحيلة لتسليمهم للأمريكان تم الضغط على حكومة البوسنة لسحب جنسياتهـم، ثم تم تسليمهم للأمريـكان، الذين نقلوهم إلى معتقل جوانتانامـو، مع أن المحكمة في البوسنة حكمت لهم بالبراءة من أي تهمة أو علاقة بالقتل والإرهاب.

مضـت الأيام وجـاء الحراس لأخـذي إلى التحقيـق، خرجت معهم، وقادوني إلى غرفة التحقيـق، جلست وحولي الصور، صورة المسجد، صورة أسرى في لباسهم البرتقالي، صور لبعض المهاجرين الأفغـان، صور الجرحـى، أطفال وغير أطفال، صـور بيوت مهدمة صور إغاثية ومساعدات، صور مقاتلين ومجاهدين يحملون السلاح، صور مختلفة، وهي أمامك وأنت جالس لا تستطيع أن تترك مقعدك أو تغـير جلستك؛ لأنك مقيد بسلسلة في قدميـك، والسلسلة مقيدة بحلقة ثابتة في أرض الغرفة، وعن يمينك نافذة من الزجاج، وعن يسارك نافذة أخرى مثلهـا، هذه النوافذ زجاجها أسود، وفي داخل غرفة التحقيق شـيء أسود مستدير متصل بأنبوب، سمعت أن هذا الشيء الأسـود المستدير كاميرا للتصوير، تقـوم بتصويرك وتنقل جميع تحركاتك وإشاراتك إلى شاشة في غرفة مجاورة.

وسمعت أن هذا الزجاج الذي عن يمينك وعن يسارك ذا اللون الأسود زجاج يراك من خلاله أشخاص يوجدون في الغرفة التي عن يمينك أو عن يسارك، يرون مدى تأثرك بكل صورة تنظر إليها، تفرح لها وتنفرج أسارير وجهك لها تحزن أو تتضايق أو تعبس لها، هذا تحليل بعضهم لمن جلس في مثل هذه الغرف، ومما يؤكد ويؤيد هذا التحليل أنني كنت في إحدى غرف التحقيق ذات مرة، إذ انتهى التحقيق وخرج المحقق وقال لي أو وقالت لي (على الصحيح) لأنها كانت سيدة: بعد دقائق يأتي الحراس ويأخذونك إلى غرفتك، كنت مصاباً بالرشح وأصابني العطاس كثيراً؛ بسبب برودة المكيف فخرج المخاط من فمي وأنفي، وبما أنه لا يسمح للمعتقل أن يحمل في جيبه أي شيء من مناديل الفاين في جيبه، يفتش ويؤخذ منه كل شيء في جيبه، أقول: أصابني شيء من الحرج والارتباك بسبب هذا المخاط أو البصاق.

وبدأت ألتفت عن يميني وعن يساري، وبسرعة فتح الحراس الباب على، وقدموا لي الفاين، دهشت وذهلت، قلت في نفسي: ما الذي جعلهم يعرفون ويحسون بما حصل لي؟ قلت: لا بد أنهم يراقبون تصرفاتي وأنا جالس داخل غرفة التحقيق، نعود إلى غرفة التحقيق، جاء المحقق بلباسه العسكري ومعه مترجمة مثله بلباس عسكري تترجم إلى العربية ببطء، إنها ترجمة مكسرة، لكنها ترجمة مفهومة.

كانت الأسئلة عن حياتي في باكستان، أسماء المعاهد والمدارس والجامعات التي عملت فيهـا، أسماء المدرسين الذين كانوا معي في هـذه المعاهد والمدارس، والكتـب والمناهج التي كانـت تدرس فيها، سألنـي عـن المؤسسـات والهيئات التـي تشرف على هـذه المدارس والجامعـات، سألنـي عن الجهـات الحكومية أو الـدول التي تتبنى هـذه المؤسسـات أو الهيئـات، وتتفق عليهـا التاريـخ والوقت الذي عملـت فيه في كل هذه الأماكن، والتاريخ الـذي تركتها فيه، سألني عـن مؤسسات إغاثية وإنسانيـة عربية وإسلامية في باكستان، وعن أشخاص عرب يعملون فيها وعن نشاط هذه المؤسسات في باكستان، وفي داخـل أفغانستـان، وعن مجالات عملهـا في المدارس، والأيتام، والإغاثة الغذائية والمساجد والمساعدات المالية.

هـذا ما أذكره؛ لأننـي أكتب بعد مرور سنتـين تقريباً عن هذه الأحداث، وهذه الأحداث سمعتها كلها، وسألت عنها، وأجبت عنها، لكن ربما قدمت شيئاً أو أخرته عن وقته ومكانه، أو كان السؤال هذا مثـلاً من محقق مـا، ووضعته لمحقق آخر وذلك لطـول العهد بينها وبـين تدوينها، ولعدم وجـود أوراق وأقلام معنـا؛ لانعدام وجود أي وسيلة أخرى لتدوين هذه الأحداث.

انتهت الجلسة، وانصرفت راجعاً إلى غرفتي برفقة الحراس.

هـذا المحقق كان مؤدباً معـي لم يستفزني، لم يحاول أن يطرح علي أسئلة لا علاقة لها بعملي، وبمكان وجودي في باكستان، في نهاية الجلسـة طلب مني أن أخـبره عما يجري في العنابـر، فقلت له: إن السجنـاء يتكلمون مع بعضهم بعضا في أحوال السجن وعن بلادهم وعن حياتهم، قصص وأحداث حصلـت لهم، يتسامرون ويتكلمون بهـا، إنهـم يصلون ويقرؤون القـرآن عن أي شـيء سيتكلمون؟ هل تخافـون منهم؟ إن كلامهـم عادي، قال: إذا سمعـت شيئاً يريدون فعلـه يخل أو يعارض القانون والنظـام والأمن ويؤدي إلى الفوضى، فلا تسكت وتخبرنا به.

هـذه الجلسة كانـت قبيل رمضان من عـام ٢٠٠٢ م وأذكر في هـذه الحقبـة أن الأخبـار تسربت من بعضـ الجهـات المسؤولة في السجن عـن وجود عاصفة أو رياح شديدة، تهب هذه العاصفة على أمـواج البحر الـذي يوجد على مقربـة من عنابر السجـن والأبنية الأخـرى الملحقة بالسجن، فتصل أمـواج البحر أو المد البحري إلى هذه العنابر والأبنية.

وربمـا تكـون هـذه العواصـف أو الريـاح الشديـدة مصحوبة بالأمطار الغزيرة، هكذا سمعنـا الأخبار والله أعلم بصحتها، لكن بعـد أيام من تسرب هذه الأخبار، بـدأت تظهر بعض الأعمال التي تؤيد وترجح صحة ما سمعناه من أخبار، بدأت السيارات والجرارات

الطويلة، تحمل معدات وأغراضًا كثيرة كانت توجد على الأرض بين عنابر السجن، وتنقلها إلى أماكن أخرى، بدأت إدارة السجن تزيل الستائر والجدران القماشية التي تحيط بالعنابر والتي توجد على الجدران والأسلاك المشبكة الموجودة بين كل عنبر وآخر، وذلك خوفاً من أن تمزقها أو تدمرها الرياح والعواصف الشديدة.

بدأ الحراس بإغلاق نوافذ السجن ذات الشبك بأغطية قماشية أو بلاستيكية؛ خوفاً من الرياح والعواصف أو خوفاً من الأمطار التي تكون مصاحبة للعواصف، هذه احتياطات رأيناها قامت بها إدارة السجن، لكن مرَّ الوقت وما رأينا أو سمعنا شيئاً خطيراً أو مخيفاً والتوقعات والنتائج لهذه العاصفة ما كانت بقدر الاستعدادات والمخاوف، جاءت الأمور أبسط وأيسر مما كنا نتوقع.

دخل رمضان ٢٠٠٢ م، وكان قد سبق شهر رمضان إضراب عن الطعام، وإضراب عن الخروج للتحقيق أو للرياضة والاستحمام وإضراب كذلك عن أخذ واستلام أو طلب الصابون وفرشاة ومعجون الأسنان أو ورق الحمام... وحتى الكلام مع الحراس بأي شكل من الأشكال وربما يسأل سائل: كيف يحصل هؤلاء المضربون على أغراضهم واحتياجاتهم الضرورية؟

فالجواب: إن هؤلاء المضربين يكونون قد تزودوا بما يلزمهم من حاجاتهم الضرورية من الحراس، فقد طلبوا أغراضهم من

الحراس قبل بداية إضرابهم بأيام، وخزنوا هذه الأغراض في غرفهم، وعند بداية الإضراب تكون كافة متطلباتهم وحاجاتهم الضرورية متوافرة وموجودة عندهم، لكن هذا الأمر كان ثم تغير، حيث أصبح الخروج للتحقيق أو الرياضة والاستحمام إجباريًا وليس اختياريًا، وكل من يرفض الخروج من غرفته للتحقيق أو الرياضة- أو لأي أمر آخر كتفتيش الغرفة مثلاً، الذي يتم مرتين أسبوعيًا، كما هو دارج ومعمول به في نظام السجن، عدا التفتيش الفجائي الذي يتعرض له كل سجين إذا طلب منه الحراس ذلك، في أي وقت من ليل أو نهار، يخرج برغم أنفه، وذلك عن طريق قوات مكافحة الشغب.

قوات الشغب هذه دائماً على أتّم الاستعداد، وهي مجهزة بكل ما يلزمها، ومحصنة ضد أي اعتداء يقع عليها من السجناء مثلاً، والتجهيز في جميع أجزاء الجسم من الرأس إلى القدمين، وقبل الدخول على السجين يأتي المسؤول تلو المسؤول لإقناع السجين بالخروج وتنفيذ الأوامر وتطبيق القانون.

فإذا رفض السجين ذلك جاء مسؤول كبير معه علبة الغاز المسيل للدموع أو غاز آخر لا أعرف اسمه وهذا الغاز مؤثر على الجسم خاصة العينين، يقوم المسؤول برش السجين على جسمه أو رأسه وعينيه مما يضطر السجين أن ينشغل بإبعاد الغاز عن نفسه أو ينشغل بألم عينيه، فيطلب المسؤول من السجين أن ينام

علـى الأرضـ، يستلقي علـى الأرض علـى بطنه ويضـع يديه خلف ظهـره، يقوم الحارس بفتح باب الزانزانــة؛ لأن الفتح من الخارج، ويدخـل عليه خمسة من قوات مكافحــة الشغب ويقيدونه في رجليه، علـى أن يضع يديه خلف ظهره، ثـم يحملونه ويخرجونه من غرفته إلى التحقيـق أو إلى مكان المشي والرياضة، ثم يقوم حراس آخرون بتفتيشـ غرفتــه ومصادرة مـا يريدونه وربما يضعـون عليه عقوبة معينة حسب أنظمة السجن.

وقد شاءت الأقدار أن يجاورني أحد هؤلاء المضربين عن الطعام، لقـد كان الحارسـ يضع لـه الطعام والفاكهـة، والشـاي والحليب والخبـز على نافذة الغرفة ليأكلها، وبعد مـرور ثلاثين دقيقة، يأتي الحارسـ لجمع الأطباق الفارغة أو بقايا الطعام، لكنه يجد الطعام كما هو، فيسأل الحارس السجين: لماذا لا تأكل؟ فلا يجيبه السجين بـأي كلام؛ لأن بعضـ السجناء لا يأكل؛ لأنه مريضـ، أو غير جائع مثـلا، أو أنه صائم، فيخبر الحارس عن سبب عدم تناوله للطعام، فلا يقوم الحارس بتسجيل رقم غرفته، أو إن كان الشخص مريضاً يريـد الطبيب أو يوجد طعام خاصـ يصرفه الطبيب للمريض غير هذا الطعام؛ لأن الحارس يسجل كل شيء يفعله السجين، فإن تكرر عـدم استلام السجـين للطعام، فهذا يعني أنــه مضرب عن الأكل، فيسجل الحارس رقم غرفته، ويبلغ المسؤول عن الأمر.

وربمــا لا يريد السجــين الأكل لكنه يأخذه ويعطيــه إلى سجين آخر، إما عن طريق الحارس ينقله بنفسه إلى سجين آخر، وإن رفض الحارســ نقله ربمــا يعطيه السجين لجاره عــن طريق شبك الغرفة عن يمينه أو عن يســاره، بعض السجناء والمجاورين قام وسأل هذا المضــرب عن الطعام عــن سبب هذا الإضراب مــا دواعيه؟ ما هي مطالب المضربين حتى يوقفوا إضرابهم؟

وبحكــم جواري لهــذا السجين كنت أسمع مــا يجيبهم به، قال هــذا السجين المضرب: نحن هنا سجنــاء، ويعدّنا الأمريكان أسرى حرب لتنظيــم القاعدة وتنظيم حركة طالبان، وأسرى الحرب لهم حقوق، لكن لم تقدم لنا إدارة السجن هذه الحقوق، نريد أن يطبقوا علينا بنــود ومحتويات معاهدة جنيف لأســرى الحرب، إن معاهدة جنيــف وتسمح لأسرى الحرب أن يكون عندهم وسائل إعلام كثيرة ومختلفــة من مجــلات وجرائد ومذيــاع وتلفزيــون، تسمح معاهدة جنيــف أن يكــون لكل أسير محامٍ وألّا يتكلــم المعتقل في التحقيق إلا بحضور محاميه، كما تسمح بزيارة الأهل للأسير، والمعاهدة تنص على أن أسير الحرب بإمكانه ألّا يجيب عن أي سؤال من المحقق إلا عن اسمه ورتبته وفرقته إن كان في جيش نظامي.

كما أن المعاهــدة تنص على أنه لا يجوز أن يتعرض الأسير لأي شــكل من أشكال الضغــط أو التعذيب إذا رفض الــكلام أو الإجابة

عـن أي سؤال مـن الجهة التـي أسرتـه، كذلك المعاهـدة لا تسمح بالاعتقـال الطويل الأمد دون محاكمـة الأسير، إن الأسير له حقوق أخـرى ذكرتها المعاهدة ووافقت عليهـا أمريكا ووقعت عليها، لكنها الآن تخالف هذه القوانين.

لقـد بقي هذا السجين المضرب عن الطعام لا يأكل مدة طويلة، حتـى أصبح لا يقـوى على الصـلاة قائماً، وفي النهايـة سقط على الأرض، قـام السجناء بالصـراخ على الحراس، حضـر الحراس ومعهم الحمالة ونقلوه إلى العيادة.

العلاج

بدأ أصحاب الإضراب يتناقصون شيئاً فشيئاً، وثبتت مجموعة على الإضراب، نقلوها إلى المستشفى، ولأن المضربين لا يستطيعون القيام أو الحركة، عاشت هذه المجموعة على الجلوكوز في الفم والأنف، ومن رفض منهم أخذ الجلوكوز أو السائل الذي يغذيهم، وضعوا له إبرة هذا السائل في أي مكان في جسمه، برغم أنفه؛ لأنه مقيد على سريره لا يستطيع المقاومة، وبعد مرور مدة من الزمن، ثلاثة أشهر كما أظن، أنهى هؤلاء المضربون إضرابهم عندما لم تستجب إدارة السجن لمطالبهم، إن العلاج وتناول الدواء في المعتقل إجباري وليس اختيارياً، إنك لا تملك أن ترفض تناول الدواء، سواء أكان أقراصاً أم شراباً أم إبرة، حقيقة إنك إذا مرضت حضر الطبيب إلى غرفتك وعالجك على السريع، إن كان مرضك سهلاً وبسيطاً، وإن دعت الحاجة حملوك إلى العيادة، وإن استدعى

الأمـر نقلـوك إلى مستشفى أكثر تطوراً خـارج المعتقل إلى المدينة، لكن داخل القاعـدة أو الجزيرة، ورأيت بعضهم نقلوا إلى واشنطن للعلاج حين استدعى الأمر ذلك.

لكـن هناك علاجًا تناوله إجباري، فبين حين وآخر يتم تطعيم جميع المعتقلين بهذا الـدواء، أقراص أو جرعات أو إبر، وإذا سألت لماذا هذا العلاج؟ كان الجواب: هناك مرض منتشر مثلاً أو للوقاية والخـوف من جرثومـة أو فيروس قـادم، أو هـو دواء وعلاج دوري تعطيه إدارة السجن للمعتقلين للحفاظ على صحتهم.

رمضان في كوبا

دخل رمضان ٢٠٠٢ م، وهو أول رمضان يمر علي في السجن، سواء كان في سجن الأمريكان أو غيرهم، لقد قلت للمحقق الأمريكي ولغيره من الجنود والحراس، عندما كانوا يقيدونني بالسلاسل في يديّ ورجليّ، ويقودونني كالمجرم، يمسكون بي كأنهم يخافون أن أهرب منهم: إن عمري الآن، يقارب الخمسين سنة، وهي أول مرة في حياتي توضع السلاسل على جسمي، بل هي أول مرة أدخل فيها السجن.

إن السجن ليس عيباً ولا عاراً، إنه شرف وفخر لنا، إنكم تقودوننا إلى سجونكم زوراً وبهتاناً وظلماً وعدواناً، إنكم لا تقودوننا إلى سجونكم لأننا مجرمون، أو لسبب أخلاقي، أو غيره من الأسباب المشينة، التي تلحق العار والشنار بصاحبها، إننا لسنا قتلة ولا معتدين ولا مهربين للحشيش أو الهروين، إننا لسنا محتالين ولا

نصابين إننا، لا نهاجم الشعوب ونقتلها ونعتقل خيرة رجالها وننهب ثرواتها، إننا لا نرفع شعارات براقة ليس لها في واقع الحياة شيء، فتجعل أفعالنا تخالف أقوالنا، نضحك في وجوه الناس لكننا نغمس الخنجر في ظهورهم، نقدم لهم باقة الورد بيد، ونخفي لهم السم في اليد الأخرى نعطيهم لقمة الخبز وجرعة الدواء في اليوم الأول، ونسقط آلاف القنابل والصواريخ على رؤوسهم في اليوم الثاني.

أين تمثال الحرية الذي وضعته أمريكا ونصبته في أكبر مدنها؟ وماذا يعني هذا التمثال بالنسبة لها، إنه هراء وعبث، وضحك على الشعوب، إنه تضييع وتضليل للبشر، إن أمريكا تعطي الحرية وتقدمها لنفسها فقط، أما الآخرون فلتنزل عليهم كل المصائب والويلات، ولتحصدهم كل الأمراض والنكبات.

دخل رمضان ٢٠٠٢ م، وكل إنسان يتمنى أن يكون في هذا الشهر بين أهله وذويه، يتمنى أن يصوم هذا الشهر الكريم في بلاد المسلمين، يؤدي صومه وصلاته مع الصائمين والمصلين، الذين تعمر بهم بيوت الله في هذا الشهر الكريم، كان السجناء يتوقعون أن يكون هنالك تغيير في السجن إذا دخل رمضان، إن بداية الصوم في السجن ودخول شهر رمضان لم يكن بخبر من إدارة السجن أو بفتوى من أي جهة إسلامية، لقد كان السجناء يرقبون الهلال في اليوم الأول من رمضان، ويمكن رؤية الهلال إن كانت السماء

صافية، ولقد يسر الله -عز وجل- في أول ليلة أن كانت السماء صافية خالية من السحب، فشاهد الكثير من السجناء الهلال، وبدؤوا يكبرون وينادون بأصواتهم العالية لبقية العنابر التي لم تشاهد الهلال، بأن غداً هو أول أيام شهر رمضان، وطلب السجناء مسؤولاً كبيراً في أول يوم من رمضان، وأخبروه أن غداً أول يوم من أيام رمضان ولا بد من توفير وجبة السحور لجميع السجناء.

وفعلاً عند وقت السحور وقبل دخول أذان الفجر بنصف ساعة تقريباً، وصل السحور إلى العنابر، وكان السحور وجبات جاهزة في أكياس بلاستيكية كل كيس يحتوي على وجبة، إما معكرونة بأشكال مختلفة، أو أرز بالفاصوليا السوداء، ثم كيس فيه قطعتا بسكويت، مع ظرف بلاستيكي صغير فيه معجون فول سوداني، ثم كيس عصير تفاح أو أناناس، ثم قطعة كيك صغيرة.

وهذه الوجبات وجبات خالية من اللحوم أو السمك أو الدواجن أو أي نوع من البروتين، أما الماء فمن الحنفية الموجودة في الزنزانة وهي حنفية للشرب والوضوء أو الاستنجاء والاغتسال، وورق الحمام يوزعونه عادة ثلاث مرات يومياً، ووجبة الغداء لا يحضرونها إلا لمن لم يستلم السحور إن كان مريضاً، أو نحو ذلك، فيقدم له الفطور والغداء، أما العشاء فيأكله مع السجناء في وقت العشاء، وهو الفطور في رمضان، وقد تأخر في الأيام العشرة الأولى من رمضان

مـا بين ساعتين إلى ثلاث ساعـات كل يوم، حسب وقت وزمن نظام السجـن في تقديم الوجبات؛ لأن تقديم الوجبات في السجن لا يتقيد بساعة معينة، سـواء تقدمت الصلاة أو تأخرت، وسواء كان الوقت رمضان، أو غير رمضان.

كان وقـت تقديم وجبـة العشاء قبل دخول رمضـان بعد صلاة العشاء، ففي الثلث الأول من رمضان تأثر السجناء وتعبوا (جاعوا) بسبب هذا التأخـر وشق عليهم ذلك لطول مدة الصيام التي كانت ثماني عشرة ساعة تقريباً، ومن المعلوم أن السجناء لا يوجد عندهم أي طعـام أو شراب يمكن أن يأكلوه فيما لو تأخر طعامهم، اللهم إلا المـاء فقط، لكن بعـد رفع الشـكاوى إلى إدارة السجن أصبح طعام العشاء (الإفطـار) بعـد الثلـث الأول من رمضان يقـدم بعد صلاة المغرب مباشرة.

أما كمية الطعـام ونوعها فهي كما يأتي خمس حبات من التمر الصغـير، مـع ملعقة عسل صغيرة، عفـواً إنه ليس عسـلاً إنه سكر محـروق في علبة صغيرة جداً، وثمرة فاكهة واحدة، وكمية من الأرز وكمية خضراوات قليلة مع قطع سمك صغيرة مع قطعتين صغيرتين مـن الخبز، هذه الكميـة قليلة جداً بالنسبة لرجـل سجين وصائم، وقـد قمـت مرة بتقديـر كميـة الأرز والسمـك والخضـراوات التي تصرف للسجين، فوضعتها كلها في كأس بلاستيكي صغير فوسعتها دون زيادة.

وقـد عانى الكثير من السجناء من الجوع لقلة الطعام، ويدلك على هذا حالة السجناء الجسمية، حيث هناك ضعف جسمي ونحول وشحـوب للوجـه واليدين عند معظـم المعتقلـين، وأي زائر للسجن يلاحظ البنية الجسمية النحيلة والضعيفة لكثير من السجناء، إنني أكاد أحصـر الوجبات التي كانت تشبـع السجين، وأقوم بعدها عداً طيلـة بقائي في السجن، فإذا هي مرات قليلة بالنسبة لأيام السجن الطويلة، ويمكـن أن أضع نسبة تقريبية لهذه الوجبات المشبعة، فلا أبالـغ إن قلـت: إنهـا ٥٪ أي من كل مئة وجبة خمسـ وجبات، ومتى تكون هذه الوجبات المشبعة؟

إنهـا تكون عندما يأتي حارسـ إلى العنبر الذي نسكنه، ويقدم الطعـام للسجناء، وتكون عنـده وجبات زائدة عن عـدد السجناء، ولديه إنسانية أو في قلبه شيء من الشفقة لهؤلاء المعتقلين، والوجبات الزائدة تكون بسبب خلو بعض الغرف من أصحابها، فنطلب منه أن يوزع على المساجين ما زاد عنده من الطعام لمن يريد، أفضل من أن يلقـي الطعام الزائـد في سلة المهملات -الزبالـة- أو أفضل من أن يرجعهـا إلى المطبخ الذي سيتخلص منها بـأي طريقة؛ لأن المطبخ لن يعيدها مرة ثانية ويقدمها للمعتقلين.

هـذا إن كان الحارسـ كما قلنا: عنده شيء مـن الإنسانية كما يسمونهـا هم، بالإضافة إلى أن هذا الحارس يقوم بهذا الأمر، وهو

توزيع الطعام الزائد مع مخالفة القانون؛ لأن الحارس يقول: إن القانون يقول: إنه لا يسمح للمعتقل إلا بأخذ وجبة واحدة فقط وبعض الحراس يمكن أن يعطيك وجبة زائدة ثانية، لكن بعد استئذان مسؤول العنبر، حتى لا يكتب عنه المسؤول تقريراً إلى إدارة السجن أنه يصرف طعاماً زائداً للمعتقلين، وأنه يخالف قانون السجن، أو قانون الجيش، فيضعون عليه عقوبة شديدة، وقد سمعت أن في قاعدة جوانتانامو -كوبا- سجنًا خاصًا للجيش، يسجن فيه من يستحق العقوبة منهم.

بعض الحراس لا يتعب نفسه بسؤال المسؤول، ولا بتقديم وجبة طعام زائدة للمعتقل، يقول لك: القانون لا يسمح بصرف الطعام الزائد ويستريح منك، ثم يمضي لحاله، وللحق إن قسماً منهم وهم قليل يعطيك وجبة زائدة، لكن خفية عن المسؤول، مع علمه أن هذا العمل يخالف القانون، وعندما تتكلم مع هذا الصنف من الحراس يقتنع بما تقوله له بأن كمية الطعام التي يقدمها السجن لكل معتقل لا تكفي، فيعطيك إن كان معه طعام زائد.

وهنالك حالة أخرى يمكن أن يحصل فيها السجين على وجبة زائدة، وهي فيما إذا كان أحد جيرانك في العنبر، عن يمينك أو عن يسارك صائماً أو لا يريد أكل الطعام كله أو بعضه بسبب صيام أو غيره، فهؤلاء يأخذون وجباتهم من الحراس ويهربونها لجيرانهم

عن طريق الشبك بينهم، ملعقــة ملعقة والخبز والفاكهة يقطعونها قطعاً صغيرة، ويدخلونها من خلال الشبك.

أما السوائل كالشاي والحليب فيصنعون خرطوماً أو أنبوبًا من الــورق أو من البلاستيك من أكواب الشــاي والحليب البلاستيكية، وينقلــون هذه السوائــل بواسطتها من خلال الشبــك، ولكن دون أن يراهــم الحراس؛ لأن القانون يقول: يمنع تقــديم أو تهريب الطعام للآخريــن، حتــى ولو لم تــرد هذا الطعــام عليك أن ترجــع الوجبة للحارس ليلقيها في الزبالة ولا يسمح له أن يعطيها لغيره.

وبعضــ الصائمــين لا يريد أن يتعــب نفسه بتصــريــف الطعام وإدخاله في الشبــك لغيره ولا يريد أن يقع تحت المسؤولية والعقاب، لأنــه يخشى أن يراه الحراس في أثناء عملية التهريب للجيران، هذا إن كان صيــام هؤلاء المعتقلــين دون إخبار إدارة السجن بصيامهم، فهؤلاء تقدم لهم الوجبات على ظن أنهم مفطرون، فيأخذون الطعام ويعطونــه لغيرهم، أمــا إن كان صيامهم عن طريــق إدارة السجن، ففي هذه الحالة لا تقدم لهم إدارة السجن إلا وجبة السحور ووجبة الإفطــار (العشاء) ولا تقدم لهم وجبة الغداء.

في كل يــوم مــن أيام الجمعة يأتي الحارســ ومعه قائمة يسجل فيهــا (أرقام غــرف) من يريد الصيام، وترفع هــذه القوائم لإدارة السجن، وتنزل أسماؤهم في الكمبيوتر للأسبوع القادم؛ لأن كل عنبــر

فيه كمبيوتر فيه أرقام السجناء، وأرقام غرفهم وفيه كل الملاحظات الإيجابية أو السلبية لكل سجين، وفي ليلة الإثنين وليلة الخميس يأتي الحارس ويقدم لكل صائم، وجبة السحور، وجبة جاهزة تقدم الكلام عليها يسمونها وجبة عسكرية مدة ثلاثين دقيقة.

ويوم الإثنين والخميس لا يقدم لك وجبة فطور ولا غداء، لكن يقدم لك وجبة عشاء كبقية السجناء، بعض الصائمين ربما يطلب وجبة فطور أو غداء من الحارس مع أنه صائم لكن لا ليأكلها بل ليعطيها لجيرانه المفطرين أو يحتفظوا بها إلى وقت العشاء، لكن كثيراً ما يرفض الحارس ذلك لأن معه قائمة فيها (أرقام) الصائمين، والتسجيل للصيام ليس ليوم الإثنين والخميس من كل أسبوع فقط، بل لكل مناسبة فيها صيام عند المسلمين مثل العشر الأوائل من ذي الحجة أو صوم يوم عاشوراء وهكذا.

في بداية رمضان ٢٠٠٢ م طلبوني للتحقيق وذهبت كالعادة مقيدًا بالسلاسل، دخلت الغرفة، بعد دقائق جاء المحقق، لكنه محقق جديد، عرفني باسمه ولا أدري إن كان هذا الاسم هو اسمه الصحيح أو اسمًا مستعاراً والرأي الثاني أرجح؛ لأنك تجد أكثر من محقق لهم الاسم نفسه، وهذا في أغلب الأحيان، لكن ربما يكون الاسم صحيحاً، بدأ هذا المحقق معي عن سيرتي الذاتية باختصار، وفتح معي أسئلة وموضوعات سبقه بها محقق آخر قبله، كان المحقق الأول قد سألني عنها دون توسع.

لكـن المحقـق الجديـد، بحثها معـي بتوسـع، كان بينـي وبينه مترجـم، سألني عن أشخاص في بيشاور، بعضهم تـرك باكستان وبعضهـم لا يزال فيها يعمل في مؤسسات إغاثيـة وإنسانية، سألني عن أسمائهم ومكان عملهم ونوع العمل، وهل يدخلون إلى أفغانستان أم أن عملهـم في باكستان بين المهاجرين وهـل تعتقد أن المال الذي بيـد هذه المؤسسات كافٍ أو يزيـد عن حاجتها وإن زاد عن حاجتها فهـل يمكن أن يقدموه للجهاد، أو المقاتلـين في أفغانستان، ومن هـي هـذه الجهة التي يقدم لها المـال وأين مكانها، وكم في تقديرك هذا المـال المتوافر، وهل هو دوري أو سنـوي، أو نادراً، سألني عن أسماء أولاد هؤلاء العاملين في المؤسسات، الذكور والإناث، إن كانوا صغاراً فأين يدرسون وإن كانوا كباراً فأين يعملون، كيف تعرفت على هؤلاء الأشخاص وأيـن التقيتهم، سألني عن زوجات هـؤلاء من أين هذه الزوجة، وما اسمها، وهل هي متعلمة وتعمل أم لا؟

سألنـي عـن رواتب هؤلاء العاملين وهل هـي كافية لهم أم غير كافيـة؟ هل يوفرون منها أم لا؟ وإن كانت غير كافية فهل لهم طرق أخرى يسدون بهـا نقص حاجياتهم؟ وإن كانت كافية يوفرون منها فهـل تعتقد أنهـم يقدمونها أو يتبرعـون بها إلى جهـات، وما اسم هـذه الجهات؟ وأيـن هي؟ هؤلاء العاملون في باكستـان الآن سألني عـن طولهـم وعرضهم ولونهـم، علامـات فارقة لـكل واحد منهم

إن وجـدت، هل اللحيـة طويلة أم قصيرة، بيضـاء أم سوداء؟ شعر الرأس، لونـه وطوله، يلبس علـى رأسه شيئـاً أم لا يلبس؟ وإن كان يلبس فهل يلبس طاقية أم غترة أم شيئاً آخر، ومن خرج من هؤلاء الأشخاص من باكستان؟ متى خرج؟ وكيف خرج؟ ولماذا خرج؟ ومن ساعـده في الخـروج إن كان فقيراً؟ وأين ذهب بعـد خروجه؟ وهل كان هـؤلاء يقيمون في باكستـان بطريقة شرعيـة ورسمية أم كانوا مخالفين لقوانين البلد؟

كنت صادقـاً في إجابتي له عن هذه الأسئلـة وكان هادئاً وهذا الهدوء يتناسب مع عمره لأني شاهدت الشيب في رأسه، فقدرت أنه في العقـد السادس مـن عمره، لكنه أحرجنـي في سؤاله عن أسماء زوجات هـؤلاء الناس أو صلة القرابة بـين الرجل وزوجته، قلت له: عندنا في الإسلام أو عند الملتزمين من المسلمين، يرون أنه من العيب أن يعرف الناس اسم زوجته أو بناته، مع أن هذا الأمر غير حرام في الدين، وأسماء زوجات الرسول ﷺ، وأسماء بناته، وأسماء زوجات كثير مـن الصحابة وبناتهـم -رضي الله عنهـم أجمعين- معروفة ومشهـورة في كتـب التفسـير والفقـه والحديث والتاريـخ وغيرها، وكذلك أسماء زوجات التابعين وتابعيهم ومن بعدهم حتى الآن، ولما كنت أعتذر له عن عدم معرفة أسماء النساء، كان يتقبل هذا الأمر بهدوء ويبتسم.

أمـا عن طريقة معرفتي بهؤلاء العرب الذين كانو في باكستان، سواء الذين كانوا يقيمون فيها في أثناء وجودي هناك، وقبل اعتقالي في ٢٠٠٢/٥/٢٥م، أو الذيـن خرجوا منها فقلت له: إن مكان سكني في حيـاة أباد بيشاور منعزل عن العـرب، وبعيد عن تجمعاتهم، ولا يوجـد حولي أي أخ عربي، ولا يصلـي في مسجد الحي الذي أسكنه أي عربـي غيري وغير أولادي، وأنا طبيعتي وعادتي أنني لا أحب أن أذهب إلى تجمعات العـرب أو مهرجاناتهم أو محاضراتهم، وأحب أن أعيشـ منعزلاً ومنفرداً عن النـاس، وزياراتي للعرب في بيشاور تـكاد تكـون معدومة، إلا من زيـارة بعض الأرحـام والأقارب، حتى الذين يشتركون معـي في العمل لا أذكر أني زرت بعضهم أبداً طيلة مدة العمل التي استمرت سنوات.

وبعضهم ما زرته إلا في مناسبة العيد أو مناسبة عقيقة أو مولود أو نحو ذلك، وأماكن معرفتي بهؤلاء الناس كان في يوم الجمعة، بعد صـلاة الجمعة أو في أيـام العيد بعد صلاة العيد أو في أثناء زيارات العيـد البيتيـة، وبعضهم الآخر نلتقي بهم في الأفـراح والأعراس أو المـآتم عند موت أحد العرب، أو ربمـا عرفت بعضهم بحكم وجودي في معهد الأنصار العلمـي، يأتي بعضهم وهم أولياء أمور طلاب في المدرسة، للسؤال والاستفسار عن أحوال أولادهم الدراسية أو لدفع أقســاط أولادهم الشهرية، أو لأي مناسبة أخـرى تقيمها المدرسة،

لكنـه قـال في نهاية الجلسـة: أشكرك على هذه الإجابـات، إن كان لديـك أي سؤال أو طلب فتفضل بـه؟ قلت: لا يوجد عندي أي سؤال ولا أي طلب.

قال: إن كنت تريد أن تقرأ من هذه المجلات والجرائد الموجودة علـى الطاولة فـلا مانع ؟ قلـت: لا أستطيـع أن أقـرأ إلا بنظارتي، وقـد نسيتها في الغرفـة، سأحضرها في المـرة القادمة؛ لأتمكن من القراءة، لكن سأحاول أن أقرأ من دون نظارة قدر ما أستطيع، قال: اقـرأ حتى يأتي الحراس لإرجاعك إلى غرفتك، ثم انصرف، كانت هناك عشر دقائق قرأت فيها، لكن المجلات والجرائد كانت قديمة وأخبارها لا تهمني من قريب ولا من بعيد وأكثرها يصدر من خارج العالم العربي.

حضر الحراس وأرجعوني إلى الزنزانة، مضى أسبوعان تقريباً، وجـاء الحراس وقالوا تحقيق، قلت: حاضـر، تم التقييد بالسلاسل الأيدي والأرجل والوسط، وأحب أن أذكر هنا أن إدارة السجن بدأت بتغييـر طريقة تقييد السجين وقامت بفتـح نافذة صغيرة أخرى في أسفل باب الزنزانة؛ ليتم تقييد؛ الرجلين من هذه النافذة والسجين واقـف، وقد سمعـت من بعضهم أن هذا الأمـر الجديد حفاظ على الحراس؛ حتى لا يقوم أحد المعتقلين بضرب الحارس مثلاً في أثناء تقييده، لأن طريقة التقييـد القديمة يمكن للسجين في أثناء تقييده

أو فكه أن يضرب الحارس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى تكون طريقة التقييد الجديدة أكثر أماناً وضبطاً للسجين.

لقد سبق الكلام عن طريقة التقييد القديمة، وذلك عندما تكلمنا عن السجن الانفرادي في الأسبوع الأول من وصولنا إلى كوبا، وعندما تكلمنا عن الخروج للمشي والحمام في تلك الحقبة، أما الطريقة الجديدة وإن كانت إدارة السجن قد غيرتها للجوانب الإيجابية والأمنية التي تعود عليها وعلى الحراس، فإنها أكثر راحة وأقل تعباً من الطريقة القديمة، كما أنها أحسن وأفضل من الناحية النفسية للسجين؛ لأنه ليس فيها جلوس على الركب على الأرض، وليس فيها وضع اليدين خلف الرأس، كلما أرادوا أن يخرجوك من الزنزانة لأي سبب من الأسباب أو يرجعوك إليها.

الآن وقف الحارسان بباب الزنزانة ينتظرانك للاستعداد لتقييدك، ثم إلى التحقيق وبيان ذلك كالآتي: تقف على باب الزنزانة من الداخل ملتصقاً بالباب ووجهك نحو الحارسين، تمد يديك من نافذة الباب للحارسين، يقيدان يديك ثم تستدير لهما، وظهرك ملتصق بالباب من الداخل، أحدهما يمسك السلسلة التي يربط فيها لأنها كلها قطعة واحدة متصلة ببعضها بعضا والحارس الآخر يقوم بربط وسطك بالسلسلة وقفل السلسلة بقفل حديدي من جهة ظهرك، أنت الآن مقيد اليدين ويداك مشدودتان من

الأمــام على خاصرتــك لا تستطيــع رفعهما أو خفضهمــا إلا قليلاً، يقــوم الحارس الذي قيد يديــك وخصرك بإنزال طــرف السلسلة إلى الأسفل نحو قدميك، ويفتــح النـافذة السفلى، يمد يديه ويربط قدميك من الكعبين ويغلق النـافذة.

أمــا الحارســ الآخر فــلا يزال يمســك بالسلسلــة التي تحيط بخصــرك لا يفلتها من يده، يقوم الحارس بفتح باب الزنزانة حتى تخــرج، يمسك بــك الحارســان الأول والثاني أحدهمــا عن يمينك والآخــر عن يســارك، الآن عملية التفتيش تفتيشـ جسمانـي دقيق، وهز وتحريــك لملابسك؛ حتى لا يكون فيهــا أي شيء عالق، تفتيش الشعــر والرأس واللحية، تفتيش الحــذاء -الشبشب- الذي تلبسه، طي الحذاء والتدقيق فيه.

وهذا التفتيش إما أن يكون داخل الزنزانة ووجهك نحو جدارها، وإمــا أن يكون على باب الزنزانة من الخارج، في الكرادور- البهو- الــذي يوجد على طول العنــبر بين غرف العنــبر، كل حارس يفتش الجهــة التــي يوجد فيهــا، تمشي بينهمــا، وكل حارســ إحدى يديه علــى كتفك واليــد الثانية يمســك بالسلسلة التي تحيــط بوسطك، وصلنــا إلى باب غرفة التحقيق، أحد الحارسين مسؤول عن الآخر، والمسؤول عادة هو الذي يحمل جهاز الاتصال.

قبـل دخول غرفة التحقيق، يتصل الحارســ المسؤول بالمحقق، لقــد وصل السجــين إلى باب غرفــة التحقيق، نحــن نسمع الكلام، يكــون الجواب كما هو ظاهر من الكلام، إما أن تدخل مباشرة وإما أن تنتظــر قليــلاً على الباب، وهذا الاتصال يقــوم به هذا الحارس عندمــا يأخذك مــن الغرفة، وعندما تعود إليهــا، وهذا يكون في كل مرة أذهب فيها إلى التحقيق، أو يذهب إليها كل سجين.

تدخـل غرفة التحقيق، حيث يقوم أحــد الحارسين بفك يديْك يــداً بعد أخرى، اليــد الأولى يفكها ثم يضعها علــى رأسك ويمسك بــك الحارس الآخــر بإحدى يديه علــى منكبك والثانيــة على يدك التي توجد على رأسك، يفك لك الحارس اليد الثانية ويضعها على رأسك فوق يدك الأولى، لكن يمنع رفعها عن رأسك، يقوم الحارس بربط السلسلة التي تصل بين قدميك بحلقة مثبتة في الأرض، يبتعد الآن الحارسان عنــك قليلاً، الآن بإمكانك إنزال يديك عن رأسك؛ لأن الحارسين الآن في أمان.

أنــت الآن لا تستطيع أن تقوم بعيداً عن كرسيك بسبب تقييدك بالحلقــة المثبتــة في الأرض، دقائق ويأتي المحقــق، وبعض المحققين تجــده ينتظــرك، لكن بعضــ المحققين ربمــا يتعب السجــين نفسياً وعصبياً، قد يتركه ينتظر على الكرسي في غرفة التحقيق، ساعات طويلــة دون أن يحضر إلى غرفــة التحقيق، وربما يفتح عليه المكيف

البـارد ساعات طويلـة، ثم يتصل هذا المحقـق بالحراس؛ ليرجعوا السجين إلى غرفته، قد يكرر هذا مرات.

دخلـت إلى غرفة التحقيق، بعد (٥-١٠) دقائق حضر المحقق، فإذا هو صاحب الجلسة الماضية لكن المترجم جديد، بدأ يعيد على أسئلـة الجلسة الماضية؛ ليرى هل عندي شـيء جديد أضيفه زيادة علـى ما قلته بالأمس، غلب علي ظني أنــه يريد أن يتأكد اليوم مما قلتـه في الجلسة الماضية وأن ما سمعه مني صحيح، وأني ثابت على أقوالي، لكنه اليوم أضاف أسئلة جديدة، منها بوصفك قريبًا للشيخ عبدالله عزام فمن قتل الشيخ عبد الله عزام؟

الجـواب: لا أدري، هـل هناك جهة متهمـة بالتآمر على قتله؟ فقلت أيضاً لا أدري، هل له أعداء يمكن أن يكونوا وراء قتله؟ فقلت: أيضـا لا أدري، ثم قلت له: أنتم مخابـرات قوية مترامية الأطراف وفي كل الأرض، يمكنكم أن تعرفوا وإن لم تعرفوا وأردتم أن تعرفوا، فيمكنكم أن تعرفوا وتخبروا أهله بالمتورطين في قتله، ثم طرح سؤالاً آخـر عن مكتب الخدمات، وهـل لا يزال موجودًا؟ ألــه نشاط ودور يمكن أن توجه إليه أصابع الاتهام في المشاركة في الأحداث الأخيرة في واشنطـن ونيويورك؟ قلت له: لقـد انتهى مكتب الخدمات وأغلق أبوابه منذ سبع سنين تقريباً وقامت الحكومة الباكستانية باعتقال رئيسه ثم تسفيره إلى خارج باكستان قال في ظنك أين ذهب ؟ قلت: سمعت أنه ذهب إلى السعودية.

ولما انتهى المكتب من باكستان وسافر إلى السعودية لم يعد له أي وجود أو نشاط لا في باكستان ولا في غير باكستان. أظن أنه اقتنع بما سمع، لأن الباكستانيين يعرفون عن مكتب الخدمات وعن المؤسسات الإغاثية في باكستان كل شيء، وأظن أنهم أخبروا الأمريكان بهذه المعلومات إن طلبوا منهم ذلك، لأن هذه المؤسسات مسجلة لدى الحكومة الباكستانية، أما العاملون في هذه المؤسسات فإنهم يحملون إقامات رسمية من الحكومة الباكستانية أيضاً.

قال: هل تعرف عبد الله أنس؟ قلت: نعم إنه صهر الشيخ عبدالله عزام -رحمه الله- قال أين هو؟ قلت: هو في بريطانيا-لندن، قال: ماذا يفعل هناك؟ قلت: إن علاقته بالحكومة الجزائرية غير جيدة، وهرب من باكستان منذ عشر سنين إلى لندن، قال: تقول الأخبار أو سمعت أنه قتل في لندن، قلت له: رحمه الله، ماذا سأفعل له، قال: هل ذهبت إلى معسكرات التدريب.

قلت :لا، قال: سمعت أنك ذهبت إلى معسكر صدى.

قلت له: ذهبت له في مخيم صيفي مدة أسبوع مع الطلاب الذين كنت أدرس لهم، وليس للتدريب، لقد كان معسكرًا رياضيًا تربويًا مع طلاب وأساتذة المعهد الذي كنت أعمل فيه، كان فيه تدريبات رياضية، تسلق للجبال محاضرات ثقافية، ليس في هذا

المخيم تدريب على أي نوع من أنواع السلاح أو المتفجرات، وطلاب المعهد الذي كنت أعمل فيه في أفغانستان، لو أرادوا التدريب فيوجد عندهم أحزابهم وتنظيماتهم الجهادية، عندهم جبهات للقتال والجهاد في أفغانستان، عندهم مدنهم وقراهم فيها ما يريدونه من التدريب والسلاح. قال المحقق: اليوم يكفي وإذا احتجناك فسوف نستدعيك فيما بعد.

نظرت إلى طاولة عن يميني، فإذا عليها مجلات وجرائد قلت له: أتسمح أن أقرأ، قال: لا بأس، إن أردت، بدأت أقرأ، لكنها قديمة وموضوعاتها لا تهمني ولا تتكلم عن المشكلة التي نحن فيها، لكن لأن السجن لا توجد فيه أي وسيلة إعلامية، ويعيش السجين في جزيرة مغلقة، فإن أي خبر أو موضوع جديد يثير انتباهه، تصفحت منها ما استطعت قبل حضور الحراس لإرجاعي إلى الزنزانة، جاء الحراس ورجعت.

مرت مدة طويلة دون أن يطلبني أحد للتحقيق، لكنه بعد ثلاثة أشهر ونصف تقريباً جاء الحراس، وقالوا: أنت مطلوب للتحقيق، قلت: جاهز، بدأت أعمال التقييد بالسلاسل والتفتيش الجسماني، ثم سرت مع الحراس إلى غرفة التحقيق، وجدت المحقق جالسًا وهذا المحقق نفسه يجلس معي الآن الجلسة الثالثة على التوالي، أما المترجم فهو جديد، قال لي المحقق هل تعرف فلانًا؟ ذكر لي اسمه لكنني نسيت اسمه.

قلت: لا أعرفه، قال: هذا شخص من تنظيم القاعدة ألقينا القبض عليه قبل مدة قصيرة، إنه شخص كبير وخطير. قلت: يمكن كما تقول، لكني لا أعرفه ولا أسمع به، بدأ يسألني عن العراق وعن صدام حسين وكانت هنالك أخبار يتناقلها السجناء لا أعلم مدى صحتها تقول: إن النظام العراقي بقيادة صدام حسين قد سقط بيد الأمريكان وإن القوات الأمريكية دخلت العراق، قال: ما رأيك في صدام حسين؟

قلت: إنه رجل طاغية، ظلم شعبه وأنزل بهم أشد أنواع العذاب والتنكيل، كمَّم الأفواه، صادر الحريات، جعل العراق له ولعائلته، هكذا يقول أهل العراق عنه، أباد بأسلحته الكيماوية قسماً من شعبه لا ذنب لهم، غزا بجيشه الجرار دولة مجاورة صغيرة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها، وجيشه أوقع بهذه الجارة خسائر كبيرة، سمعنا أنه نهب خيراتها في أثناء الغزو، أحرق قسماً من بترولها، وأشعل حرباً مع جيرانه على الجانب الآخر (الشرقي) من العراق عشر سنين سقطت في هذه الحرب الآلاف بل عشرات الآلاف، من القتلى والجرحى من الطرفين، والتكاليف عشرات المليارات من الجانبين.

وأخيراً انتهت الحرب بينهما دون تحقيق أي مكسب لأي أحد منهما، إذ الخسائر البشرية والمادية بينهما باهظة جداً، هذا هو

صدام حسين، فلو ذهب من سيأسف عليه، لكنّ هناك سؤالاً مهماً هو: من هو الذي سيخلف صدام حسين؟ نخشى أن يكون أظلم منه عندها سيقول الناس: الله يرحم صدام. ثم انتقل إلى سؤال آخر وسألني عن الإخوان المسلمين؟ وقد كان يظن أنني منهم وأنا لا أدري ما الذي جعله يظن أنني من الإخوان المسلمين؟

قلت: إنك تظن أنني من الإخوان المسلمين، أنا لست منهم، قال: هم الآن دخلوا في برلمان بعض الدول العربية وحكوماتها، قلت: سمعت أنهم دخلوا في البرلمان المصري والأردني، قال: هم الآن يعملون في الأعمال السياسية، قلت: نعم لهم أنشطة تربوية في المدارس والجامعات والمعاهد والمساجد ودور القرآن الكريم، بالإضافة إلى العمل السياسي والبرلماني، قال: هل لهم في الأردن مكتب أو مركز؟ قلت: أذكر منذ عشرين سنة أنه كان لهم مكتب في عمان، بل سمعت أن لهم في كل مدينة مكتبًا أو مركزًا وهم الآن حزب سياسي مرخص من قبل الحكومة الأردنية، وعلاقتهم مع الحكومة الأردنية طيبة.

قال: لو أنني جئت إلى الأردن وزرتك هل تستقبلني في بيتك ؟ قلت له: نعم، قال: سؤال أخير عن المدرسة التي كنت تعمل فيها: هل خلفها مؤسسة أو جهة تدعمها مالياً؟ قلت له: إن هذه المدرسة تتبع المعاهد الموجودة في الجمهورية العربية اليمنية وتشرف عليها

مباشــرة السفارة اليمنية في إسلام آبـاد، توقع الأوراق والشهادات الصــادرة عنهــا، وأي تعليمــات أو توصيات تصل إلينــا من اليمن، تكـون من خلال السفـارة اليمنية في إســلام آباد، لكــن اليمن، أو سفـارة اليمــن، في إســلام آباد لا تقدم لنا أي دعــم مالي، لا يصل إلينا من اليمن إلا الكتب المدرسية فقط.

أمــا تمويـل المدرسة المــالي، فمــن المحسنــين والمتبرعين ومن الأقساط الشهرية الطلابية. انتهــت الجلسة وانصرفت راجعاً إلى غرفتــي مع الحراس، بعــد هذه الجلسة مكثت نحــو عشرة أشهر لا أذهــب فيها إلى التحقيق، فقرابة ثلاث مئة يوم، سنة تقريباً، كنت خــلال هذه الحقبــة أتنقل بين العنابــر، وهذا الانتقــال كان بسبب ترميمات وتصليحات تقوم بها إدارة السجن للعنابر، ترميم الألوان - الدهــان- إجــراء تغييرات في غرف السجــن تقتضيها الظروف، وكانــت الإضاءة وسط العنبر في الكرادور- البهو- قد أصبحت بعد الترميم في داخل الغرف.

والســريــر كان مرتفعًا أكثر من متر عــن الأرض، فأصبح الآن يرتفع من (٣٠-٤٠) سم تقريباً، وينزل منه لوح حديدي إلى الأرض يغلق الفراغ الموجود تحتــه، كان لون العنبر من الداخل كله أخضر، الجــدران من الداخل والخارج والممر بين الغــرف داخل العنبر كله أخضر، وهذا كان يؤذي العينين ويؤثر على النظر فيما لو نظرت من

خـلال الشبوك عن يمينك أو عن يســارك أمامك أو خلفك، أصبح اللون الجديد أكثر راحة للعينين.

مــن الداخل مــن جميع الجهات مــن الأرض حتــى ارتفاع متر ونصــف أخضر، ثم مــن ارتفاع متر ونصف وحتــى مترين ونصف باللــون الأسود، ومــن مسافة متريــن ونصف وحتى سقــف الغرفة باللــون الأخضــر، أمــا السرير فقد نزل مــن الارتفــاع القديم إلى هــذا الارتفاع الجديــد؛ لأن السرير في حالة الارتفــاع كان يستعمله المسجونون للضرب والإزعاج الشديد، فيحدث أصواتاً مرتفعة جداً خاصة إذا كان الضرب بشكل جماعي.

وهــذا يفعلــه المسجونون عندمــا كانوا يطالبــون إدارة السجن بأمــور ومتطلبــات ترفضهــا إدارة السجــن، أو كان عنــد المساجين مشكلــة يريدون أن يحضــر المسؤول عندهم، فيرفض الحضور أو يتأخر، فيضربــون على الأسِرّة فتحدث أصواتــاً عالية مما يضطر الإدارة إلى تلبيــة مطالبهم، أو التفاهــم مع السجناء، لكن الضرب على الأسِرّة كثيراً ما يؤدي إلى فرض عقوبات على المساجين، وذلك بسحب بعض حاجاتهــم وأغراضهم، أو بنقلهم مــن عنبرهم إلى عنبر آخر.

المعسكر الرابع

في المدة التـي انقطع عني فيها التحقيق، أقامت إدارة السجن سجناً جديداً يسمى المعسكر الرابع(Camp 4) هذا المعسكر يختلف عـن العنابر التي يعيش فيهـا بقية السجناء، فهـو يبتعد قليلاً عن السجن القديم ومعزول عنه، مكـون من (٤-٥) تجمعات متقاربة، كل مجموعة فيها (٣-٤) غرف كبيرة، ولها ساحة كبيرة أمام هذه الغرف، يحيـط بهذه الساحة جدار حديـدي مشبك وكل غرفة من الغـرف تتسع إلى (١٠-١٢) سجينًا، الغرفـة كبيرة وأسِرّتها مثبتة بجدران الغرفة، الأسِرّة في أطراف الغرفة.

أمـا وسط الغرفـة ففارغ لا يوجـد فيه شـيء، الغرفة مراقبة بكاميرات وشاشـات تلفزيونية، إن هذا يعني أن أي حركة في داخل الغرفـة تظهر على شاشات التلفزيون أمـام المراقب، وفي داخل كل غرفة حمام لقضاء الحاجة، وخارج الغرفة بل وخارج التجمع الذي

يضم (٣-٤) غرف، يوجد حمامات اغتسال كثيرة لجميع السجناء، هـذا المعسكر الجديد الذي اسمه المعسكـر الرابـع (Camp 4) له نظام خاص يختلف عن النظام في السجن القديم دلتا:

أولا : اللباس في هـذا المعسكـر يختلـف عن اللباس الموجود في السجن القديم، اللباس هنـا أبيض، البنطلون والقميص، أمـا الحذاء فيوجد مع كل واحد حـذاء خفيف - شبشب - بالإضافة إلى حذاء رياضي- بوت -.

ثانيا: الحزام هنا لا يوجد به سلاسل حديدية مثل السجن القديم دلتا، هنا حزام قماشي على الوسط، بالإضافة إلى حلقتين لليديـن متصلتين مع الحزام، مـن الأمام جهة البطن، ولا يوجد تقييد للرجلين.

ثالثـاً: الطعـام: كمية الطعـام التي تعطى هنـا للسجين أكثر من كمية الطعام التي تعطى للسجين في السجن دلتا.

بالإضافـة إلى بعض الأنـواع الأخـرى، مثـل قطعـة كيك أسبوعيـاً لكل سجـين، كمية الطعام هنـا تعطى لكل غرفة في صناديـق وأوعية، وكل غرفة لها أمير يتسلم الطعام من الحراس، ويقوم السجناء بتوزيعه على أنفسهم دون تدخل من الحراس، بخلاف العنابر القديمة فإن الحراس هم

الذيـن يوزعون الطعام على السجناء، أيضاً في هذا العنبر يمكـن للسجنـاء أن يأكلـوا مجتمعـين إذا أرادوا، بخلاف السجن القديم لا يمكنهم ذلك.

رابعاً: الحراس هنا قلما يدخلون إلى غرف هذا السجن، فدخولهم نـادر وعند التفتيش، أو عند تسلـم أو تسليـم الملابس أو الطعام.

يوجـد حارس واحد علـى باب السجـن، فالسجين هنـا يشعر بنـوع من الحرية ورفع القيود عنه، بخـلاف السجن القديم، يمكن للسجنـاء هنـا أن يصلوا جماعة كجماعة المسجـد، صفاً أو صفوفاً متصلـة، فذلك يستحيل في السجن القـديم، في هذا السجن يخرج السجنـاء خـارج غرفهـم ثلاث مـرات للطعـام [الفطـور والغداء والعشاء] كل مرة نصف ساعة وقد تزيد قليلاً، ويخرجون للرياضة أو الحمام والاغتسال يومياً إذا أرادوا ويمكن أن يلتقي سجناء غرف كل مجموعة ثلاث أو أربع غرف في ساحة مجموعتهم، فيجتمع مثلاً (٢٠-٣٠) سجيناً في الساحة يومياً.

قالـت إدارة السجن: إن من يذهب إلى هـذا المعسكر فسيقيم فيـه قليلاً، ثم يسافر إلى بلده، وبالفعل طبـق هذا النظام قليلاً في البداية، لكن تبين فيما بعد أنه ليس كل من يذهب إلى هذا المعسكر قد انتهى تحقيقه وسيسافـر إلى بلده؛ لأن إدارة السجن والمحققين

بدؤوا يرجعـون كثيراً من السجناء من المعسكر الجديد إلى العنابر القديمـة، إما بطلب من السجناء أنفسهـم، أو بسبب التحقيق، لأن السجنــاء مثلاً رفضوا الـكلام في التحقيق، أو أعطوا معلومات غير صحيحة، وسمعت أن بعضهم أرجعوه من دون أي سبب.

وبعضـ الذين رجعوا من هذا المعسكر قالـوا، محللين: إن هذا المعسكـر الجديد أصبح مصيدة أو وسيلة ضغط على السجناء، إما أن تقـدم لنا ما نريـد أو نرجعك من هذا المعسكـر الذي توجد فيه مميـزات وخصائصـ لا توجد في السجن القـديم، هذا الشرط لم يتكلـم بـه أو يشترطه أحد مـن المحققين على السجنـاء، لكن هذا كان لسـان الحال، وليسـ لسان المقال، فكل مـا كان يجري في هذا السجن يـدل على هذا الشرط، يقولون: قـدم لنا كذا، نعطك كذا، هذا الشرط لم يكن لجميع السجناء، بل لبعضهم.

المعسكـر الجديد ليس فيـه جنسية واحدة، بـل فيه من جميع الجنسيات من العرب والعجم.

لقـد ظنت إدارة السجن، أن السجين إذا تعود على نمط وشكل مـن الحياة في المعسكـر الجديد، من حيـث الأكل أو حرية الخروج خـارج الغرفـة أو الرياضة والاستحمام اليومـي أو ... إن تعود على هـذه الامتيازات، والتوسع في الحياة الجديدة، فربما لا يستطيع أن يترك هذه الحياة فيما لو طلبوا منه ذلك، وسيقدم تنازلات ويضعف أمام الضغط الجديد من أجل أن يبقى في هذه الحياة الجديدة.

وهــذا الضغــط أو المساومــة لم تكن لكل السجنــاء في المعسكر الجديــد بل لبعضهم، ولقد سمعت أن بعضــ السجناء الذين رجعوا مــن المعسكر الجديــد إلى المعسكر القديم، تأثــرت نفسياتهم وظهر عليهم الحزن وعلامة عدم الرضا لما حصل لهم، وبعضهم كان الأمر عليه طبيعياً، وقال: ما دام أنه كله سجن، فلا نأسف إن أرجعونا من المعسكــر الجديد إلى المعسكر القديم، لكن بعض السجناء كان عنده إيثار لإخوانه السجناء ورفض أن يعيش في المعسكر الجديد (الرابع) صاحــب الامتيــازات، دون إخوانه الآخرين وقــال: أعيش كما يعيش بقية إخواني السجناء، ولا أتميَّز عليهم بطعام أو لباس أو....

وهــذا الإيثار ورفض التميز عن الآخريــن، شاهدناه في حالات كثــيرة، منهــا: إن إدارة السجن قدمــت في مرتين طعامــاً متميزاً، لحمــاً مشويــاً وعصــيراً ... وهذا طعــام غير الطعــام المعتاد الذي يقــدم لكافة السجناء، فرفض الكثير من السجناء أكل هذا الطعام وقالــوا: لا نأكله وحدنا دون كافة إخوانتــا السجناء، خاصة أن هذا النوع من الطعام قدموه لعنــبر أو عنبرين، وكانت أجهزة التصوير والكاميرات تصور هذا المشهد، على غير المعتاد من وجبات الطعام الأخرى، فكأن هــذا المشهد فيلم تريد إدارة السجن تسويقه ونشره في الخــارج، بــأن هذا هو الطعــام الذي يقدم للسجنــاء في معسكر جوانتنامــو، إنه طعام من أجل الإعــلام، وليس في الحقيقة الطعام الذي يقدم دائماً.

شاهدنا هذا الإيثار عندما تكون هناك عقوبات لبعض السجناء، وتسحب منهم بعض الأغراض، فإن بعض السجناء غير المعاقبين كانوا يصرون ويؤكدون أن يكونوا متساوين مع المعاقبين، ولذا كانوا يرجعون إلى الحراس ما لديهم من الأغراض التي يتميزون بها عن إخوانهم المعاقبين، وقالوا: نعيش بأغراض مثل أغراض إخواننا المعاقبين، ولا نتميز عنهم بأي شيء، والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

وفي هذا السجن- الرابع- أصبحت هناك عملية فرز في داخل هذا السجن، لمن يريد أن يخرج من السجن ويرجع إلى أهله، وذلك بتخصيص غرفة لمن أنهى كل ما يريده المحققون منه، وظهرت براءته، وأنه يستحق السفر إلى أهله، وهذه الغرفة توجد في كل مجموعة من المجموعات الخمسة في هذا المعسكر، وتسمى (غرفة المسافرين) من يدخل هذه الغرفة يلبس اللباس الكاكي، وهذا اللباس يعني أن صاحبه على أهبة السفر، والخروج من كوبا إلى وطنه.

درجات السجن

عندما وصلنا إلى قاعدة جوانتنامو في جزيرة كوبا مع بداية الشهر الثامن لعام ٢٠٠٢م لم يكن هناك درجات في عنابر السجن، واستمرت هذه الحالة مدة (٥-٦) أشهر، لكن يبدو أن إدارة السجن -كما سمعنا- أرادت أن تصنف السجناء في العنابر حسب التزامهم بقوانين السجن، وبحسب مشكلاتهم مع الحراس دون النظر إلى ملفاتهم أو التهم الموجهة إليهم، فالدرجة التي يكون فيها السجين لا علاقة لها بالتحقيق ولا بنظافة ملفه من التهم والمشكلات الموجهة إليه.

قسمت إدارة السجن العنابر التي يوجد فيها السجناء إلى أربع درجات:

الدرجة الأولى، الدرجة الثانية، الدرجة الثالثة، الدرجة الرابعة، وجعلت عنابر الدرجتين الأولى والثانية في جهة واحدة

ومجمع واحد بجانب بعضهما، وعنابر الدرجتين الثالثة والرابعة في مجمع آخر بجانب بعضهما.

الدرجة الأولى: يكون في هذه الدرجة السجين الذي لا يعمل أي مشكلات، سواء مع السجناء أو مع الحراس، أو مع الضيوف والزائرين، ولا يقوم بالاعتداء والتخريب لممتلكات السجن، سواء الأغراض التي تقدمها له إدارة السجن أو الأغراض التي توجد في الغرفة، وإن كانت الغرفة كلها حديدًا، لا يجوز للسجين أن يقوم بتخريب أو تكسير ما في الغرفة، وهذه الدرجة يتسلم صاحبها فرشة نوم كبيرة، وقطعة إسفنج يصلي وينام عليها، أو يجلس عليها عند الأكل، أو غير الأكل، وبطانيتين كبيرتين، وقطعة صابون كبيرة، وفرشاة ومعجون أسنان، وفانيلة حمراء ناعمة، بالإضافة إلى الفانيلة الحمراء التي توجد معه، وزجاجة عطر صغيرة أو زجاجتين صغيرتين، ومسبحة وطاقية صغيرة للرأس، ومجموعة من الكتب الإسلامية وغير الإسلامية حسب الرغبة.

لكن سحبت الكتب جميعها بعد مدة، ويوجد معه كوب من البلاستيك يشرب به ويستعمله في الحمام، وإن أراد قارورة ماء يملؤها ويشرب بها مع غطائها الذي سيكون له شأن فيما بعد، فهو سداد إسفنجي للأذنين، ومن حقه أن يأخذ ورقة وقلمًا من الحارس مدة ساعات ويرجعه، وإن أراد يطلبه مرة أخرى يكتب أو يرسم ما

يريد، ومن حقه أن يخرج كل يوم إلى مكان المشي والرياضة والمشي نصف ساعة، ويغتسل يوماً بعد يوم، ويحتفظ بالطعام المغلف غير المكشوف (٢٤) ساعة، ويصرف له شيء من الطعام الزائد أكثر من نصيبه المفروض، ويكون معه منشفتان وسط ومنشفة صغيرة، كما أنه عندما يخرج للمشي والرياضة أو الحمام يقيد بالحزام في وسطه مع يديه من جهة الأمام دون تقييد قدميه؛ تخفيفاً عليه، أي لا يقيد بالسلاسل.

الدرجة الثانية: يرجع السجين من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثانية إذا قام بمخالفة بسيطة أو خفيفة لقوانين السجن، أو أتلف شيئاً من ممتلكات السجن التي توجد معه، أو قام بتخزين طعام مفتوح غير مغلف مثلاً، عندها يرجع السجين إلى الدرجة الثانية، لكن يبقى في العنبر نفسه الذي يسكن فيه (عنبر الدرجة الأولى) وتسحب منه إدارة السجن بعض الأغراض التي معه مدة ثلاثة أيام، وتسحب منه الفرشة الكبيرة والبطانية والمنشفة الوسطى والمنشفة الصغيرة، وكانوا في بداية الأمر يسحبون المنشفتين من المعاقب، لكن تغير النظام، وأصبحوا يأخذون منه منشفة واحدة ويبقون له واحدة، وتُسحب منه قارورة الماء وكويا الماء والمعجون وفرشاة الأسنان، وتُسحب منه المسبحة والطاقية والعطر والفاين والفانيلة الحمراء الناعمة وسداد الأذن.

وتُسحب منه الكتب كاملة، ويمنع عنه الورق والقلم، وبعد ثلاثة أيـام تعود للسجـين كافة أغراضه التـي سُحبت منـه، وربما يسأل سائل: لمـاذا ينتقل السجين من الدرجـة الأولى إلى الدرجة الثانية لمجـرد خطـأ بسيط، أو مخالفـة قليلة ويفقد معظـم أغراضه مدة ثلاثة أيام؟

فالجـواب: لأن السجين كان في الدرجـة الأولى يتمتع بمميزات كثـيرة، فلكي يحافظ على هـذه المميزات وحتى لا تسول له نفسه أن يقـدم على عمل أي خطأ وإن كان قليـلاً أو بسيطاً يفقد مقابل هذا الخطأ، ما معه من أغراض، كأنهم يريدون أن يقولوا له: كنت تظن أن هذه الأغراض التي سحبت منك لا قيمة لها، لكن شعرت بقيمتها عندما سحبت منك، إن العقاب أكبر بكثير من الخطأ، كل هذا من أجل الضبط والحزم والالتزام بالقوانين.

الدرجـة الثالثـة: وهـي درجـة أفضل من الدرجـة الثانية التي قبلها، وهذا من أعجب العجب، لكن بشرط أن تكون الدرجة الثالثة مـن دون عقوبـة، وهذه الدرجـة لا يأتي إليها السجـين من الدرجة التي قبلهـا وهي الدرجة الثانية، لكنه يكون في الدرجة الرابعة التي هـي أكثر الدرجات شدة وعقوبـة، فإذا انتقل مـن الدرجة الرابعة إلى الدرجـة الثالثة وترجع إليه كل أغراض الدرجة الأولى كاملة إلا غطـاء قارورة الماء فإنه لا يعود إليه ويمكث السجين في هذه الدرجة

وقتاً قليلاً، يوماً أو يومين، ينقل بعد هذه المدة القليلة إلى عنابر الدرجتين الأولى أو الثانية التي لا عقوبة فيها، وهي عنابر منفصلة عن عنابر الدرجة الثالثة والرابعة.

الدرجة الرابعة: وهي أشد الدرجات عقوبة، وهذه الدرجة لا يأتي إليها السجين من الدرجة الثالثة، بل يأتي إليها من الدرجة الأولى والثانية، وذلك إذا قام السجين بعمل مخالفة كبيرة، مثل رش الحراس بالماء أو البول والغائط أو رش الحراس بالشاي والحليب، أو قام بالبصق على الحارس أو شتم الحراس أو تكلم معهم بكلام بذيء أو كسر شيئاً في زنزانته، أو أخفى ملعقة الطعام، أو رفض الخروج مع الحراس إلى غرف التحقيق، أو رفض الخروج من الزنزانة لتفتيشها، أو نحو ذلك من المخالفات الكبيرة، وهناك حالات ينقل فيها السجين إلى الدرجة الرابعة دون أن يعمل أي مخالفة، وذلك إذا امتنع عن الكلام في التحقيق أو كانت له مشكلات أخرى مع المحققين، فعندها ينقل إلى الدرجة الرابعة بأمر من المحقق. هذه الدرجة عادة يسبقها الدخول إلى السجن الانفرادي المغلق مدة أسبوع أو أسبوعين، وربما شهر أو شهور حسب المخالفة التي عملها السجين، لكن من كانت عليه عقوبة شهور في السجن الانفرادي، فإنه لا يقضيها كلها متتابعة في هذا السجن، بل يخرج في نهاية كل شهر من السجن الانفرادي إلى العنابر العادية

غير المغلقة مدة أيام، ثم يرجع إلى السجن الانفرادي المغلق، وهكذا حتى تنتهي مدة عقوبته في السجن الانفرادي، أما التقييد لأصحاب الدرجتين الثالثة والرابعة عند الخروج للتحقيق أو المشي والاغتسال، أو... فإنه يكون بالسلاسل، وليس بالحزام مثل الدرجتين الأولى والثانية.

والدرجة الرابعة يؤخذ من السجين فيها جميع أغراضه التي توجد مع السجناء في الدرجة الأولى، ولا يبقى معه إلا قطعة الإسفنج التي يصلي أو يجلس أو ينام عليها، وبطانية واحدة ومنشفة واحدة، أما ما عدا ذلك من الأغراض فيسحب منه وهذا في الحقيقة أمر صعب على السجين، وتسمى هذه الدرجة درجة رابعة معاقب ويبقى السجين في هذه الحالة مدة شهر كامل تحت النظر والمراقبة لا يعمل السجين في هذا الشهر أي مخالفة كبيرة أو خطيرة، وبعد مرور هذا الشهر يعاد له كوب ماء وصابونة صغيرة ومعجون وفرشاة أسنان، تبقى معه مدة شهر آخر يكون تحت النظر والمراقبة من الحراس.

وتسمى هذه درجة رابعة غير معاقب، فإذا مضى عليه شهران دون أي مخالفة انتقل إلى الدرجة الثالثة التي يمكث فيها يوماً أو يومين ينقل بعدها مباشرة إلى عنابر الدرجتين الأولى والثانية، فإذا عمل أي مخالفة ولو صغيرة خلال هذين الشهرين، سحبت منه فرشاة الأسنان والمعجون والصابونة الصغيرة وكوب الماء وعاد

إلى الدرجـة الرابعة معاقب، وهكذا كلما ارتكب مخالفة في الدرجة الرابعة سحبت منه أغراض الدرجة الرابعة غير المعاقب، وعاد إلى الدرجـة الرابعة معاقـب، وتضاعفت عليه المدة التـي سيقضيها في الدرجـة الرابعة؛ حتى يثبت هذا السجـين التزامه بالقوانين لينقل منها إلى الدرجة التي قبلها وهكذا.

عقوبات بلا سبب

ربمـا يبقى السجين في الدرجة الرابعة (معاقب) شهورًا كثيرة دون عمل أي مخالفة، وهذا يكون:

أولاً: إمـا بسبب التحقيق، أي بسبب مشكلات في سير التحقيق وإعطاء المعلومات المغلوطة، وإما بسبب الامتناع عن الكلام أو...

ثانيـا: وإما بسبب المخالفـات والمشكلات التي يعملها السجين، ولقد رأيت من هذا النوع الكثير، لقد وضعت في الدرجة الأولى منذ أن ظهرت الدرجات، وبقيت في هذه الدرجة مدة طويلة، سنة تقريباً كنـت خلالها أعاقـب عقوبات بسيطة بسبب أو مـن دون سبب، أما العقوبـات التي مـن دون سبب فإن كثيراً مـن الحراس ربما يسجل عليـك العقوبة دون عمل أي مخالفة، كمـا يحلو له وكما يريد يكتب عليـك، وهذا يحدث كثيراً وإذا حاولت أن تبرئ نفسك وتثبت عدم

قيامـك بعمل أي مخالفة سواء للحارس أو للمسؤول، فإنه لا ينظر إلى هـذه الشكـوى ويقول لـك: لقد سجلـت العقوبة عليـك ونزلت (ظهرت) على اسمك في الكمبيوتر، ولا بد لك أن تطبق وتنفذ هذه العقوبة لا فائدة في المناقشة الآن، ولا في إثبات براءتك.

ثم إن الأمر أو القانون المسموح به، الآن ويعمله السجين ويمارسه بحرية مرارًا، ربما يأتي حارس آخر ويعاقبك على هذا الأمر المسموح به الذي فعلته مراراً دون أن تسجل عليك عقوبة، فالقانون في عنابر السجن يفسره ويطبقه ويحلله الحارس كما يريد، مثلاً سجلت علي ثلاث عقوبات خفيفة، وأنا في الدرجة الأولى تسحب مني خلال هذه العقوبـات وهي ثلاثة أيام في كل مرة معظم الأغراض التي بحوزتي وأبقى مكاني في عنبر الدرجة الأولى.

المرة الأولى: علقـت -نشرت- الفانيلة على جـدران الزنزانة؛ لكـي يجف من الماء، فقال الحارس: أنزل الفانيلة من على الجدار، وضعهـا على الشباك، قلت له: حسن، لكن هذا الشباك هو الشباك الوحيـد في الغرفـة الـذي يدخـل منه الهـواء أو النـور، والجو حار والمعتقـل بحاجـة ماسة إلى هـذا الشباك، والقانون قبـل مدة كان يمنـع تعليق أي ملابس على الشباك ويسمح لك بوضع الملابس على جدران الغرفة من الداخل.

أمـا المرتـان الأخريان اللتـان عوقبـت فيهما، فـإن في مغسلة الزنزانـة الموجـودة في الغرفـة ثقوب ينـزل منها المـاء، ويمر على السجـين أوقات ينقطع فيها المـاء عن السجناء، فمن أجل ألا نطلب الماء من الحراس، يقوم الحراس بإخبارنا بأن الماء سينقطع اليوم، مـدة خمس ساعـات أو أكثر أو أقـل فاملؤوا المغاسـل بالماء، فنقوم بإغلاق المغسلـة بشيء ونملؤها بالماء الـذي نستعمله عند الحاجة، فـكان السجناء يقطعون أسفـل كوب الماء البلاستيكـي ويغلقون به ثقوب المغسلة، فتحتفظ المغسلة بالماء وقتًا طويلاً.

هـذا الكوب يقـدم للسجناء فيـه شاي أو حليـب، وسيلقى بعد استعماله في سلة المهملات، إنه لا يستعمل إلا مرة واحدة فقط، جاء الحارس ودخل غرفتي لتفتيشهـا بعد خروجي إلى المشي والحمام، فوجـد حوض الماء مليئاً بالماء بسبب أسفل هذا الكوب البلاستيكي، فسجل علي عقوبة في مثل هذه المناسبة مرتين، فقلت للحارس: أنتم تقولون لنا: احفظوا الماء داخل المغسلة؛ لأن الماء سينقطع اليوم، ثم تقومون بتسجيل عقوبة علينا كيف يحدث هذا؟!

لكـن اعتراضـي هذا لا فائـدة فيه، حدث هـذا مرتين معي في عنبريـن مختلفين، فيسحبـون منك الأغراض التـي توجد معك في الدرجـة الأولى كاملـة تقريباً، مـدة ثلاثة أيام يبقـون معك قطعة الإسفنج التي تنام وتصلي عليها ومنشفة واحدة وبطانية واحدة.

قبل خروجي من كوبا بثلاثة أشهر تقريباً وبعد مرور عشرة أشهر علي دون أي تحقيق معي، جاء الحراس بعد صلاة الفجر، وقالوا: عليك تحقيق، قلت لهم: جاهز، وصلت إلى غرفة التحقيق، وجلست وتم فك اليدين ثم ربطوا القدمين بحلقة في أرض الغرفة، وجدت الصور موجودة على جهات الغرفة الثلاثة، أمامي وعن يميني وعن يساري، صورة مسجد وصورة أطفال وصور مهاجرين أفغان وبيوت مهدمة وصور للجيش الأفغاني وصور نساء وصور أفغان بعمائم ولحى وعن يميني شباك زجاجي أسود ومثله عن يساري، لا يرى أحد من خلالهما شيئًا ،وفي زاوية الغرفة يظهر شيء مثل المصباح (كاميرا) ينزل من سقف الغرفة يمكن أن يكون هذا المصباح (كاميرا).

هكذا كان الأمر يبدو لي، بعد عشر دقائق حضر رجل يلبس اللباس العسكري ومعه مترجم يظهر من لونه ولهجته أنه سوداني وفي زاوية الغرفة تجلس سيدة تكتب كل ما تسمعه من المحقق أو المترجم، كانت هذه المقابلة هي آخر مقابلة ذات قيمة جلست فيها للتحقيق وكأن المحقق يريد أن يراجع معي جميع أو أكثر ما سبق من أسئلة واستفسارات وقعت لي مع المحققين السابقين، لم يسألني في هذه الجلسة عن سيرتي الذاتية أو عن نوع العمل ومكانه أو الدراسة، لم يسألني عن عائلتي ولا عن أشخاص آخرين.

لقد كانت هذه الجلسة كما شعرت آخر جلسة، فهي بمنزلة جس نبض واختبار لي، إن كنت قد غيرت في معلوماتي وإفادتي السابقة أو هي لمعرفة ما إذا كنت قد تأثرت بأناس أو من أناس آخرين في السجن طيلة عشرة الشهور الماضية التي لم أذهب فيها إلى التحقيق، وبعد انتهاء الجلسة قال المحقق لي: لقد أنهيت ما عليك وأجبت عن جميع الأسئلة التي وجهت إليك، ولم يبقَ عليك شيء إلا اختبار جهاز كشف الكذب وتسجيل صوتك، وبعدها سوف نرسلك إلى المعسكر الرابع(Camp 4) وهو المعسكر الذي يوجد فيه كثير من الامتيازات والتسهيلات التي لا توجد في بقية العنابر.

ثم قال: أتحب هذا المعسكر الجديد؟ قلت: إن أرسلتني أذهب وإلا مكثت في مكاني، وهذا الجواب مني بهذا الشكل؛ لأن رغبتي ومحبتي في الذهاب لهذا المعسكر أو عدم رغبتي لن يقدم أو يؤخر شيئاً في قراره، فالمحقق هو الذي يقرر أن يرسلك أو لا يرسلك وليس رغبتك هي التي تقرر، ثم أخرج جهاز تسجيل صغيرًا جداً بطول إصبع اليد وقال لي: تكلم، قلت: فيم أتكلم؟

قال: بأي شيء تريده، تكلمت عن سيرتي الذاتية قليلاً، ثم قرأت سورة من القرآن وتوقفت، فلما رأى حيرتي أخرج كتاباً من حقيبته يتعلق بالمذهب المالكي وأعطاني الكتاب وبدأت أقرأ منه مدة عشر دقائق، ثم قال لي: قف كفى، انتهت الجلسة قال لي:

شكراً على إجاباتك وسـوف نطلبك عندما نحتاج إليك، وانصرف مع المترجم، وعدت إلى غرفتي.

بعد أسبوع جـاء الحراس وقالوا لي: تحقيق، قلت: جاهز، كان الوقـت بعد صلاة الفجر مباشرة لم تكن الشمس قد طلعت بعد، تم التقييد بالسلاسـل ثم التفتيش، سرنا وصلنـا إلى غرفة التحقيق، مرت دقائق جاء المحقق الذي كان في الجلسة الماضية ومعه شخص آخـر عسكري ومترجم جديد، قال: هذه الجلسة للتعرف عليك من هذا الشخص أي العسكـري الجديد، وسوف يتعاون هذا الشخص معـي في العمـل في ملفـك والانتهاء ممـا تبقى فيه مـن أمور، كيف رسائلك هل تصل إليـك بانتظام، كيف عنبر السجن وكيف غرفه، هل تطلب منا شيئًا هل لك شكاوى؟

قلـت: أصابنـي شيء مـن الروماتيـزم وأجد ألمـاً في رجليّ، لو تعطيني (جرابات) تحميني من البرد، قال: نظام السجن لا يسمح بصرف الجرابات للسجـين، لكن سنعطيك بطانية إضافية، مضى نحو عشرة أيام دون أن يرسل إلي أي شيء، بعد أيام قليلة زارني هذا المحقق في غرفتي، وقال: كيف صحتك؟ قلت: البرد، قال: سيصلك هذه الليلة بطانية. بعد العشاء جاء الحراس بالبطانية، لكنها كانت ممزقة من الداخل قلت للحارس: انظر إليها لا أستطيع استعمالها، أعطنـي غيرها ذهب وأحضر واحدة غيرها، لكن البطانية تستطيع

أن تتغطى بها عند النوم أو الجلوس، لكن عند المشي أو الصلاة أو الوقوف تحتاج إلى الجرابات، لكن لا حياة لمن تنادي، ممنوع صرف الجرابات للسجين.

كانت هذه الجلسات ما بين عيد الفطر وعيد الأضحى، أواخر عام ٢٠٠٢م وقبيل عيد الأضحى بعشرة أيام، تم نقلي إلى العنبر الانفرادي عقوبة لي، هذه العقوبة ليس لي فيها ناقة ولا جمل، لكن الذي حدث أن أحد الحراس كان يتناقش مع جاري الموجود في السجن عن محمد علي كلاي، الملاكم الأمريكي الذي قيل: إنه أسلم ثم، انتقل الحديث بينهما إلى النبي محمد ﷺ ورسالته للناس أجمعين وأن المسلم لا بد أن يكون قوياً مثل محمد علي كلاي.

فالحارس أراد أن يكون الناس مثل محمد علي كلاي أقوياء كما قال أحد الحراس الذين سمعوا المناقشة، والحارس أراد أن يعبر عن القوة فما استطاع، فقال له: إن محمدًا كان مصارعاً (ملاكماً) أراد (بمحمد) (محمد علي كلاي) وليس (محمد) النبي (محمد) ﷺ، فالأخ السجين رأى كلام هذا الحارس عن (محمد) بأنه مصارع إهانة واستهزأ ولا بد أن يعاقب هذا الحارس ويرد عليه؛ لأنه اعتدى على مقام النبي ﷺ، فكان هذا النقاش في مكان المشي خارج غرفة النوم، لما رجع هذا الأخ إلى غرفته -وكان جاري الملاصق- قام هذا الأخ واتفق مع بعض جيرانه الآخرين، أن يقوموا بعدم تناول وجبة الطعام (العشاء)

وأن يقوموا برش هذا الحارس بالماء والبول والحليب والبصق عليه، لكن أنا جاره أعيش بجانبه لا أعلم بما يخطط له.

ولما علمت بما يريد القيام به قلت له: يا أيها الأخ، هذا الحارس غير مسلم نصراني لا يعرف معنى ما قاله، وكثير من الناس وحتى المسلمين ربما يريد أن يعبر لك عن قوة الرسول ﷺ فيقول لك مثل هذا الكلام وعندها نحن لا نقوم بشتم أو سب أو معاقبة هؤلاء المسلمين، إنما نقوم بتعليمهم وتوضيح المسألة لهم، فكيف بهذا الجندي، إنك لو استدعيت هذا الجندي ووضحت له المسألة وناقشته، لتراجع واعترف أنه ما قصد الذي فهمته أنت منه، لأن أحد الحراس الذي كان يسمع ما يتناقشون فيه قال لنا: أنتم فعلتم خطأ، إن هذا الحارس ما قصد إهانة نبيكم، وما قصد بقوله: «محمد مصارع» -أنه يقصد النبي- إنما قصد محمد علي كلاي.

أقول: لكن قدر الله وما شاء فعل، بعد انتهاء وجبة العشاء بدأ هذا الحارس مع الحراس الآخرين يجمع أطباق الطعام الفارغة، فلما وصل الحارس (صاحب المشكلة) إلى القرب من جاري قام هذا الجار وألقى الماء والبول المخلوط بالحليب، وبدأ السجناء الآخرون يلقون الماء وغيره مع البصاق على هذا الحارس، ومن معه من على جانبي العنبر، ليس كل السجناء إنما بعضهم شارك بالبصق ورش الماء وغيره...

العنبر الانفرادي

بعــد ساعة نُقل بعضــ السجناء إلى العنابــر الانفرادية عقوبة لهــم، وفي اليــوم الثاني نُقل جميــع من تبقى من ســكان العنبر إلى عنابــر أخرى انفرادية وغير انفرادية، وجــاءت نوبتي بعد العصر، وقال لي الحارس: أنت ستنقل، قلت له: أين؟ قال: إلى عنبر نوفمبر الانفرادي، قلت له: أنا ما فعلت شيئاً، قال: لقد نزلت عليك العقوبة، لا بــد مــن تنفيذها حتى لو كنــت بريئاً، وهكذا كان حــال الكثيرين نزلت عليهم العقوبة دون أن يشاركوا في أي عمل ضد الحراس، لكن الجنود عندمــا يسجلون أرقام الغرف التــي قامت بعمل مشكلات، يقومون بتسجيل الأرقــام التي يريدونها دون أن يتحققوا أو يتأكدوا فيما إن كان أصحــاب هذه الغرفة اشتركوا في مثل هذه الأعمال أم لم يشتركوا، وصلت إلى عنبر نوفمبر الانفرادي.

وقــد تقدم الكلام عن هذا العنبر وأنه مغلق، الغرفة مغلقة من كل الجهات، إلا فتحة صغيرة على باب الزنزانة، لإدخال الطعام أو

الـدواء أو لتقييد وفك سلاسل السجين من هذه النافذة، من يرسل إلى مثـل هذه العنابر يكون هــذا الإرسال عقوبة له، سحبوا منـي كل الأغراضـ، وتركوا معي قطعة الإسفنـج ننام ونصلي ونجلس عليها، وبطانية واحدة ومنشفة واحدة، ما عدا ذلك لا شيء معك، الخروج من هذا العنبر مرتين فقط في الأسبوع، بينما كان الخروج في عنبر الدرجة الأولى يومياً، هذا العنبر لا ترى فيه أحدًا، لاعن يمينك ولا عـن يسارك إلا مـن الفتحة الموجودة في البـاب، عليها شبك حديد ومغطـاة بالزجاج إن أردت الكلام ترفـع صوتك كثيراً وتقترب من الباب؛ حتى تستطيع أن تسمع الآخرين.

لكـن سكان هذا العنبر مع كل هذه القيود والتضييقات يصلون الصلوات الخمس جماعة ويتناقلون الأحاديث والأخبار بينهم كبقية العنابر، كانت عنابر الدرجة الأولى فيها امتيازات وتسهيلات، وهذا العنبر وما شابهه فيه عقوبات.

بقيت في هذا العنبر خمسة أيام، ثم نُقلت إلى عنبر آخر مفتوح وغـير مغلق، لكـن الناس فيه تسمــع منهم ويسمعون منــك، الأمور هنــا أفضل بكثير من العنابر المغلقة، بقيـت في هذا العنبر شهرين تقريبــاً، لكـنّ هذا العنــبر لم يكن مستقراً، بل كانــت فيه مشكلات وعقوبــات كثيرة على السجناء، بعد وصولي لهــذا العنبر بعدة أيام حدثت بين بعض السجناء والحراس مشكلات وقاموا برش الحارس

بالماء وبعضهم بصق عليه، على أن بعض جيراني قام وشارك في هذا العمل ضد الحارس.

ذهب الحارس وسجل أرقام الغرف التي خرج منها الماء والبصاق، لكنه سجل أيضاً أرقام غرف لم ترش الماء أو البصاق، ومنها رقم غرفتي، قلت للحارس: إن غرفتي لم يخرج منها شيء لكنه لم يلتفت لكلامي، لقد سجل علي العقوبة، هذه العقوبة الجديدة تعني أنني سأجلس شهراً آخر زيادة على الشهر الأول، الذي كان سببه العقوبة التي نقلتني من عنابر الدرجة الأولى إلى السجن الانفرادي، ثم إلى هذا العنبر.

انتظرت حتى الليل مرَّ ضابط على عنبرنا، فأخبرته أن الحارس سجل علي عقوبة دون عمل أي مخالفة، وشرحت له ما حدث، ومن ثم قام الضابط وسجل ما قلته له وقال: سأبحث الأمر، ظهر لي أنه بحث الأمر وساعدني وألغى العقوبة، بقيت في هذا العنبر لكن ازدادت مشكلاته، وذلك احتجاجاً على معاملة الحراس للعنبر المجاور لنا، العنبر المجاور لنا سكانه (السجناء) فيه يعيشون من دون سراويل طويلة، من دون (بناطيل).

عنبر اللباس الرياضي

إن سكان العنبر المجاور لنا يعيشون طيلة الوقت باللباس الرياضي يأكلـون، ويشربـون يجلسـون وينامـون، حتـى إنهم يصلـون بهذا اللباس، يذهبـون للتحقيق، يخرجون للاغتسـال والمشي والرياضة بهذا اللباس، كل سجين في هذا العنبر- عنبر اللباس الرياضي- لا يملك في غرفته إلا هـذا اللباس وفانيلة حمراء نصف كم وشبشبًا، بالإضافـة إلى قطعة الإسفنج التي يصلي ويجلس وينام عليها، هذا الـذي يملكه كل واحد منهم، إنهم أقل الدرجات حتى الآن في جميع السجـن، لا يوجد أقل منهم منزلة في جميع أهل هذا المعتقل الكبير (معتقل جوانتنامو) لا يوجد معهم منشفة ولا بطانية.

إن البطانيـة يسلمهـا الحراس لهـم الساعـة العاشـرة ليلاً، وتسحـب منهـم قبل صـلاة الفجر، أمـا المنشفة فتعطـى لهم عند الخروج للحمـام، وبعد انتهاء الحمام تؤخذ منهم، أما الغرف التي

يعيشـون فيهـا فجدرانها مغلقة، والشباك الوحيـد والخلفي للغرفة يفتـح عليهم في النهار فقط، أما في الليل فيغلقونه، وجدران الغرفة عن اليمـين والشمال شبك وفوق الشبك لوح مـن أعلى الجدار إلى أسفله يمنع الرؤية بين الغرف، ويمنع الهواء ويمنع توصيل أي غرض بين السجناء.

أمـا مـن الأمام، حيـث واجهـة الغرفة التـي يمر مـن أمامها الحراس في العنبر فهي لوح زجاج فوق الشبك، هذا اللوح الزجاجي يمنـع السجين من رش المـاء أو البصاق أو... علـى الحراس، لكنه يمكّن الحراس من رؤية ما بداخل الغرفة، هذه الحالة التي يعيشها سجنـاء هـذا العنبر (عنـبر اللباسـ الرياضي) جعلـت كثيراً من العنابـر تتضامن معهم وتقوم بعمل إضرابـات عن الطعام أو تقوم برشـ المـاء والشـاي والحليـب أو البصـق عليهم، وعـدم الخروج للتحقيـق أو للمشي والاغتسال وحتى الخروج للعيادة والطّبيب، كان بعضهم لا يذهب إليها.

هذه الأعمـال والاحتجاجات كانت بسبب الحالـة التي يعيشها أهل عنبر اللباس الرياضي، زيادة على هذه الاحتجاجات أضافت بعض العنابـر احتجاجاً آخـر وهو تقطيع أطباق الطعـام وكاسات الشاي والحليـب وتقطيـع بقايا الفواكـه بعد كل وجبة مـن وجبات الطعام الثلاثـة، الصبح والظهر والمغرب، وتقطيع هذه الأطباق كان يحدث

أحيانـاً مرتين بعـد كل وجبة مـن الوجبات الثلاثـة، وذلك لإتعاب الحراس ومضايقتهم بهـذا التقطيع؛ حتى يرفعـوا ما يلاقونه من مشكلات في هذه العنابر إلى المسؤولين عنهم؛ لعل المسؤولين يغيرون أو يبدلـون في نظام وحياة عنبر اللباس الرياضي، بحيث يرجع إلى حالته الأصلية.

كان السجنـاء يتسلمون الطعام والشراب في أطبـاق وكاسات وبعد الانتهاء مـن الأكل يقومون بتقطيع نصف هـذه الأطباق والكاسات قطعـاً صغيرة جـداً وإلقائها في أرض العنبر متناثـرة هنا وهناك، فيقوم الحراس بتنظيف أرض العنبر بالمكانس ثم بالماء؛ ظناً منهم أن السجناء ألقوا كل الأطباق والكاسات ولم يبقَ عندهم منها شيء ليقطعوه.

وفي نهايـة وقت هذه المجموعة المناوبـة وقبل خمس دقائق من نهايـة وقتها يقوم السجنـاء بتقطيع النصف الثـاني المتبقي معهم مـن الأطباق قطعاً صغيرة، وحتى بقايـا الفواكه أو قشور البرتقال يقطعونها قطعاً صغيرة جداً ويلقونها على أرض العنبر متناثرة من أولـه إلى آخـره، مما يجعـل الحراس أكثر غضبـاً وغيظاً من المرة الأولى؛ لأن هذا يعني أن يبقى الحراس وقتاً أطول من وقتهم الأصلي من أجل تنظيف العنبر ولا يستطيعون ترك العنبر دون تنظيف؛ لأنه يجب علـى الوردية والمجموعـة أن يتركوا العنبر عنـد نهاية الوقت

نظيفاً كما تسلموه نظيفاً.

هذه المخالفات التي يقوم بها السجناء تجعل العقوبات تتجدد عليهم عند عمل كل مخالفة وتضاف العقوبة الجديدة إلى المدة الأصلية التي سيقضيها السجين في هذا العنبر، وهذا يعني زيادة الشهور والأيام التي يقضونها في هذا العنبر[1].

ازدادت المشكلات في هذا العنبر، الذي أسكن فيه وفي غيره من العنابر؛ احتجاجاً على ما يجري لإخوانهم في عنبر اللباس الرياضي، بدأ السجناء باحتجاج آخر وبعصيان آخر، وهو من أخطر أنواع الإضراب والعصيان في السجن، هذا الإضراب والعصيان هو رفض الخروج إلى التحقيق، أو إلى المشي والرياضة والاغتسال، وحتى رفض الخروج من الغرفة من أجل تفتيشها من قبل الحراس، هذا الإضراب والاحتجاج مهم وخطير لماذا؟؛ لأنه يعني أن الهدف الذي من أجله جمعت الولايات المتحدة هؤلاء السجناء قد توقف، وهو التحقيق وجمع المعلومات منهم، المعلومات عن تنظيم القاعدة وحركة طالبان، وعن التدريب والمعسكرات، والمعلومات عن أمور كثيرة.

لكن هذا لا يمكن أن تتساهل فيه إدارة السجن، أو الجهة التي أنشأت هذا المعتقل الكبير وأنيطت بها مسؤولية كل كبيرة وصغيرة فيه، إذاً لا بد من إخراج هؤلاء المضربين من غرفهم إلى

غرف التحقيق بالقـوة، كان الحراس يأتون إلى السجين الذي عليه التحقيق، فيقولـون له: عندك الآن تحقيـق، فيجيبهم السجين: لَنْ أخـرج إلى التحقيق، فيأتي مسؤول أكبر مـن الحارس الأول لإقناع السجـين أن يخـرج إلى التحقيق وأن هذا الخـروج إلى التحقيق هو الطريق الأسـرع والأنجح لخروجك من السجـن، ورفض خروجك للتحقيـق يعنـي أنك ستمكث وقتـاً أطول في السجـن، لا بد لك من الإجابة عن أسئلة المحقق، لا بد لك من إنهاء كافة المشكلات والأمور الموجودة في ملفك أو قضيتك.

فرقة مكافحة الشغب

إن السجين الآن إما أن يقتنع بالخروج أو يصر على عدم الخروج، فإن أصر على موقفه، وهو عدم الخروج إلى التحقيق، جاءه ضابط ليقنعه بالخروج، وإذا رفض الخروج، يخبره هذا الضابط بأنه سيضطر إلى أن يرشه بالغاز المسيل للدموع أو غاز آخر لتدويخه، وسوف تحضر قوات مكافحة الشغب، وتدخل على هذا السجين عنوة، يحضر الضابط المسؤول عن رش هذا الغاز، ومعه مجموعة طبية (٣-٤) أشخاص، طبيب ومساعد و... ليشرفوا على عملية رش الغاز، فهي ليست قاتلة، وإنما هي لتدويخ السجين وإجباره على الخروج، ولمساعدة قوات مكافحة الشغب في الدخول عليه وتقييده؛ حتى لا تحدث من السجين مقاومة أو مضاربة مع قوات مكافحة الشغب.

يقوم الضابط برش الغاز على السجين، ويطلب منه النوم على بطنه على الأرض، ووضع يديه خلف ظهره، يفتح الحارس باب

الزنزانـة وتدخل عليه قوات مكافحة الشغب، يطلب من السجين ألا يقوم بأي حركة أو مقاومة؛ حتى لا يتعرض لأذى من قوات مكافحة الشغب في أثناء اقتحام الغرفة أو في أثناء تقييده.

شاهدت هذا الاقتحام مرة، بل عشرات المرات، تدخل جماعة مـن قوات مكافحة الشغـب إلى الغرفة المكونة من خمسة أشخاص، جميع بدن الشخص منهم محصن من رأسه إلى قدمه، مجهز ضد أي اعتـداء خارجـي يتعرض له، يدخلون بسرعـة على السجين بعد رشه بالغاز، ويقيدونـه في يديه ورجليه، ثم يحملونه على أكتافهم، إما يحملونه بالنقالة كنقالة الجرحى، والمرضى، وإما يحملونه على أكتافهـم دون أي شـيء، وتكـون السيارة، خـارج العنبر تنتظرهم، يطلبـون من المعتقل أن يمشي على قدميـه إلى غرفة التحقيق، فإن أبـى حملته السيارة وإذا جلس علـى الكرسي أمام المحقق في غرفة التحقيق، وطلب منه المحقق أن يتكلم ويجيب عن الأسئلة امتنع عن الكلام، حتى لو سأله عن اسمه واسم بلده وعمره لا يتكلم.

عـدم الكلام مع المحقـق، وكما سمعت من كثير مـن السجناء أنـه محق في عدم الـكلام والإجابة عن أي سؤال مـن المحقق؛ لأنه أجاب عن مثل هذه الأسئلة مرة، بل مرات، فلماذا إذًا هذا التكرار، إنـه يقول للمحقق حينما يسأله عن سؤال تكرر:إن الإجابة عن هذا السـؤال قد سبق أن أجبتك عنها، فلماذا تعيد علي هذا السؤال لقد

سمعت أن بعض المعتقلين لم يتكلم في التحقيق منذ شهور، وبعضهم منـذ سنة، إنهم يأخذونه إلى التحقيق، ثم يرجع إلى غرفته دون أن يتكلم أي كلمة لكن بعد أن يتركه المحقق يجلس على كرسي التحقيق ساعـات طوال ربما تمتد إلى عشر ساعـات أحياناً؛ ليكون نوعًا من العقوبة له.

إن العقـاب بدأ يتغـير ويتشدد علـى هؤلاء المعتقلـين، لقد بدأ العقـاب يمس جوانب الدين ويتحدى مشاعـر المعتقلين الإسلامية، ولمـا رأت إدارة السجـن أن العقوبات التي تنزلهـا بالمعتقلين لا تؤثر فيهـم بـدأت تزيد في هذه العقويـات؛ لعلها تخيفهـم وتوقفهم عند حدهم من أجل أن يلتزموا بقوانين السجن ويطبقوا أوامر المحققين ومتطلباتهم، إن خروج المعتقل من غرفته برغم أنفه عن طريق رشه بالغاز، ثم دخول فرق الشغب عليه وإخراجه عنوة من غرفته مقيداً ومحمولاً على ظهور رجال فرقة مكافحة الشغب قد ظهر أنه لا يكفي عقاباً للمعتقل.

ومن ثم بدأت إدارة السجن بزيادة عقاب آخر على هذا العقاب وهو حلق لحيـة المعتقل وشاربه ورأســه دون إرادته، بل برغم أنفه، فبعـد إخراجه من غرفته بواسطة فرقـة مكافحة الشغب إلى مكان الرياضة والمشي يتقدم إليه الحلاق ويحلق له لحيته وشاربه ورأسه، ثم يرجعونه إلى غرفته وقد تغير شكله وتبدل حاله وهذا مما يضايق

الكثيريــن ويزعجهم، بل يضايق الجميع؛ لأن اللحية في الإسلام لها معنــى خاص، ولها حكم الوجوب من حيــث الحل والحرمة، كما أن لها معنى كمال الرجولة، وعدم التشبه بالنساء أو الكفار، حتى عند المسلمــين غير الملتزمين وإن لحى الكثيرين مــن المعتقلين لم يمسها موسى الحلاقــة ولا شفرة الحلاق منذ عشرات السنين، بل منذ أن نبتت لحيته في وجهه لم يحلقها حتى ولو مرة واحدة.

لكــن كان عــزاء الكثيرين منهــم أنهــا حلقت برغــم أنوفهم، وحلقت في سبيل نصــرة إخوانه، ومن أجل الوقوف بجانب معتقلين يعدونهم مظلومين من قبــل إدارة السجن، وهنــاك نوع من العقوبة، وهــو أن يفتــح المحقق جهاز التكييــف بقوة على المعتقــل طوال هذه المــدة، وهنــاك عقوبة أخرى لمن يرفضــ الكلام مع المحقق، وهي أن يؤخذ السجين إلى غرفة التحقيق يومياً، أو يوماً بعد يوم أو بين حين وآخــر ويترك في غرفــة التحقيق على الكرسي ساعــات طوالاً، دون أن يحضــر المحقق إلى غرفة التحقيق، وبعد مرور الساعات الطوال يقوم الحراس بإرجاع المعتقل إلى زنزانته.

غرفة الحب

إن حمل السجين من غرفته إلى غرفة التحقيق عنوة، عملية لم تستفد منها إدارة السجن؛ لأنها كانت تبغي إخراج السجين من غرفته إلى غرفة التحقيق من أجل أن يتكلم ويجيب عن أسئلة المحقق، فما دام إذاً لم يتكلم، فهذه الطريقة لم تعد ذات فائدة، وعليه فلا بد من الضغط أكثر على السجين؛ حتى يتكلم، كما أنه يجب استعمال طرق أخرى، لا بد من كسر هذا الصمت أو لا بد من إفشال هذا الإضراب، بدأت تحدث في غرف التحقيق حوادث غريبة، كما نقل ذلك بعض السجناء، مثلاً بعض السجناء رفض الكلام مع المحقق، فتقدمت نحوه فتاة شبه عارية لتثير غرائزه الجنسية، رفض الكلام معها، أو حتى النظر إليها، تقدمت نحوه أكثر حتى كادت شفتاها تمس شفتيه، إنها تريد تقبيله لزيادة إثارته، إنه لا يستطيع الهرب منها؛ لأنه لا يستطيع دفعها عنه بيديه؛ لأنه مقيد اليدين والرجلين، ورجلاه مقيدتان بحلقة مثبتة في الأرض.

يبدو أن الكاميرا تصور ما يحدث، حتى تخرج له الصورة، أو حتى تخرج لأصحابه، ويقولون لهم: انظروا ماذا يفعل صاحبكم، لم يجد هذا المعتقل المقيد طريقة ليصرفها عنه، فماذا يفعل، فما كان منه إلا أن قام وتنخم وبصق عليها، عندئذ انصرفت عنه وخرج المعتقل ناجحاً في الاختبار.

نشرت جريدة الواشنطن بوست تقريراً من وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون- وهذا الخبر نشرته وسائل الإعلام، بأن مجندات في الجيش الأمريكي يستخدمن جنسياً؛ لانتزاع الاعترافات والأقوال من المسجونين المسلمين في معتقل جوانتنامو- كوبا- وكل من في المعتقل المذكور هم من المسلمين الذين اعتقلتهم أمريكا أو أحد أصدقائها (كما تسمهم) بتهمة أو بحجة محاربة الإرهاب.

وقد قام محامون غربيون موكلون بالدفاع عن بعض المعتقلين من بلاد عربية (في جوانتنامو) بالمرافعة في هذا والاعتراض على هذه الممارسات التي تقوم بها المجندات بتوجيه وأمر من وزارة الدفاع، وأن هذا يتنافى مع مبادئ الدين الإسلامي، وأن هذه الممارسات التي تستخدم وسيلة ضغط على المعتقلين لانتزاع الاعترافات منهم، تتنافى مع الحرية التي يجب أن تُمنح للسجين للإدلاء بأقواله، وتتعارض مع الطريقة التي يجب أن يكون عليها سير التحقيق مع هؤلاء المعتقلين، وغرف التحقيق التي تجري فيها مثل هذه التحرشات تعرف بين المعتقلين باسم غرفة الحب.

لقد قامت إحدى المحققات بعمل مشين، طلبت من المعتقل أن يتكلم، لكن السجين ليس عنده ما يقوله، لا جديد لديه، فقامت هذه المحققة وأخذت شيئاً من دم حيضها على إصبعها وهو ينظر ما عساها أن تفعله، لكنها أخذت دم الحيض من عورتها ووضعته على رقبته، ولما جاء سجين آخر قالت له: أتتكلم أم أضع عليك الدم كما وضعته على صاحبك؟ سجين آخر دخل على المحقق وأمام المحقق مسجل كبير وأشرطة كثيرة، قال المحقق: أتحب الغناء والموسيقى، هيا وفتح له أغنية عربية وليست عربية فقط بل أغنية من بلده، السجين لا يريد ذلك، وما عساه أن يفعله إلا أن ينكر هذا الفعل بقلبه ولسانه.

وسمعت أن أحد المعتقلين لما اقتربت منه الفتاة وحاولت أن يمس وجهها وجهه وهو مقيد بالأرض، ضربها برأسه؛ لأنه لم يجد إلا الضرب وسيلة لدفعها عنه، وحدث مرة ما هو أكثر من ذلك وتناقله السجناء من عنبر لآخر وحدثت له ردود فعل في كافة أرجاء المعتقل؛ احتجاجاً على ما حدث، وهو ما يأتي:

إن أحد السجناء رفض الكلام مع المحقق، وحاول المحقق أن يكسر صمت السجين بكل محاولة، فلم يستطع مما أغاظ المحقق وأغضبه بدرجة كبيرة، عندها قال المحقق للسجين: إن هذا القرآن هو أقدس شيء عندكم، إذا لم تتكلم فسوف أضعه تحت قدمي

وأدوس عليه الآن أمام عينيك لم يهتم السجين المقيد اليدين والرجلين بالأرض لهذا التهديد، فلم يتكلم، أراد المحقق أن ينفذ ما هدّد به، فحمل المحقق المصحف الشريف ووضعه على الأرض، وداس عليه بقدمه، حصلت مشادة كلامية ومشاتمة بين السجين والمحقق على هذه الفعلة الشنيعة.

إن حكم الشريعة الإسلامية على من فعل هذا الفعل هو: الكفر والخروج من دين الله، لكن المحقق أصلاً ليس مسلماً ولا يحتاج أن تطلق عليه هذا الحكم ولا ينتظر أن تحكم عليه بهذا الحكم ولا يهمه من قريب أو بعيد أن تسمعه هذا الحكم، ولم يكتفِ المحقق بما فعل وأغاظه موقف السجين الصلب الذي ربما لم يعهده من قبل على سجين، فما كان من المحقق إلا أن قام وأحضر العلم الإسرائيلي، وقام بلف جسم هذا السجين وتغطيته من جميع الجهات بالعلم الإسرائيلي، طبعاً السجين لا يستطيع منع المحقق مما فعل؛ لأنه مقيد الجسم، والجسم مقيد في الأرض، هذا الفعل الذي فعله المحقق كانت له ردود في كافة أنحاء السجن.

من هذه الردود إضرابات عن الطعام بين السجناء مددًا متفاوتة، استمر بعضها شهوراً، وسباب وشتائم بين السجناء والحراس، ورش الحراس بالماء والشاي والحليب وربما بالبول والغائط، والبصق على الحراس، والإضراب عن الخروج إلى التحقيق والاغتسال

والمشـي والرياضة، شعرت إدارة السجن بهذه الردود والاحتجاجات وأوقعتهـا في حـرج، خاصـة أنها تريـد أن تظهر بأنهـا تحافظ على احترام معتقدات السجناء ومشاعرهم، وأن التحقيق يجري بطريقة ديمقراطية وأن السجين حرٌ في كلامه في التحقيق.

الآن إدارة السجن لا بد أن تنهي هذا الحدث وردود الفعل عليه فأرسلـت مسـؤولاً كبيراً للتفاوض مع المضـربين، قال لهم: إن هذا المحقق قام بهـذا العمـل- إهانة المصحف- ولف العلم الإسرائيلي علـى جسم السجين دون قصـد، وكان في حالة عصبية شديدة وأنه فعل هذا الفعل من نفسه دون أن يأمره أحد، إنه هو المسؤول عن هذا الفعـل وهذا الفعل ليس مخططاً له من قبـل إدارة السجن، وسوف تقوم إدارة السجن بالتحقيق مع هذا المحقق وإعفائه من التحقيق.

هنـاك سجين آخر رفض الكلام في التحقيق، فأحضر له المحقق جهاز تسجيل كبـيرًا مرتفع الصوت، يخرج أصواتاً شديدة مزعجة حينـاً، ويسكت حيناً آخـر، وبعد الهدوء والسكون يفاجئك على حين غـرة بصوت صاخـب، ومحقق آخر أحضر لسجـين لا يتكلم جهازًا يحدث إضاءات شديدة وبرقًا يخطف الأبصار.

محقق آخر يعرف أن هذا السجين لا يحب الموسيقى، فيفتح له المسجـل على الموسيقى أو الأغاني العربيـة أو غير العربية، ومحقق

آخر يقول لأحد السجناء الذي امتنع عن الكلام: لو كان الأمر بيدي لأطعمت كل سجين منكم كل يوم ساندويتش لحم خنزير.

لقد سمعت أن إدارة السجن قد استعانت بالسحرة والمشعوذين في غرف التحقيق ضد بعض المعتقلين، قال: لما جلس المعتقل على الكرسي أمام المحقق في غرفة التحقيق بدأ هذا الشخص يتمتم بكلام ويحرك شفتيه وعينيه نحو المعتقل المقيد ويشير بحركات بيديه يميناً وشمالاً وأعلى وأسفل ويعمل بيده دوائر في الهواء، ويقوم بعملية نفخ ونفث نحو هذا المعتقل المقيد الجالس، فأدرك المعتقل ما يريده هذا الساحر، فبدأ يقرأ آيات من القرآن الكريم وأدعية من كلام الرسول ﷺ ويستعيذ بالله العظيم من كيد هذا الساحر وشعوذته.

وهناك محققون من نوع آخر، يقومون بإحضار ساندويتشات بيتزا وأنواع كثيرة من الأطعمة والعصيرات؛ حتى تكون هذه المائدة فاتحة للشهية، ومشهية للكلام مع السجين، أو حتى تكون طريقاً لدخول المحقق لقلب السجين ونفسه من جهة الطعام، فيحضر له ما يطلبه من المطاعم والمشارب.

وسمعت من بعض السجناء أنه كان يشترط على المحقق أنه لن يتكلم في التحقيق؛ حتى يحضر له أنواعاً معينة من الطعام

والشراب، وفعلاً يقوم المحقق بإحضار ما يطلبه السجين، وبعد أن يأكل السجين الطعام الذي طلبه ربما يتكلم، وربما لا يتكلم.

ويعود السجين إلى غرفته بسلام.

إن الكلام عن السجن ومشكلاته متشعب، وكلما حاولت حصر الكلام في اتجاه واحد وزاوية واحدة، خرجت عليك الأفكار والقصص والحوادث من هنا وهناك، فتضطر أن نسجلها قبل أن تفلت من أذهاننا.

مضت الأيام ومشكلات هذا العنبر تزداد يوماً بعد يوم، وأنا شخصياً لا أحب عمل المشكلات مع الحراس ومع المحققين، أنا لا يوجد عندي ذنب أو تهمة أخاف منها، لقد اعتقلوني ظلماً وزوراً، تركت خلفي عائلة مكونة من تسعة أفراد ليس لهم بعدي عائل إلا الله، ليس لي علاقة لا مع تنظيم القاعدة ولا مع حركة طالبان ولا حتى مع الأمريكان، وحتى الذين لهم علاقة مع القاعدة أو مع طالبان، ليست هذه هي الطريقة الصحيحة التي تفتح لهم أبواب السجن أو تعيدهم إلى أهاليهم وبيوتهم، كنت لا أرى ما يفعله الكثير من السجناء صحيحاً، ولا يخدم قضيتهم وينهي مشكلتهم، وينظف ملفاتهم في التحقيق.

كنت حريصاً على الخروج من هذا العنبر؛ لأن العقوبات تزداد يوماً بعد يوم عليك، وتنزل على اسمك، سواء شاركت في المخالفات

أم لم تشارك، صحيح أن بعض احتجاجات السجناء، وردود أفعالهم على ما يجري لهم صحيحة، لكن لهم أيضاً احتجاجات أخرى غير صحيحة، ولا تسير في طريقها الصحيح، أو أن أسلوبها ليس بالأسلوب المناسب لهم، إذ إنهم سجناء لا يملكون من أدوات التغيير شيئاً، إنهم سجناء أولاً وإنهم سجناء عند قوم يقولون عنهم: إنهم أعداء لهم لا يحبونهم، إن كثيراً من طرق العلاج التي كان يسلكها السجناء لتصحيح أوضاعهم أو تخفيف العقوبات عنهم أو الاستعجال في إنهاء محنتهم في السجن، لم تكن صحيحة، بدليل أن كثيراً ممن كان يقوم بهذه الاحتجاجات وردود الأفعال أدرك أنها احتجاجات تسير في مسار غير صحيح.

ولم يكتفِ هذا الشخص بأن يترك هو هذه الاحتجاجات أو بالسكوت عمن يفعلها، بل بدأ ينكر على من يفعلها؛ لأن كل سجين يحلم أو ينظر إلى اليوم الذي تفتح له أبواب السجن ويعود إلى أهله، لا يوجد أحد من السجناء يريد أو يحب أن يبقى يوماً واحداً في السجن، لذلك أدرك الكثير من السجناء أن سير التحقيق عنده قد توقف وأن كثيراً من القضايا التي لا بد أن ينهيها أو يجيب عنها في التحقيق ما زالت عالقة وباقية، أدرك أنه لا بد أن يتجاوب مع المحققين، خاصة وأن قضاياه التي سيجيب عن أسئلتها ليست ذات أهمية.

الحاجة أم الاختراع

إن المعاقبين في عنابر الدرجتين الثالثة والرابعة، لا يحق لهم أن يستلموا معجوناً وفرشاة للأسنان والصابون، ولا يسمح لهم باستعمال كأس أو كوب الماء، لكن يوجد عادة في العنبر أناس في الدرجتين الثالثة والرابعة غير معاقبين، إنهم في مراحل تؤهلهم للخروج من حالة العقاب التي يعيشون فيها، وهؤلاء عادة يمكنهم أن يزودوا بقية السجناء بما يحتاجونه من المعجون وفرشاة الأسنان والصابون؛ لأنهم غير معاقبين، لكن كيف سيوصلون هذه الأغراض إلى غيرهم من المعاقبين، إن الحارس لا يوافق على حملها وإرسالها إليهم؛ لذلك لا بد من استعمال طريقة أخرى لتوصيلها، إنهم يوصلونها بطريق الخيط، ما هذا الخيط ومن أين يحصلون عليه؟ يحصلون عليه من المنشفة التي توجد مع كل واحد منهم، إنها عبارة عن نسيج خيوط كثيفة مع بعضها بعضاً، فيقومون بأخذ

خيط طويـل منها، فإذا كانـت الغرف التي يريـدون الإرسال إليها في الجهـة نفسهـا التـي توجد فيها هـذه المواد فهـذا سهل، فيكون الإرســال والتوصيل عـبر الشبك من سجين لآخـر، حتى تصل إلى الغرفـة المطلوبـة، وإذا كانـت الغرفـة المطلوبة في الطـرف الآخر، الــذي يفصل بينهـم وبينها الممر، الذي عرضه مـتران تقريبًا، فلا بد من استعمــال الخيط، حيث يربطون المواد التي يريدون إرسالها إلى الغرف المعاقبة بطرف الخيط الموجود معهم من داخل الغرفة، وطـرف الخيط الآخر يجمعونه حتى يكون شكله مثل حبة الحمص، ثـم يحاولون قذفه عبر شبك غرفتهم، قد يرتطم ويصطدم بشبك غرفتهـم أول مرة أو التي بعدهــا فيسحبونه، ثم يحاولون قذفه من جديـد المرة، تلـو المرة حتى يخرج من شبك غرفتهـم، بقي الآن أن ينفذ من شبك الغرفة المقابلة، قد يصطدم الخيط (الكرة) بشبك هذه الغرفة بعد أن يقذف من الغرفة التي فيها المواد.

يحاول الشخص قذفـه عدة مرات حتى يمر الخيط من شبك غرفته، ومن شبك الغرفة المقابلة التي نريد إرسال المواد إليها، إذا وصل الخيط (الكرة) إلى الغرفة المقابلة ودخل إليها قام الشخص الموجود في الغرفة وسحب الخيط (الكرة) الذي طرفه بيده وطرفه الآخـر في الغرفة المقابلة التي يوجد فيها المواد، يبدأ بسحب الخيط إليـه مـع المواد المربوطة بطرفـه- فرشاة أسنــان أو معجون أسنان

وصابون - تصل إليه المـواد، فيفكها ويأخذها، وهكذا يفعل المعتقل كلمـا أراد إرسال مواد عبر شبك الغرف بهـذا الخيط هو أو غيره؛ لأن الخيط متوافر مع كل واحد.

تمر الأيـام وأنا موجود في هذا العنبر، وهـو أكثر عنبر سكنت فيـه وحفل بعقوبات ومشـكلات مع الحراسـ، وفي صبيحة يوم من الأيام جاء الحراس وقالوا لي: [عليك تحقيق، لكن بعد ساعتين هذا اليـوم] عادة الحراس لا يخبرون أحداً بموعـد تحقيقه، إنما يأتون إليـه فجأة ويطلبون منـه أن يذهب معهـم إلى التحقيق فوراً، لكن حالة العنـبر التي كان يرفض فيها السجنـاء الذهاب للتحقيق، ثم الدخول على الغرف بواسطة فرق مكافحة الشغب، جعلتهم يخبرون الأشخاص الذين عليهم تحقيق قبل موعد تحقيقهم بساعتين، حتى إذا رفض السجـين الذهـاب إلى التحقيـق يرتبـون ويحضرون له فرقة قوات مكافحة الشغب؛ حتى تقتحم عليه غرفته، جاء الحراس وخرجـت معهم إلى التحقيق، ودخلت إلى غرفـة التحقيق فإذا بها جهاز كمبيوتر، وجهاز آخر لا أعرفه، ولم أره من قبل.

جهاز كشف الكذب

علاوة على جهاز الكمبيوتر والجهاز الذي لا أعرفه هناك مجموعة أسلاك، وقد ظهر لي أن شكل هذه الغرفة ليس شبيهاً لشكل غرف التحقيق التي عهدناها من قبل، جلست أو أجلسني الحراس على الكرسي، جاء المترجم قبل المحقق على غير العادة، وقال: سوف نعرضك على جهاز كشف الكذب في هذه الجلسة، بدأ يشرح لي المترجم طريقة عمل هذا الجهاز، وأخبرني بالأسئلة التي سيسألني عنها حتى أحضر لها الأجوبة، وقال: إن هذا الجهاز يعمل بنبضات القلب وعلى الحالة النفسية والعصبية للمسجون، ويجب عليك ألّا تحرك أي جزء من أجزاء جسدك في أثناء الاختبار، وطرح الأسئلة التي سوف تجيب عنها إنما تكون الإجابة عنها مختصرة، بكلمة واحدة نعم أو لا، تكون الإجابة عنها ليس بشرح مطول أو بتفصيل أو تعليل، هذا كان كلام المترجم لي، ويبدو من لهجته أنه

من بلاد المغرب العربي. بعد قليل جاء شخص آخر وجلس مقابلي، وقريـب مني، وبدأ يشرح طريقة عمل هـذا الجهاز، وأنه أدخل إلى المحاكم وبدأ العمل به للكشف عن المجرمين وعن الحالات الغامضة التـي لا يعـترف أصحابها بجرائمهـم، ويعمل بـه الآن في الولايات المتحـدة الأمريكيـة بشكل رسمي، وأنا متخصصـ في هذا الجهاز، ولا يستطيـع أحـد أن يعمل عليه، وجئت من أمريـكا من أجل العمل عليه هنا في معتقل (جوانتنامو) وأنا قد قرأت ملفك وسير التحقيق معك، وعرفت أنك إنسان متعلم ومثقف؛ لذلك سوف نستريح معك وبدأ يشرح لي عمل هذا الجهاز وأنه يعمل على النبض ودقات القلب والحالة النفسية والعصبية والمزاجية لمن يجري عليه الاختبار، وبدأ يذكر لي الأسئلة التي سوف يسألني عنها، وأجرى لي تمرينًا وتدريبًا على هذه الأسئلة- قبل أن يصل أسلاك الجهاز بجسمي.

وبعـد أن أعطاني تدريبًا على الأسئلة، قام وأوصل اليد اليمين، ثبت الأسـلاك في إصبعين الإصبع الأول السبابة (إصبع التشهد في الصـلاة) والإصبع الثـاني الخنصر، الإصبع الـذي يلي الوسطى، واليد اليسرى ثبت الأسلاك في الإصبعين نفسيهما كما ثبت أسلاكاً أخـرى في عضدي- عضدي الأيسر وثبتها أيضاً في مكان ثالث على الصـدر فوق القلب وقـال: اجلس جيداً واتكئ علـى الكرسي وارفع رأسـك وانظـر إلى نقطة معينة على الجـدار أمامك، ولا تنظر إلى

غيرهـا ولا تتحـرك أي حركـة. إن عمـل أي حركة تفشـل الاختبار وتغـيـر في النتيجة الصحيحـة التي نريد أن نصـل إليها، وقال: هل أنت جاهز؟ وبدأ يسأل الأسئلة الآتية:

١- هل عملت عملاً مشيناً يسبب العار لك أو لأهلك؟

٢- هل تطيع أوامر القرآن الكريم إن أمرك بأي أمر من الأمور؟

٣- هـل سبـق وشاركـت في عمل ضـد مصالـح الولايـات المتحدة الأمريكية، أو ضد حلفائها؟

٤- هـل تنوي القيام بعمل ضد مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، أو ضد حلفائها بعد خروجك من السجن؟

٥- هل سبق أن خالفت أمراً من أوامر القرآن الكريم؟

٦- هل ستقوم بتحريض وعداء لمصالح أمريكا، أو مصالح حلفائها في أفغانستان؟

٧- هل أنت جالس على الكرسي؟

٨- هل الكهرباء مضاءة؟

٩- هـل أنت عضو في الجماعات الإرهابيـة الآتية: تنظيم القاعدة، حركة طالبان، الحزب الإسلامي الأفغاني، الجماعة الإسلامية،

جماعــة الجهاد، جماعــة الزرقاوي، وذكــر لي أسماء أكثر من عشــر جماعات، نسيتها، فيما إذا كنت عضواً فيها أو في أحدها والأسئلــة التي سألني عنها أكثر من هذه، لكنني نسيت ما تبقى من أسئلة، أجرى الاختبار وكرره وأعاده علي ثلاث مرات.

بعد الانتهاء من الاختبار قلت للمسؤول عن هذا الجهاز (والذي أجــرى لي الاختبار): ما هي النتيجة لو سمحت؟ قال: أنا لا أعرف، الاختبــار هذا سيرســل إلى واشنطن وهم الذيــن يقررون ويعرفون النتيجــة، أنا لم أكــترث كثيراً بكلامه؛ لأنهم قــد يخبرون بالنتيجة بعــد الانتهــاء من الاختبار، كمــا سمعت من بعضــ السجناء وقد لا يخبرون، كما حدث معي ومع غيري.

والأسئلــة التي طلب مني الإجابة عنها، ليست هي الأسئلة التي يسألها لكل سجين، الأسئلة التي توجه لكل سجين تختلف عن الأسئلة التــي توجه لسجين آخر، الأسئلة تكون حسب الثقافة، وحسب العمل والمهنة وحسب سير التحقيق مــع الشخص، وحسب المشكلات التي كانــت تحصل في غرف التحقيق بــين السجين والمحقق حسب التهم الموجهة لكل شخص تنسجم مع عمره وتطلعاته وأهدافه، تتوافق مع التزامــه وسلوكه مع شخصيته وسيرة حياته، ونظافة معاملته، ومع أمــور كثيرة أخرى قــد لا نعلمها نحن، هكذا يبدو ويظهر من مجمل الأسئلــة التي وجهوها وسألوها إلى كثــير من السجناء ممن جربوا

هــذا الجهــاز، وممن سمعتهم يتكلمــون عن هذا الجهــاز وأسئلته. إن الأسئلــة التــي أجبت عنها مبشرة من حيــث نوعيتها، ومن حيث نتيجتهــا، حقيقة أنا استبشرت خــيراً بالأسئلة والأجوبة، لقد كانت أعصابــي كأنهــا في ثلاجة، كنت مطمئناً إلى قــدر الله -عز وجل- واثقاً أن فرج الله قريب.

سمعــت مــن الكثيرين مــن السجنــاء أنهــم رفضــوا الجلوس والاختبار على هذا الجهاز، وقالوا: إنه جهاز غير معمول به قانونياً في محاكم الولايات المتحدة الأمريكية، لقد عملت به الحكومة مدة، ثــم ثبت لديهــا أنه جهاز يتهم البريء ويــبرئ المتهم؛ لأن كثيراً من النــاس لهم قــدرة كبيرة وناجحة علــى ضبط انفعالاتهــم النفسية ويستطيعون أن يتجاوبوا بهدوء تام مع الأسئلة التي توجه إليهم.

لكــن بعض السجناء بــل أكثرهــم جلســوا على هــذا الجهاز وخرجت نتائج اختباراتهم إيجابية، لقد نجحوا في الاختبار كما قال لهم المسؤول عن الجهاز، وبعض السجناء يدركون أنه جهاز لا يقدم ولا يؤخــر في سير التحقيق، ولا يفيدهم شيئاً في التعجيل بخروجهم مــن السجــن، لكن يقبلون الجلوس عليه؛ لأن رفض الجلوس على هــذا الجهاز يعني أن لديهــم تهمًا أو قضايا لا يريــدون أن يكشفها الجهاز، ولــو كانت قضاياهم ظاهرة وتهمهــم بسيطة لوافقوا على الجلوس على هذا الجهاز، هذا هو التفسير الذي سيوجه إليهم من قبل المسؤولين.

لكـن هذا الجهـاز ليس هو الفيصل في قضيـة كل سجين، هذا الجهاز ليس هو الحاكم الأخير على كل متهم، هذا الجهاز لا يملك أن يقول لـك: إنك بريء ويقول للسجان: افتح الباب لهذا السجين، وأطلـق سراحه إنه بـريء، لقد سمعت عن الكثيريـن من السجناء قبـل خروجنا بشهـور كثيرة، أنهـم وافقوا على الجلوسـ على هذا الجهـاز، ووجهت لهم الأسئلة العادية غـير الخطيرة التي لا علاقة لها بالجهاد ولا بالإرهاب، (كما يسمونه) لا علاقة لها بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، ولا علاقة لها بأي أحداث عنف وقتل وقتال سابقة وقعـت ضد الولايات المتحدة الأمريكيـة وخرجت نتائج جهاز كشف الكذب عنهم إيجابية.

وقـال لهم المسؤول عن هذا الجهاز: لقـد تم اختباركم بنجاح، لم يبـقَ لكـم أي شـيء، لقد انتهـت ملفاتكـم وسوف يفـرج عنكم قريبـاً، وسترجعـون إلى بلادكم، هـذا الذي سمعته عـن الكثيرين مـن السجناء، لكـن مازالوا داخـل السجن، ولم يفـرج عنهم حتى الآن، إن الجلوسـ علـى هذا الجهاز صحيح، إنه هـو آخر فصل في التحقيـق، وهو آخـر فقرة في تهمة وملف كل سجـين، لكنه ليس هو آخـر فصل، وآخر فقـرة في بقاء هذا السجين في السجن، وإنه على أعتاب الخروج من أبواب هذا المعتقل.

إن الجلوسـ على هـذا الجهاز يعني أن التحقيـق مع المتهم قد

أوشـك علـى الانتهـاء أو انتهـى، لكنه إلى أيـن انتهى؟ إمـا انتهاء إلى الـبراءة والخـروج من السجن وإما انتهـاء إلى انتظار المحكمة وصـدور الحكم، والحكم يكـون إما بالبراءة والخـروج من السجن وإمـا بالبقاء في السجن وانقضاء مدة الحكم الذي تقدره المحكمة، لكـن متى ستشكل هذه المحكمة ومتى ستنعقد حتى تصدر أحكامها على هؤلاء الناس؟ الله أعلم.

إن السجـن بلاء وامتحـان بلا شك، والإنسان مـا كان يتصور أو يظـن أنه سيتحمل السجن، يتحمل حـره وبرده، عذابه الجسمي والعصبي والنفسـي، الانفراد والوحدة، البعـد عن الأهل والخلان والأصحاب والجيران، ما كان يظن أنه يتحمل البعد عن شهواته.

درس من السجن

ما كان الإنسان يظـن أنه يتحمل السجن في هذه الحياة الدنيا التي تعود عليها رخيّةً هنيّةً، خاصة إن كان هذا الإنسان من أصحاب الشهـادات والمناصب العليا أو كان مـن أهل الثراء والمال. إن الدنيا كانـت قد فتحت له ذراعيها وتمرغ في أحضانها ظهراً لبطن، ثم ما يفتح عينيه إلا وهو في زنزانة انفرادية لا يرى فيها الشمس، لا يكلم أحـداً ولا يكلمـه أحد، تمضي عليه الأيام، بـل الأسابيع، بل الشهور وهو في هذه الحالة، فجأة وفي لحظة واحدة، نزل عليه البلاء وضاق عليه الفضاء وتنكر له الأخلاء.

مَا بينَ طرفةِ عينٍ وانتباهتِها   يغيّـرُ اللهُ مِـنْ حـالٍ إلـى حـالِ

إن الدنيا لا تدوم على حال ومن المحال دوام الحال، والدنيا دول، وكما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

هِيَ الأيـامُ كما شاهدتُها دولٌ   مَـنْ سرّه زمـنٌ ساءته أزمـانُ

إن السجــن صبر، صبر واحتساب على ما يصيب الإنسان، وما لم يكن عند الإنسان صبر، فسيواجه متاعب كثيرة جداً، وكل من لم يخض معركة الصبر في الحياة الدنيا ولم يذق مرارة التحمل ولأواء البعـد والحرمان، فسوف يصطدم بأبسط عقبات السجن، وإذا لم يتحمـل أقل هذه العقبـات، فسيسقط في أول مراحـل هذه الرحلة، وسيتحطم عند أول مشكلة تواجهه في أول عتبة يتخطاها عند دخوله لهـذا القبر الكبير، ولقد أوصى بعض مـن كان معنا وصية لإخوانه أن يكـثروا مــن قـول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، دعاء سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام في بطـن الحـوت، فقال له صاحبـه وهو يحاوره: هــل نحن في بطن الحوت؟ فأجابه: وهل هذه الزنازين إلا كبطون الحيتان.

إن التقلـب في نعيـم الدنيا والتوسـع في مباحاتها الحلال، من أكبر الأمــور الضاغطة على الإنسان في السجن، ومن القضايا التي تكون عائقاً له على الثبات في هذه المحنة، ومن الجوانب التي تجذبه وتشده وتحببه للرجوع إليها والغرق في بحرها، ولو كان على حساب مبدئـه ودينــه، وما لم يكــن معــك زاد الطريق من القــرآن الكريم والذكــر من سنة سيد المرسلـين ﷺ والاقتداء بالسلف الصالحين، والاحتساب أولاً وآخرًا لله رب العالمين فسيصيبك الوهن وستضعف عزيمتـك، وستـدركك السأمة والملـل، وتنتابك الأوهــام، وتغزوك

الأسقـام وتعشعش في فـؤادك الوساوس وتلبسـك الآلام، ويكسوك اليأس والقنوط من رحمة رب العالمين.

إن السجـن قدر الله -عـز وجل- على عبده المؤمن بلا شك ولا مرية، والإنسان الذي لديـه قوة وقدرة وعنده صبر وتحمل، لم يكن ليكتشف هذه القوة وما كان ليعرف هذا التحمل والصبر من دون أن يدخل في فرن الابتلاء، ومن دون أن يلج محك الامتحان والاختبار، لقـد كان قدر الله علينـا في هذا السجن سهلاً وبسيطًا بالنسبة إلى الابتلاءات التي أصابت غيرنا.

صحيـح أن الـذي أصابنـا سجن، وبعـد حسي، وبعـد معنوي، ونفسي، بعد عن الأهل والوطن، لكن لما كنا نقارن أنفسنا بالآخرين كان الأمـر يهـون علينا، كنا نقـرأ عن سيدنا يوسـف عليه الصلاة والسـلام، وكيف أنه لبـث في السجن بضع سنـين، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، ما هو ذنب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، وما هي الخطيئـة التي ارتكبها حتى يدخل السجن، ذنبه أنـه طاهـر، ذنبه أنه نظيـف، هذا حكـم أهل الدنيا علـى الطاهر والنظيف، لقد أصبح الطهر وأصبحت النظافة المعنوية جريمة يزج بصاحبها في السجن، هذا منطق أهل الدنيا تجاه كل طاهر وعفيف ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢).

أي منطق هـذا إن هذا المنطق يقول: إذا لم يتلطخ يوسف عليه الصـلاة والسلام بهذه الفعلة الشنيعة، ويوافق هذه المرأة في هواها فمصـيره السجـن، لماذا؟ لأنـه عفيف وطاهر، فمـا دام أنه عفيف وطاهـر، فلا بـد أن يكـون مصيره السجـن، وصـدق الله العظيم ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦).

إن لوطـاً ومـن معـه مـن المؤمنين لا بـد أن يطـردوا ويخرجوا مـن بلدكم؛ لأنهـم في عرفهم ومعتقدهم أناسـ مذنبون ومخطئون هـل تعرفون ما ذنبهـم؟ إنهم يتحرجون من فعل مـا تفعلونه، إنهم يتنزهـون ويتطهـرون عـن أفعالكـم وعـن إقراركم علـى صنيعكم -اللـواط- فأخرجوهـم مـن بـين أظهركـم، فإنهـم لا يصلحـون لمجاورتكـم في بلادكم، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء وروي مثله عن ابن عباس.

ياليت الظلمة وأعوانهم اليوم يطردون الدعاة ويخرجونهم من بلادهـم، بدلاً من زجهم في غياهب السجـون والمعتقلات! لقد كان قـوم لوط أحسن حالاً منهم، لو أن شخصـاً أو مؤسسة اليوم قامت بعمـل مسح للسجـون في العالم الثالـث، فإنها سـوف تخرج نتيجة أكيـدة، مضمونها: إن هذه السجـون لا يوجد فيها إلا المتطهرون، لا يوجد فيها إلا الدعاة الصالحون، لا يوجد فيها إلا من يقول للناس:

أيهـا الناس، هذه طريقكم الصحيحة هـذه هي الطريقة التي فيها حـل مشكلاتكم وخروجكم من جميع هذه المشكلات، الطريقة التي فيها العزة والغلبة في الدنيا والفوز العظيم في الآخرة.

كنـا نستصغر أنفسنا إذا اشتكـى أحدنا، أو تذمر أو تضايق أو تضجـر من غرفتـه أو من طعامه ولباسـه أو... كم كان يمسح على جراحنا ويخفف عن آلامنا ما لاقاه كبار الدعاة إلى الله -عز وجل- ، منـذ آدم عليه السلام، وحتى آخرهـم محمد ﷺ، فقد لاقوا أذى وشتماً وعذابًـا من أجـل الله -عز وجـل-، فها هو سيدنـا رسول الله ﷺ حاصره المشركون في شعب أبي طالب ثلاث سنين.

إنه سجن كبير وإن لم يكن فيه غرف وزنازين صغيرة، قاطعوهم فلم يبيعوهم ولم يشتروا منهم ولم يزوجوهم ولم يتزوجوا منهم، لم يجـد الصحابة في هـذا السجن طعاماً يأكلونـه، لقد صوّر سعد بن أبـي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله ومن العشرة المبشرين بالجنـة الجـوع الذي نزل بهم، فقال: خرجـت ذات ليلة أبول، فإذا بصـوت تحـت بولي فـإذا هو جلـدة فأخذتهـا وغسلتهـا وأكلت ما استطعت منها، والله أعلم جلدة أي حيوان تكون هذه الجلدة!

لقد كان بعض السجناء -جزاهم الله خيراً- يخففون عنا ضيق السجن، وبعد الأهـل، ووحشة الأيام، بكلمات تقع كأنها الماء الزلال الـذي ينهل منه العطشان، كلمات عن دعاة في كل بقاع الأرض، قام

الظلمة وأعوانهم بزجهم في غياهب السجون سنين طويلة، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، منهم من قضى نحبه في سجنه، ومنهم من ينتظر فرج الله.

لقد كنا نسمع عن زينب الغزالي، امرأة سجنت سنين طويلة بلا ذنب، فما كان لها من ذنب إلا أن قالت: ربي الله، اقرأ قصتها في كتاب «أيام من حياتي»، وستعرف من هي زينب الغزالي، أما الرجال الذين سجنوا في هذه المحنة نفسها، فقصصهم لا تخفى على أحد، وحياتهم في السجن نشرت ويعرفها القاصي والداني.

إن السجن أداة من الأدوات التي يلجأ إليها العجزة عندما يجبنون عن مواجهة الحق، إنه الوسيلة التي يسلكها الجبناء عندما يفقدون الحجة الواضحة، والدليل البين في إدانه خصومهم، إنه الطريق الذي يسير فيه الجلاد عندما تعتريه الكبرياء، ويلبسه الغرور ويعشعش في قلبه الظلم والبطش، ها هو فرعون قائد الظلمة والجبارين، وكبير العتاة والمجرمين في كل زمان ومكان، لا يجد أداة لتهديد سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إلا السجن ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء:٢٩).

إنه منطق الضعفاء والمهزومين، الذين غابت حجتهم وضعفت إرادتهم، ووهن منطقهم عن مواجهة الحقيقة، بل تمادى فرعون

في غيـه واستمر في ضلاله إلى تهديد موسى عليه الصلاة والسلام بالقتـل، عندما لم يكـترث سيدنا موسى بتهديـده بالسجن ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦).

الطاغيـة أصبح واعظـاً، والمتكـبر والمتغطرس أصبـح مذكراً مشفقـاً، والمجـرم الأول أصبـح آمراً بالمعـروف ناهياً عـن المنكر، وموسى عليـه الصلاة والسلام، المرسل من رب العالمين، والذي هو مـن أولي العـزم من الرسـل، أصبح في نظر فرعـون مفسداً، يريد تبديل ديـن الناس، إنها المفارقات، يا للعجـب من حكم أهل الدنيا على أهل الدين!

قبـل خروجي من كوبا بشهر تقريباً وبعد تناول طعام الإفطار، جـاء الحراسـ وقالوا: عليـك عيادة، قلت لهـم: لا أستطيـع اليوم الذهاب إلى العيادة، أنا لست مريضاً أولاً، وثانياً جاء حلاق الشعر ولا بـد أن أحلـق شعر رأسي اليـوم، وإلا فلا بد مـن الانتظار ثلاثة أشهـر أخـرى؛ لأن الحلاق لا يمر على عنابـر السجناء إلا بعد مدة طويلة، انصرف الحراس دون أن أذهب معهم.

وخرجـت للحلاقـة، وفي اليوم اللاحق عـاد الحراس، وقالوا: العيادة، قلت لهم: أما الآن فلا بأس.

دخلت العيادة، جاء الطبيب، أجرى لي بعض الفحوص السريعة على جسدي، العينين، الحلق، الأذن، وأخذ وزني وطولي وقياس اليدين والرجلـين والعنق كأنه قياس خياط يريد خياطـة بنطال أو قميص، ثـم أرجعنـي الحراس إلى غرفتي، لكن بعد تنـاول طعام الغداء جاء الحراسـ، وقالوا: عليك تحقيق، قلت: حاضـر تم التقييد بالسلاسل ثم التفتيش، سرنا ووصلنا إلى غرفة التحقيق، جلست على الكرسي، فـك الحراس اليديـن، ثم قيدوا الرجلـين بحلقة مثبتـة في الأرض، وجـاء المحقـق، وكانت سيـدة والمترجم يبدو من لهجتـه أنه عراقي، قالت المحققة: هذه الجلسة قد تكون آخر جلسة لك في التحقيق.

وبعـد هذه الجلسـة سنرفع ملفك إلى واشنطـن، وخلال ثلاثة أسابيع سيأتي الرد عليـه من واشنطن، بدأت تسألني عن عملي في باكستـان قبل اعتقالي منذ وصلت إليهـا ١٩٨٥م إلى وقت اعتقالي ٢٠٠٢م، قلـت لها: كل عملي طيلة وجودي في باكستان كان في مجال التعليـم في المدارس والمعاهد والكليـات والجامعات، قالت: لماذا لم تكمل دراستك؟ قلـت لها: لم يتيسر لي ذلك بسبب العائلة، وبسبب قلـة الموارد الماليـة عندي، قالت: لو رجعـت إلى الأردن وأتيحت لك فرصـة إكمال الدراسة، هل ستواصل دراستك، قلت: نعم بلا شك، ولقـد انتابنـي إحسـاسـ جلـي وراودني شعور قوي مـن خلال مدة وجودي في السجن.

وفي ثنايا جلسات التحقيق أن الأمريكان يحبون (يفضلون) الشخص المتعلم، رجلاً كان أو امرأة، إنهم يميلون (يحبذون) إلى الشخص المتفتح الذي يتصل بالدنيا ويعرف ما يدور فيها، وما يجد عليها، كنت أشعر أنهم يرتاحون للرجل الذي أمضى حقبة من عمره في التعليم، حقبة المدرسة والجامعة وما بعد الجامعة؛ لأنهم يربطون كما شعرت وأحسست بين المتعلم أو المثقف وما يجري من أعمال قتل وتدمير، المتعلم تعليمًا وثقافة عصرية أو ثقافة حكومية حديثة، وليس المثقف ثقافة دينية، ثقافة المسجد والشيخ أو ثقافة الحلقة والزاوية، أو حلقة الموجه الروحي والمربي الحركي.

الثقافة والتربية

وعلى ذكر المربي الحركي، فإنهم يتذكرون مثلا حركة طالبان التي كانت تحتضن تنظيم القاعدة وما يجري في داخل أفغانستان أو خارجها من وأعمال عدائية للغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وأعمال ظاهرة العداء والكراهية معنويًا ونفسيًا، وإن كان بعض أفراد حركة طالبان قد نال قسطاً من التعليم إلا أنه تعليم ديني (حسب رأيهم) علمهم التطرف والقتل، إنهم لم يحصلوا على التعليم العصري والثقافة الحديثة، إنهم متقوقعون (حسب الرأي الأمريكي) في مساجدهم، أو زواياهم أو مع مشايخهم المتحجرين القدامى، لا يعرفون ما يجري في الدنيا، حتى اللغة الإنجليزية يعدون تعلمها وتعليمها إثمًا وحرامًا، يقولون: إنها بدعة ويقولون: إنها لغة الكفار.

لذلك فإنك تلمح مما تسمعه من الأمريكان أنهم لا يحبون التعليم الديني المحض، لا يحبون المعاهد الدينية؛ لأنها تركز على

المواد الدينية والعربية كثيراً، حتى ولو كان في هذه المعاهد مواد عصرية علمية، كالرياضيات والعلوم، حتى ولو كان فيها المواد الاجتماعية المختلفة أو الثقافية الحديثة أو حتى لو كانت هذه المعاهد تعلم اللغات المختلفة؛ لأنهم يعدّون هذا الكم من التعليم الديني كافيًا لتوجيه الطالب نحو الهدف الذي يريده بقوة، فهذا الكم من العلم الشرعي قادر على تكوين شخصية الطالب بسرعة، شخصية متميزة قوية يبرزها ويجعلها قادرة على معرفة الإسلام والكفر، قادرة على تحديد معنى الولاء والبراء بدقة، بحيث يتحدّد اتجاه جميع الناس، وتجعله يعيش في أرض الواقع ويتواضع مع غيره، يطبق وينفذ ويعمل بهذه المبادئ التي تعلمها، إنك تلمح أنهم يفضلون المدارس العصرية؛ لأن الاهتمامات في هذه المدارس بمواد بعيدة عن حس المسلم، ليس للدين فيها نصيب، الدين فيها ضعيف جداً إن وجد.

المدارس العصرية لا تهتم ببناء شخصية الطالب الذي يعتز بدينة ووطنه أو لغته وتراثه، إنها تهتم بثوبه وشكله ولا تهتم بقلبه وروحه تخرجه ذكياً ولا تجعله زكياً تخرجه يحمل شهادة وثقافة ولا يحمل تربية وعفة وطهارة هذا على العموم والغالب إلا ما قل وندر وقليل ما هم.

هذه هي النتيجة التي وصل إليها الأمريكان عن المتعلمين وغير المتعلمين، بوصفها تطبيقًا عمليًا لما وصلوا إليه، وربما لمسوه وأدركوه

مـن مجموع المعتقلين الموجودين في معتقـل جوانتنامو (كوبا) حيث إن عـدداً لا بأس بـه ربمـا دخل الصفـوف الأولى، ثـم انقطع عن الدراسـة لفقر أو لعـدم اهتمام بالمدرسة، وبعضهـم لم يذهب إلى مدارس الحكومة أصلاً، لكنه اكتفى بحلقات المساجد والمشايخ إنك تلمـح وتحس أن الأمريكان تنفرج أساريـر وجوههم ويفرحون ليس فقـط لأنك متعلم في المدارس الحكومية أو الجامعات الحكومية، بل لأنك تؤمن بهذا المبدأ أنت أولاً وتطبقه على أولادك.

فإن علمـوا أن أولادك وخاصة البنات في المدارس والجامعات يقـول لك المحقق: هذا جيـد، أين يدرسون؟ مـاذا يدرسون؟ ويبدأ يسمعـك كلمـات الثناء والمـدح والتشجيـع، كما يفرحـون أكثر إذا علمـوا أنك لست منغلقاً أو منطوياً علـى نفسك، بل وسائل الإعلام والاتصـال المختلفة عنـدك، تلفزيون أو قنـوات فضائية، كمبيوتر، إنترنـت، وأنك تتابع مـا يجري في الدنيا أو تتأثـر بما يجد ويحدث في عـالم الفن والثقافـة، أو في عالم السياسـة والزعامات، أو عالم المخترعات والصناعات.

حركة طالبان

إن حكومة طالبان كان لها إيجابيات وحسنات في أفغانستان، منها نشر الأمن في البلاد وتطبيق بعض الحدود الشرعية ومحاربة البدع، وإن كانت بطريقة شديدة، ربما نفَّرت أو كرَّهت بعض الناس في هذا النموذج من الحكم الذي تدعو إليه حركة طالبان.

لكن في الوقت نفسه كان لها أيضاً بعض السلبيات، فهي تسير في اتجاه واحد، إذ لا تقبل المفاوضات ولا المناقشات، ولا تقبل الالتقاء مع الآخرين، خذ مثلاً: الأصنام التي حطموها في أفغانستان وأثارت عليهم العالم، أثارت عليهم كثيرًا من المسلمين، ومنهم مشايخ، وربما زارهم بعض مشايخ المسلمين لينصحوهم بألا يقوموا بتدميرها الآن؛ لما له من الآثار السلبية على حكومتهم الجديدة الضعيفة الفقيرة، لكن لم يسمعوا كلام أحد وحُطِّمت التماثيل والأصنام، مع أن أفغانستان قد فتحها الصحابة وعاشوا

فيها وعاش فيهـا التابعون وتابعو التابعـين والصالحون، إلى يومنا هذا، وتركوا هذه الأصنام والتماثيل التي هي كالجبال، ولم يتعرضوا لها ولم يذكروها حتى في كتبهم ولا في تاريخهم.

إن سياسـة الطالبـان التـي لا تستطيـع مسايـرة الأحداث ولا التعامـل مع المشـكلات بالطـرق الدبلوماسية السلسـة ولا تستطيع النـزول عن التشدد في القـرارات وتتعامل مع الأحـداث من زاوية واحـدة أثـار حفيظة العـالم عليهـم، وجعلهـم نموذجـاً لأنصاف المتعلمـين الذيـن فشلوا في حكمهـم وحكومتهم، وفشلـوا في تقديم الرخـاء وإقامـة الاقتصـاد القوي أو حتـى المقبول للبـلاد، وفشلوا في استقطـاب الناس حولهـم وفي مسايسة وقيـادة فئات كثيرة من الشعـب بالطريقة الصحيحة، وفشلوا في الالتقـاء مع قادة الجهاد القدامـى وزعمائهـم، أو الالتقاء مـع أهل الرأي والمشـورة في كافة أنحـاء البلاد، ممـا جعل الكثير من الناس في حالـة غليان وضغط واحتقـان عليهم، حتى إذا كانت الظروف مواتية، انقضوا عليهم أو انقلبوا عليهم وعجلوا برحيلهم.

سألتني هـذه المحققة: ما رأيك في حركة طالبان؟ قلت لها: إن حركة طالبان حركة أفغانية، طلاب علم كانوا يدرسـون في المدارس الدينيـة في باكستـان، فالحركة انطلقت من باكستـان وتعتمد على باكستـان في كثـير من الأمـور الاقتصادية والتوجيهيـة والسياسية

والعسكريـة، قامت هذه الحركة واستولـت على الحكم في كابل من الحكومة الأفغانية التـي كانت موجودة، وحكومة طالبان كالحكومة التـي سبقتها لا تحظى بتأييد جميع أو أغلب فئات الشعب الأفغاني، صحيح أن لها بعض الحسنات التي لم توجد عند الحكومات السابقة التي حكمت أفغانستان، منذ سقوط حكومة نجيب ١٩٩١-١٩٩٢م.

ولكـن حكومة الطالبـان لم تستطع أن تتعاون مـع جميع فئات الشعـب الأفغاني، وخاصة قادة الأحزاب الجهادية السابقين الذين كان لهـم دور كبـير في طرد الاتحاد السوفيتي مـن أفغانستان، لقد رفضت حركة طالبان أن تتعاون مع أي معارض لها، فقد كان شعارها الذي ترفعـه للمعارضين أو لقادة المعارضـين: أنا الحاكم والحاكم أنـا، أنا وحـدي الذي يوجه البلاد، غيري ليس له في الحكم شيء، ضـع سلاحك واستسلـم، وسوف نبحث في شأنـك، وربما نحاكمك على تاريخك الماضي، لقد قطعت حركة طالبان صلاتها وعلاقاتها بكل معارض وبكل من لا يوافقها، حتى ولو كان محقاً.

إن الكثيريـن ممن انضـم إلى حركة طالبـان لا يعرف الكتابة ولا القـراءة، أميون، إن نسبة الأمية في الشعب الأفغاني عالية جداً، وهي من النسب العالية في العالم، إن لم تكن أعلاها.

ربما يكـون التحليل والتفسير الأمريكي للمثقـف أو المتعلم، أن الثقافة والعلم يقودانه إلى حياة آمنة هادئة، التعليم ربما يقنعه بأن

حياة القتل والتدمير وسفك الدماء غير صحيحة، غير ناجحة، غير صالحة للتفاهم والالتقاء مع الآخرين، غير المتعلم ربما يكون عقله وتفكيره يسيران في اتجاه واحد، عقله لا يقبل التحليل ولا التفسير أو لا يقبل الموازنة بين المصالح والمفاسد فيما يقوم به، أمامه هدف وعنده قضية لا بد أن يصل إليها مهما كانت التكاليف، حتى لو كانت السلبيات أكثر من الإيجابيات، حتى لو كانت الخسائر أكثر من الأرباح، مع أن معظم الشباب الذين نفذوا عملية ١١ سبتمبر، وربما كلهم (والله أعلم) متعلمون ومثقفون، وبعضهم في الجامعات الغربية أو العربية، وكثير من الناس الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة -ومنهم شباب- لا يمكن أن يفعلوا مثل هذه الأفعال، بل لا يؤيدون غيرهم للقيام بها ويستنكرون ويشجبون من ينفذها.

إن حركة طالبان حركة طلابية دينية، لكنها باكستانية التخطيط أفغانية التنفيذ، نشأت في المحضن الدافئ باكستان تحت سمع وبصر الأمريكان، والأمريكان يعرفون حركة طالبان كما يعرفون أبناءهم، سألتني هذه المحققة عن الجهاد والقتال في الإسلام، فقلت لها: إن الإسلام لا يحمل السيف على من يريد البقاء على دينه ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، اعتناق الإسلام لا يكون إلا عن قناعة، وليس بالضغط والإكراه، الذي لا يريد الإسلام لا يكون عدواً للمسلم، من ليس صديقي لا

يعني بالضرورة أن يكون عدوي، لكن من لم يسلم لا يقف حجر عثرة ولا حاجزاً أمام من يريد أن يسلم، المسلم لا يعدّ غير المسلم- يهوديًا أو نصرانيًا أو غيرهما- عدواً له إلا أن يقع منه تجاوز أو اعتداء.

إن بلاد المسلمين، بها كثير من النصارى واليهود لهم كنائسهم ودور عبادتهم يعيشون بلا مشكلات، يمارسون ديانتهم وطقوسهم الدينية بحرية تامة، لهم مناصب ووظائف في الدولة، في حياتهم الاقتصادية والصناعية والسياسية وغيرها كبقية الناس، كما أن الدول الأوروبية وأمريكا بها بعض المسلمين، يعدون في بعضها بعشرات الألوف، وبعضها بمئات الألوف، وبعضها بالملايين، صحيح أن حقوقهم في هذه البلاد ليست حقوق أصحابها أهل البلاد الأصليين ١٠٠٪ لكن لهم حقوق دينية واقتصادية، تجعلهم يعيشون في البلاد حياة جيدة.

قالت: ما رأيك في الأحداث الأخيرة ضد الأهداف الأمريكية التي تعرضت للضرب، مثل المدمرة كول في بحر العرب، قرب اليمن، ضرب السفارة الأمريكية في كل من تنزانيا وكينيا- دار السلام ونيروبي- أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠٢م في نيويورك وواشنطن؟

قلت لها: إنكم تحكمون على الإسلام وأهله من خلال اجتهاد أفراد من المسلمين، يقومون بعمل عسكري ما ضد أهداف أمريكية

لكـم أو لغيركم، وما جرى في ١١ سبتمبر لم يلقَ موافقة وتأييداً من جميع الشعوب الإسلامية ومن جميع علمائها وشيوخها، لقد عارض هــذه الأحداث كثير من المسلمين ومــن علمائهم، لكن أنتم تسمعون للمؤيدين لهذه الأحداث، ولا تسمعون للمعارضين لها؛ لأن هذا يروق لكـم ويتناسب مع سياستكم التــي تنتهجونها، وتبرر لكم وتشجعكم على الكثير من مخططاتكم وأهدافكم عند هذه الشعوب، وتشجعكم على الاستمرار فيها، قالت: أليس من حق الولايات المتحدة الأمريكية أن يكون عندها جيش؛ حتى تدافع عن نفسها بهذا الجيش؟

قلــت: الحق لها ولغيرها أيضاً أن يكـون عنده جيش يدافع عن نفسه، لكن الاعتداء على غيركم لا يوافق عليه أحد، واستطردت هنا لأقول: وكما سمعت من بعض السجناء أن أحد المحققين سأل سجيناً عــن أحداث نيويــورك وواشنطن وأحضــر له صوراً لمبنــى التجارة العالمي بشقيه، صوراً مفزعــة، يظهر فيها التدمير للبرجين والفزع والرعــب والهلع الذي يصيــب النـاس، والخســارة البشرية والمادية التــي لحقت بالبــلاد بسبب هذا التدمير، قال لــه: من المسؤول عن هــذا كله؟ أليس تنظيم القاعــدة وحركة طالبان التي كانت تحتضن وتأوي هذا التنظيم الذي نفذ هذا الهجوم؟

فأجابــه السجين: كل ما تقوله صحيــح، أنا أوافقك الرأي على كل مــا تقوله في تنظيم القاعدة وحركة طالبــان، لكن لماذا لا تسأل

نفسك وأنت محقق تجمع المعلومات والأخبار من المعتقلين، وتريد أن تصل إلى الصواب والحقيقة أو لماذا لا تسأل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها سؤالاً مهماً ودقيقاً؟ لماذا وقعت هذه الأحداث المدمرة لها ولم تقع لغيرها من الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا والصين، أو لأي دولة أخرى؟

إن المثل العربي يقول وأظن أن هذا المثل في بلادكم: (من كان بيته من زجاج، فلا يقذف الناس بالحجارة) أظن أن كثيراً من الشعب الأمريكي أو معظمه لا يحب الإرهاب (كما تسمونه) أو قتل الأبرياء، ولا يحب تدمير المباني، ولا نسف العمارات والجسور ولا مهاجمة السفارات، ولا يرغب في مهاجمة السفن ولا إسقاط الطائرات، ولا يحب أعمال العنف ولا إراقة الدماء؛ لذلك يعارض الحرب وترتفع أصواتهم التي تطالب بسحب الجيش الأمريكي من الخارج ورجوعه إلى بلده.

أصوات من أناس عاديين من الشعب، وأصوات من جمعيات حكومية وغير حكومية، وأصوات من وزراء ومسؤولين كما سمعنا من الكونجرس أو من مجلس الشيوخ أو في غير مجلس الشيوخ، أنتم تنشرونها، ووسائل الاعلام تتكلم عنها، لكنها أصوات لا يلتفت إليها، يرمى بها في سلة المهملات أو يضرب بها عرض الحائط، وتلتفتون إلى الأصوات التي تطالب بالتوسع خارج أمريكا والمحافظة

علـى الاقتصاد القوي والتحكم في القـرار العالمي وإخضاع الشعوب الفقـيرة والمغلوبـة علـى أمرها، وإيجـاد أرض تعطي المـواد الخام لمصانعكـم وتكون سوقاً لمنتجاتكم، أليـس كل ما أقوله لك صحيحًا أيها المحقق؟

أيـن الضغـط الذي قـام بـه الشعـب الأمريكـي أو المسؤولون الأمريكيـون، أو الجمعيات والهيئات الأمريكية التي ضغطت بكل ما تستطيعـه من قوة، حتى أجـبرت حكومة بلدها على سحب جيوشها من فيتنام؟ أما كان ذاك الضغط وذاك القرار قراراً صائباً وعملاً أيـده كل الشعب الأمريكي أو معظمه؛ لأنـه كان في مصلحة الشعب الأمريكي وفائدته؟

ولقد تناقلت الأخبار -وكنت ممن سمع هذا الخبر- خبرًا يقول: إن أستـاذًا يعمل في جامعة أمريكية (أظنها جامعة كولورادو) قال: إن مـا جرى للناس في برجي التجارة في نيويورك، من هلاك ودمار إنما سببه سياسة بلادهـم، أو بسبب سياسة حكومتهم الخارجية، فقامت عليه الدنيـا في أمريكا تطالب بفصله من الجامعة، وتوالت عليـه التليفونات من جميـع أمريكا تشجـب هذا الأستـاذ وتنتقده وتهاجمـه؛ لأن ما يقوله فيه تشجيـع للإرهابيين للعمل ضد مصالح الولايـات المتحدة الأمريكية في الداخل والخارج، وقام بعض الناس في أمريكا يحللون كلام هذا الأستاذ بين مؤيد ومعارض.

ومما سمعته من بعض هؤلاء أن عمليات ١١ سبتمبر سوف تكون بداية النهاية للديمقراطية في أمريكا؛ لأنها (أي الأحداث) ستكمم الأفواه وتسكت الألسنة التي ستنتقد وتعارض الحكومة الأمريكية، وتبين أخطاءها السياسية والعسكرية وهذا التكميم والكبت سيلحق الإضرار بالوطن الأمريكي وسيلحق الضرر بالبلاد والعباد.

الانتحار

إن عمليـة الانتحـار عن طريـق الشنق (تعليـق السجين نفسه بالشيت) والشيت قطعة قماش كبيرة وطويلة يثبتها في أحد جدران الغرفة المشبك، ويضع الشيت في عنقه، لقد شاهدتها مرات كثيرة، وهذا التعليـق إما أن يكون احتجاجاً على شيء يحدث في السجن لا يريـده السجناء، كما حـدث عندما قام أحد المحققـين وداس على القـرآن الكـريم، أو عندمـا يتعرضـ السجين إلى ضغـط وتعب في التحقيـق يجعله في حالـة نفسية متوترة، وهـذا التعليق قد يقوم به السجـين هزلاً، إذ يعلـق نفسه، فيعلو صـراخ المساجين وصياحهم، يطلبون الحراس ليفتحوا باب الزنزانة على السجين.

يقـوم الحراس بمنعـه من إتمـام انتحاره، وقـد شهدت بعض السجنـاء المصابـين بحالة نفسيـة متدنية، تجعلهـم لا يسكنون في غرفـة إلا ويكسرون مـا يستطيعون تكسـيره فيها،المغسلـة، حنفية

المـاء، وقـد حاول بعضهـم الانتحار مرتـين في عنبر واحـد، عملية الانتحار الأولى وقعت عندما كان يسكن في غرفة رقم (٢٥)، ليكون دائمـاً تحت مراقبة الحراس، لكنَّ الحراس لا يمكن أن يكونوا طيلة الوقت (٢٤) ساعة يراقبون كل السجناء في العنبر، إنهم يتحركون وينتقلـون، يقدمـون الخدمـات للسجنـاء أو يخرجونهـم للمشـي والرياضـة والاغتسال، حاول الانتحـار، في هذه الغرفة لكن جيرانه شاهـدوه وهو يحاول الانتحار فصرخوا على الحراس الذين هرعوا ودخلـوا الغرفة عليـه ومنعوه من إتمام عملية الانتحـار، ونقلوه بعد ذلـك إلى غرفة رقم (١) الملتصقـة بغرفة الحراس، لكن الحراس انشغلوا عنه بخدمات تقدم في العنبر.

وفي غيبـة عيـون الحراس عنـه علق الشيت وحـاول الانتحار، فصـرخ جيرانه على الحراس الذين جاؤوا مسرعين ودخلوا الغرفة عليـه وخلصوه مـن التعليق، إن الحراس يصيبهـم الذعر والخوف الشديد عندمـا تكون في العنبر الذي يحرسونه عملية تعليق وشنق؛ لذلك يحاولون ألا تكون هناك أي عملية من هذا النوع عندهم؛ لأنه لـو حدث أن تمت عملية الانتحار والشنق في العنبر الذي يحرسونه، فـإن هذا يعني وقوعهم تحـت المسؤولية والحسـاب والعقاب وأنهم قصروا في حراسة المساجين ومراقبتهم.

حدث مـرة أن أحد السجناء كان يقيـم في السجن الانفرادي، فحـاول الانتحـار، ووصل إلى حافة الموت، لكـن الحراس أنقذوه في

آخر الأمر، سمعت ممن يعرفه، أن هذا السجين كان في حالة نفسية سيئــة، عمليــة الشنق أو الانتحــار لم تتم، لكــن كان لها مضاعفات عليــه، حيث أصيب عنقه بكسر وساءت صحته، نقلوه إلى المستشفى وبعد مدة تحسنت حالته الصحية والنفسية.

هناك نوع آخر من الانتحار، لكن لا ندري هل يقوم به السجين جــادّاً أم هازلاً، وهــل سببه الضغط النفســي وجلسات التحقيق،أم سببــه الاحتجاج على أعمال يقوم بها المحققون أو الحراس، أعمال يتحرشــون أو يتحــدون بها مشاعــر السجناء، مثل تفتيشـ القرآن الكــريم في غــرف السجناء في أثناء خروجهم مــن الغرف للتحقيق أو الرياضــة والاغتسال، أو إلقاء أغراض السجناء على الأرض غير النظيفة بطريقــة استفزازية، لكن الانتحار لا بد أن يكون له سبب، وهــذا النوع من الانتحار هو قطع الشرايين والأوردة الدموية لليدين أو للرجلين أو للبطن... أو لأي مكان في الجسم، لكن من أين يحصل السجناء على الآلة الحادة التي يقطعون بها شرايينهم؟

إن السجــين يحصل كل أسبوع علــى آلة حلاقة، وعندما يدخل حمــام الاغتسال، تكــون معه آلة الحلاقة التي فيهــا شفرة (موسى صغــير)، والحمام له باب مشبك؛ حتى يبقى السجين تحت مراقبة الحارس، لكن السجين قد يضع منشفة أو ملابس على شبك الباب؛ ليســتر نفسه عند الاغتسال، مــع أنه يلبس لباســاً رياضياً في أثناء

الاغتسال، وإذا تسلّم السجين آله الحلاقة من الحارس كسر القطعة البلاستيكية التي تغطيها، وأخرج الشفرة الصغيرة التي بداخلها وقام بتقطيع شرايين يديه أو رجليه.

وقد حدث هذا أكثر من مرة، والذي يقوم بهذا العمل قد يكون في كامل عقله، وقد يكون مصاباً بشيء، لكن عندما تحدث مثل هذه العملية تقوم إدارة السجن بمنع آلات الحلاقة عن جميع المساجين مدة طويلة، وذلك عقاب للجميع، وحتى يضغط جميع السجناء على من يقومون بهذا العمل، وحتى لا يتكرر هذا الفعل مرة أخرى، وحتى يعرف السجين الذي يقوم بهذا الأمر.

أن هذا الانتحار قد سبب التعب والحرمان ليس له وحده فقط، بل لجميع زملائه في السجن، فلا يقوم بتكرار هذا الأمر مرة أخرى، ربما يكون العقاب منع آلات الحلاقة شهرًا أو شهورًا، حتى تطول الشعور التي يجب إزالتها وحلقها عند السجناء.

لكن أذكر مرة أن المنع استمر شهوراً على الجميع مع أن الجميع، لا ذنب لهم فيما حدث، مع العلم أن آلات الحلاقة هذه لا توجد في عنابر الدرجتين الثالثة والرابعة أو العنابر الانفرادية؛ لأن المعاقبين لا يسمح لهم باستعمال هذه الآلات.

لقد كان معنا في بجرام بعد رجوعنا من كوبا وقبل إطلاق

سراحنا بأربعة أشهر معتقل إيراني الجنسية، كانت حالته النفسية متدنية، تصرفاته غير طبيعية أحياناً، وكثير التفكير شارد الذهن، حاول الانتحار مرة. فلم يجد شيئاً ينتحر به إلا أقراص الدواء التي كانت معه، كان معه كمية كبيرة من الأقراص المختلفة الأشكال والألوان، ابتلع منها ما يقرب من خمسين حبة، وكان يريد أن يبتلع أكثر، لولا أن هرع إليه الحراس وهرعنا نحن مع الحراس، حتى استطعنا بالقوة أن نمنعه من إكمال ابتلاع بقية الأقراص، ولو قدر له أن يبتلعها جميعاً لفقد حياته، اتصل الحراس بالطبيب، وتم نقله إلى مستشفى في القاعدة، وتم علاجه هناك.

من مخالفات المعتقلين

إن كثيراً مـن السجناء يقومون بعمل مخالفـات لأبسط الأسباب ولأقـل الأشياء، ثـم يريد أن يحمّل هذه المخالفة لجميـع أصحابه، إنه يريد من أصحابه أو من السجناء، أن يقفوا معه لأمر بسيط، ربما كان هذا السجين نفسه هو السبب في هذه المخالفة. أنت سجين وعليك تهم، أو عندك قضايا في التحقيق، ودائماً تصنع المخالفات وترفض الالتزام بقوانين السجن، مثلاً أحد السجناء سبَّب مشكلة لجميع سكان العنبر الذي يسكنه، العنبر يتسع لثمان وأربعين (٤٨) سجيناً، فقام الحارس ووزع الطعام على كل السجناء وقت الطعام (٣٠) دقيقة، مع أن كثيراً من الحراس ربما أعطاك أكثر من ثلاثين دقيقة.

لما انتهى وقت الطعام المحدد بدأ الحارس بجمع أطباق الطعام والكاسات الفارغـة وبقايا الفاكهة، لكن بعض السجناء لم ينتهِ من طعامه ورفض تسليم بقايا الطعام، يبدو أن السجين كان مشغولاً في

أثنـاء تناول الطعام؛ أو تأخر ولم يأكل منـذ بداية الوقت، أو لسبب آخـر، طلب الحارس من السجين أن يسلم بقايا الطعام؛ لأن الوقت قـد انتهى، رفض السجين تسليم الطبق، لكـن الحارس لا يستطيع أبـداً أن يـترك بقايا الطعام عنـد السجين؛ لأن هـذا يعني تسجيل عقوبة شديدة عليه من مسؤوليه، بعد مشادة كلامية اضطر الحارس بمساعـدة من معه مـن الحراسـ، أن يفتح غرفة السجـين ويأخذ الصحن عنوة من السجين النحيف القصير الصغير العمر.

هذه المشـادة تعني أن تحدث بين السجـين والحراس، مدافعة ومشـادة بالأيـدي، لكـن السجنـاء في داخـل الغـرف لا يملكون إلا الصراخ، أو البصق أو رش الماء على الحراس، استعمل السجناء كل ما في أيديهم؛ احتجاجًا على ما جرى لصاحبهم من قبل الحراس، خـرج الحراس من غرفـة السجين بعد أن أخـذوا طبق الطعام، إن القانـون في السجـن لا يسمـح للحارسـ أن يقتحـم أو يدخل غرفة السجين مهمـا كان السبب، فالذي يستطيع أن يدخل غرفة السجن فقـط هم قـوات مكافحـة الشغب؛ لكن بعـد إذن المسـؤول الكبير، فـكان فعل الحراس هؤلاء فيـه مخالفة لقانون السجن، مما عرض بعضـ هؤلاء الحراس للعقوبة، كما سمعنا، لكن هذا الأمر وما فعله هـذا السجين أيضاً مـن رفض تسليم بقايا الطعـام للحراس سببٌ مشكلات وعقوبات لزملائه في العنبر.

قصة أخرى تبين كيف أن السجين ربما يقوم بفعل يتعب بسببه أصحابه، ويجرّ عليهم العقوبة، وذلك أن الورقة والقلم داخل عنابر سجن الدرجتين الثالثة والرابعة ممنوعان دائمًا إلا عند كتابة الرسائل فقط، فها هو أحد السجناء في طرف العنبر يريد أن يكتب رسالة إلى صاحبه في طرف العنبر الآخر، يبث له فيها همومه وأحزانه، فهو لا يستطيع أن يتكلم أو يرفع صوته لصاحبه؛ حتى لا يستمع الناس إلى كلامه، إذًا فما أحسن طريقة لكتابة رسالة إذا استطاع أن يحصل على قلم وورقة؟ وإذا تيسر تبقى مشكلة من يحمل الرسالة إلى صاحبه في طرف العنبر الآخر، فهو لا يستطيع أن يسلمها للحارس لتوصيلها إلى صاحبها، أي أنه لا بد أن تمر الرسالة عبر جميع الغرف، من شبك الغرف من سجين إلى سجين يستلمها السجين بيده ويسلمها لمن بعده وهكذا.

لكن وقع ما لم يكن في الحسبان في منتصف الطريق، إذ رأى الحارس شيئاً ملفوفاً يتحرك من سجين إلى آخر، فقام الحارس وطلب من السجين الذي وصلت عنده الورقة والقلم أن يسلمه الرسالة التي وصلت إليه من جاره، طبعاً رفض السجين، وسلمها لجاره والجار الآخر لمن بعده؛ حتى يشوش على الحارس، وحتى لا يستطيع مراقبة الوضع، لكن الحارس تابع انتقال الورقة والقلم، وتوقفت الورقة والقلم عند أحد الغرف، ولم يستطع السجين أن

يتصـرف في الورقـة والقلم، مما اضطـره إلى أن يلقي الرسالة في دورة الميـاه، ويصـب فوقها المـاء، فذهبت وتلاشت، وقـام بتسليم القلم إلى الحارس.

النتيجة أن الحارس -وكانت امرأة- كتبت تقريراً عن القصة، جـاء الحراس وفتشـوا جميع الغرف التـي مرَّ فيها القلـم والورقة وصـادروا مـا فيهـا، مـن الممنوعات التـي كانـت فيهـا، كان فيها ممنوعـات مخفية، كان عندهم طعام وفاكهـة وكاسات بلاستيكية ومعجـون وفرش أسنان وحاجات أخـرى ضرورية لكل سجين ولكن هـذه الممنوعـات لا يسمح بتخزينهـا، ويمنع أن تكون مـع السجين، فصادروها ثم أنزلوا عقوبة على أصحاب هذه الغرف.

انظـر كيف سبَّب هذا السجين التعب والعقوبات له، ولأصحابه دون أن يكون لهم أي ذنب، وهذه قصة واحدة من كثير من المشكلات التي تحدث في السجن، ربما كان السجين فيها هو السبب، لكن يجب ألّا ننسـى أن كثـيراً من المشكلات التي تحـدث في السجن ربما كان الحراس هم أنفسهم السبب فيها.

من مشكلات الحراس

وهناك قصة أخرى شاهدتها بعيني حدثت لأحد السجناء في عنبري، إنه جار لي بيني وبينه بضعة أمتار، إنه في الغرفة التي تجاور غرفتي، جاء الحارس، وكانت امرأة فقامت بتفتيش غرفتنا، لما خرجنا إلى المشي والاغتسال، وعندما رجعنا بعد الاغتسال والرياضة إلى غرفتنا، وجدنا أن هذه المرأة قد قامت بتفتيش كل شيء من أغراضنا، كان التفتيش بطريقة استفزازية، إذ بعض الأغراض أنزلته على الأرض، فقد كانت الأغراض على السرير المرتفع عن الأرض، لم ينته الأمر إلى هنا.

فقد أُنزلت عليه عقوبة، تمثلت في أن سحبوا منه معظم الأغراض مدة ثلاثة أيام، وكتبت هذه المرأة في الكمبيوتر أن سبب العقوبة هو أن صاحب هذه الغرفة شتمها وقال لها: أنت سيئة وقبيحة (You are bad and agly) عادة العقوبة لا تنزل ولا تطبق

عليك وقت (الوردية) أو النوبة التي كتبت فيها عليك العقوبة، إنما تأتي العقوبة في وقت النوبة و(الوردية) القادمة، (فالوردية) الأولى مثلاً تكتب عليك العقوبة، و(الوردية) القادمة تطبقها عليك، جاء الحارس وقال للسجين: عليك عقوبة، أعطني أغراضك، فهي ممنوع استعمالها مدة ثلاثة أيام، قال له السجين: لماذا؟ قال له: أنت شتمت الحارس في (الوردية) السابقة.

قال السجين: أنا لم أقل شيئاً لها، أنا لم أتكلم معها أبداً، أنا لست خائفاً من العقوبة، لو قلت لها شيئاً: (أنت سيئة وقبيحة) لما أنكرت ذلك، لكن الحارس لم يلتفت إلى اعتراض صاحب الغرفة، وسحب منه الأغراض مدة ثلاثة أيام، ومثل هذه القصة قصص أخرى كثيرة، وكما يقول المثل: (يا ما في السجن مظاليم) أي كثير من السجناء سجنوا ظلماً.إدارة السجن تقول: يجب تطبيق القانون، حتى عند الأمن من وقوع أي مخالفة أو أي مشكلة، ربما يكون المعتقل مريضاً جداً، لا يستطيع المشي أو القيام، لكن لا بد من تقييده بالسلاسل، مثله.

تطبيق القانون

المعتقل الصحيح مثل المريض، ربما تقول: إنه قد يتظاهر بالمرض والضعف، وإذا أخذوه إلى التحقيق أو إلى الطبيب من دون تقييد، فربما يقوم بعمل مشكلة لهم، أو يقوم بضرب الحارس مثلاً، لكن المعتقل الذي ساقه مبتورة، واستبدلت بها ساق اصطناعية، ولا يستطيع المشي البطيء إلا بعكازتين، كيف سيسرع في المشي، أو يهرب، أو يقوم بضرب الحارس مثلاً.

إن القانون شيء مقدس عندهم، ومقدم على كل شيء، إنك تشاهد السجناء يلقون (يقذفون) الماء والشاي والحليب، وربما البول والغائط، أو يبصقون على الجنود، أو يشتمونهم بأبشع الشتائم، سواء أكانوا جنوداً أم مجندات، لكن الجندي لا يستطيع أن يرد على السجين الرد نفسه، إن أقصى ما يفعله الجندي أو المجندة هو تسجيل رقم الغرفة التي قام صاحبها بهذا العمل، أو

المخالفـة، وتسجيل نوع المخالفـة، إنه يكتب تقريراً عن الحادث، ثم يرفعـه إلى من هو فوقه، لم أرَ حادثة واحدة يرد فيها الجندي على السجـين، حتى الشتم والسب، إن الجندي يـرى ويسمع ما يقوله أو يفعله السجين معه، ثم يكتب ما حدث للمسؤول؛ ليقرر العقوبة.

لا يوجـد شـيء يضيـع أو يفقد وينتهـي هكذا، لا بـد من العد والحساب والضبط لكل ممتلكات السجين أو أغراضه، حتى الملعقة الصغيرة أو قلم الحبر إذا انتهى لا تتلفه أو تلقيه، لا بد من إرجاعه، حتـى بعد انتهاء حبره، كل شيء محسـوب ومعدود، التالف أو الذي انتهـى مفعوله أو عمله، لا بد من تسليمـه وإرجاعه، ربما يفقد قلم حـبر واحد في العنبر، وهو من أبسط الأقلام وأرخصها التي رأيتها في حياتـي، ولا يستعملـه أفقر عبـاد الله، إذا فقد هـذا القلم تقوم إدارة السجن بإجراء تفتيش لجميع غرف العنبر، ولجميع المعتقلين، يقيـدون كل سجـين كما هـو معـروف بالترتيب، ثـم يخرجونه من غرفتـه، يفتشون جسمه ولباسه، شعـر رأسه وشعر لحيته، يفتشون حـذاءه، ثم يقومون بتفتيـش غرفته وجميع أغراضـه بالدقة؛ بحثاً عـن قلـم؛ لأن القلم أداة حادة يمكـن أن يستعملها السجين لضرب الجندي أو جرحه أو إيذائه.

لقـد حـدث في العنبر الذي كنت فيـه أن ملعقـة واحدة فقدت من الجنود، ولا أدري أكان هذا الفقدان حقيقة أم تمثيلاً؛ لأن بعض

الجنود – وهذا يحدث في السجن – قد يتظاهر بفقدان شيء سلمه للسجين، ويتهم السجين بعد ذلك أنه أخفاه؛ تحرشًا أو لاصطناع مشكلة لإيقاع عقوبة على السجين من دون ذنب، مع أن كثيراً من الحراس قد يصدقك لو قلت له أن الوجبة من دون ملعقة، ويحضر لك ملعقة أخرى.

والقصة كما يأتي: إن كل وجبة عسكرية أو غير عسكرية يسلمها الحراس للسجين فيها ملعقة، لكن ملعقة الوجبة العسكرية أطول وأقوى من غيرها من الملاعق، عندما تسلّم السجين الوجبة فتحها وتفقدها، فلم يجد فيها الملعقة، فقال للحارس: لو سمحت أيها الحارس، إن الوجبة من دون ملعقة، قال له الحارس: أعطني الوجبة فتشها الحارس فلم يجد فيها الملعقة؟ قال الحارس للسجين: أنت أخفيت الملعقة، قال له السجين: لم يكن في الوجبة ملعقة حتى أخفيها، لقد تسلمت منك الوجبة الآن قبل ثوانٍ، متى وكيف سأخفي الملعقة.

احتدم النقاش بينهما، الحارس يريد إثبات أن كيس الوجبة فيه ملعقة والسجين يريد أن ينفي ذلك، لم يكترث الحارس بكلام السجين، كان الوقت سحراً يتناول فيه السجناء الذين سيصومون غداً طعام السحور، ليست المشكلة أن تأكل بمعلقة أو بغير ملعقة، سهل أن تأكل من دون ملعقة، لكن المشكلة أن عدم وجود ملعقة يعني أنك تنوي أن تتخذها أداة لتهديد الجنود أو ضربهم بها، السجين

المتهم بإخفاء الملعقة طيب ومسكين، لا يحب المشكلات، ولا يمكن أن يخفي الملعقة لو كانت موجودة، أكل السجين وجبته من دون ملعقة.

وبعد ثلاثين دقيقة عند تسليم بقايا الطعام تسلّم الحارس الأكياس الفارغة (بقايا الطعام) من جميع السجناء، وعادة الحارس يفتش عن الملعقة قبل أي شيء، وقد تسلّم الحارس بقايا الطعام من جميع السجناء بالتمام، لكن هذا السجين لا توجد ملعقة في بقايا الطعام التي أرجعها، تسلّم منه بقايا الطعام، وبعد ذلك قام الحراس بتفتيش الغرف الموجودة عن يمين صاحب المشكلة وشماله، تفتيشاً جسمانيًّا لجميع سكان هذه الغرف، وتفتيش الغرف والأغراض، سواء الغرف التي تسلّم أصحابها الوجبات أم لم يتسلموا؛ لأن بعض الغرف التي لا يريد أصحابها الصيام لم يتسلموا وجبة سحور.

حدث معي ومع جاري ذات مرة مثل هذه القصة، قام الحارس وسلم لنا وجبة الفطور من دون ملعقة.

لم أنتبه أن طبق الطعام من دون ملعقة، إلا بعد أن تجاوز الحارس غرفتي بضعة أمتار، قلت: أيها الحارس، لا توجد ملعقة على طبق الطعام، انتبه جاري للأمر، وقال: أنا أيضاً لا يوجد عندي ملعقة، قال الحارس: أعطيتكما ملعقتين، قلت: لا، سلمتني الطبق من دون ملعقة، وأنا صادق ولو أردت أن أكذب عليك، فجاري

أيضاً ليس عنده ملعقة، لم يكترث بكلامنا، قلت له: أنا لم أعمل أي مخالفة مع أي حارس طيلة وجودي في السجن، إن ملفي في السجن أبيض كالثلج، ارجع إليه إن شئت وجاري رجل طيب، مسكين، لا يحب المشكلات، ليست المشكلة في الأكل بالملعقة أو من دونها، الطعام أصلاً لا يحتاج إلى ملعقة إنه قطعتان (توست) من الخبز الصغير، وقليل من البيض المقلي.

لكن فقدان الملعقة يسبب لك مشكلة، قال الحارس: سأقوم بتفتيشكما، قلت: لا بأس قام الحارس بتقييدنا والتفتيش الجسماني الدقيق لنا، وللغرفة وللأغراض، لم يجد عندنا شيئاً، لكنه سبب لنا مشكلة، ألقى الأغراض على الأرض وعلى الماء، وألقى بعضها على النجاسة على فتحة الحمام وانصرف.

هناك نوع من العقاب تقوم به إدارة السجن للمسجون، العقاب ليس ضربًا ولا سحباً للأغراض، ولا جلوساً في غرف التحقيق ساعات طويلة تحت المكيف، أو فتح سماعات مسجل كبير على السجين في غرفة التحقيق أو غير ذلك، إنه عقاب من نوع آخر، وهو نقل السجين إلى عنبر دلتا، وما أدراك ما عنبر دلتا!

إنه عنبر المرضى جسدياً أو نفسياً، أصحاب الحالات الطارئة، كل من يحاول الانتحار عن طريق المشنقة أو عن طريق جرح نفسه أو

تقطيع شرايين جسمه وأوردته بآلة الحلاقة، فهذا العنبر عنبر غير طبيعي، إنه مكان لعقاب أصحاب الحالات الشاذة غير الطبيعية، وهو أيضاً يستعمل لعقاب الأصحاء؛ ليعيشوا بين المرضى، لأن الإنسان الطبيعي إذا دخل هذا العنبر فسيتعب نفسياً؛ لأنه يعيش بين أناس غير عاديين، لذلك من يدخله لا بد أن يعيش فيه شهوراً دون أن يعمل أي مخالفة أو مشكلة، وإذا فعل أي مخالفة تضاف له مدة أخرى في العنبر فوق المدة الأصلية المقررة له، بحيث تتناسب هذه المدة مع المخالفة التي ارتكبها.

وكل من يعيش في هذا العنبر يتمنى أن يخرج منه بسرعة وينتظر اليوم الذي سيغادر فيه هذا العنبر، لذلك عليه أن يلتزم بقوانين السجن ولوائحه؛ حتى يخرج من هذا العنبر إلى عنبر آخر.

بعد إطلاق سراحنا من (جوانتنامو) ووصولنا إلى قاعدة بجرام في أفغانستان تظهر هناك ملاحظات ومشاهدات.

القانون

إنــك تقف حائراً أمام التزام جميع الجنود والضباط بالقانون والنظــام، لا يستطيــع أحــد منهــم أن يخالف القانــون، إن القانون بالنسبــة لهم مقدس كالإلــه أو الدين بالنسبة لنا، إن عند المسلمين شيئاً يسمى هذا حلال وهذا حرام، هذا يجوز وهذا لا يجوز، هذا فيه أجــر وثواب وهذا فيه إثم وعقوبة، هذا يؤدي إلى الجنة وهذا يؤدي إلى النار، وهكذا... عندهم، لا يوجد مثل هذه الأحكام والتقسيمات إن القانــون هــو كل شــيء عندهــم، إن كان القانون يمنعــه، فهو لا يستطيــع أن يفعله لا بد أن يلتــزم بالقانون؛ حتى لا يقع تحت طائلة العقاب؛ حتى لا تصل إليه يد القانون، لقد كنا في هذه القاعدة بعد رجوعنا من (جوانتنامو) نعيش مختلطين تقريباً مع الجنود، يعيش معنــا في الغرفة منهــم حارسان على مدار الأربــع والعشرين ساعة وربمــا ثلاثة، نذهــب إلى حمام الاغتسال، يكــون واحد منهم معنا، نذهب إلى مكان قضاء الحاجة، يذهب واحد منهم معنا.

إن قسماً منهم كان يلعب معنا الورق، وكان بعضهم يجلس ويأكل معنــا طعامنــا، أما الحديـث والنقاش بيننا وبينهـم في موضوعات مختلفة فكثـير جدًا، لا يمَرُّ يوم إلا ويجري فيه نقاش بيننا وبينهم، إن قسمــاً كبيراً منهم رجالاً ونساءً يدخن السجائر، لكن لا يستطيع أحـد منهم أن يدخن في داخل الغرفة التــي نعيش فيها، إن القانون يمنــع أن يدخن داخـل الغرفــة، كان يذهب خـارج الغرفة ويدخن سيجارته، سواء كان الجو حاراً أم بارداً، لم أشاهد واحداً منهم ولو مــرة واحدة يدخن داخل الغرفة، حتى إن مــكان التدخين في خارج الغرفة له مكان خاص.

ويستحيل أن تجـد جندياً أو ضابطاً يدخن في غير هذا المكان، إن الأرض التي يدخن عليها المدخنون ليست إسمنتية أو ذات رخام أو.... إنهــا حصباء حجارة صغيرة، لكن أعقاب السجائر لها مكان خاص، سلة حديدية صغـيرة توضع فيها أعقاب السجائر، لا يمكن أن تـرى شيئاً من أعقاب السجائر على الأرض، الأوراق أو أي بقايا أخـرى تعجــز أن تجد شيئــاً من هــذه البقايا في الساحــة، إن هذه البقايا لها مكان خاص، وسلات مهملات خاصة.

حتى في دخول المبنى الذي يعملون فيه، وكان يواجه غرفتنا مثلاً يمنــع دخول هذا المبنى بالسلاح لجميع من في القاعدة، الجندي أو مــن فوقه، تجد الجندي أو الضابط، الجميع ينظفون أسلحتهم من

الرصاص أولاً قبل تسليمه لمسؤول المخزن أو المستودع، ثم يدخل المبنى، إنك تعجز أن ترى واحداً منهم يسلم سلاحه للمخزن قبل تنظيفه والتأكد من خلوه من الرصاص، أو يتسلمه من المخزن بعد خروجه من المبنى ويحمله قبل تنظيفه وخلوه من الرصاص، لقد كان بعض الضباط يقومون بزيارات عمل إلى غرفتنا، فتظن لأنهم ضباط ربما يتجاوزون بعض القوانين، لكن عندما تشاهدهم في الساحة لا بد أن ينفذوا ويطبقوا القوانين كغيرهم من الجنود، سواء بسواء.

وقت طابور الصباح والمساء يندر أن يتخلف أحد عن حضور الطابور في موعده، الحضور إلى الطابور قبل موعده بربع ساعة مثلاً، بداية (شفت) أو (وردية) الحراسة طيلة مدة وجودنا في معتقل (جوانتنامو) أو وجودنا في (بجرام) لا يمكن لحارس أن يترك حراسته قبل أن يسلمها لغيره، لمن بعده، حتى لو تأخر الحارس الذي بعده، وهكذا.

ملاحظة

في الحقيقة إن بعض الجنود لا يحب عمل المشكلات، يريد أداء عمله ثم ينصرف، تشعر أن لديه الرغبة في مساعدتك، وربما يتألم لحالك ولقصتك وقضية اعتقالك، إن السجين في ذهنه ومخيلته أمر مرعب ومخيف، ووحش، إن السجين في ذهن هذا الحارس إرهابي (كما يسمونه) قتّال يحب سفك الدماء، يعتدي على الآخرين، لا يحب الآخرين، عنده بعض صفات الجن والشياطين، والأرواح الشريرة التي يمكنها أن تخترق شبك السجن الحديدي، وتطير وتنتقل من مكان إلى آخر، هذا ما يقوله المسؤولون في إدارة السجن عن السجين لهذا الجندي الجديد الذي جاء يقضي خدمة في معتقل (جوانتنامو).

إن بعض الجنود ربما يبوح لك بكثير من الكلام، وكثير من التعليمات التي يتلقونها من مسؤوليهم في طابور الصباح، قبل أن

يتم توزيعهم على عنابر السجن لأداء مهماتهم، إن المجموعات التي تتناوب على حراسة السجناء وخدمتهم تتغير كل ستة أشهر تقريباً، هـذا ما كنا نلاحظه نحن في المجموعات الذاهبة والقادمة إلى هذا المعتقـل، وهذا ما كان يقوله بعض الجنود، إن كثيراً من المجموعات لا تحـب أن تخـدم في هـذه الجزيرة (كوبـا) ولا في هـذا المعتقـل (جوانتنامو) إنهم لا يحبون رؤية هؤلاء السجناء، الإرهابيين، إنهم يحسبـون ويعـدون مدة خدمتهم في هـذه الجزيرة، ليس بالشهور أو الأسابيـع، إنهـم يعدونها بالأيام ولا أبالـغ إن قلت: إنهم يعدونها بالساعات، هكذا كان يظهر منهم.

إن المجموعـة الجديدة من الجنـود عندما تصل هذه الجزيرة يعطونهـا تعليمات جديـدة في كيفية التعامل مـع السجناء، يملؤون رؤوسهـم وقلوبهم عن هـؤلاء الوحوش كما يقولـون هم، وهذا ليس كلامي، بل من كلام بعض الجنود، يقولون لهم: إن هؤلاء الإرهابيين الذين يعيشون في هذه الأقفاص اعتقلناهم وأخرجناهم من الجحور والمغـاور في أفغانستـان، لقـد قيدناهـم وأحضرناهـم هنـا، إنهم خطيرون، لهـم القدرة الكبيرة على الهـرب، إنهم كالجن والأرواح الشريـرة، احذر منهم عندما تقيدهم بالسلاسل أو عند تفتيشهم، كـن حذراً جداً منهـم، لا تتكلم معهم إلا في الضـرورة القصوى، لا تلمـس جسدهـم ولا أي شيء من أغراضهم بيـدك، إنهم مصابون

بالأوبئـة والأمراض المعدية؛ لذلك لا يمكـن أن يأخذ الحارس منك شيئـا أو يعطيك شيئاً إلا وهو يلبس القفاز (gloves) وإذا أردت أن تعطيه شيئاً، أو يستبدل لك معجونًا أو فرشاة أسنان، ولم يكن يلبس القفـاز على يديه يقول لك: انتظر، يذهب ويلبس القفاز، ثم يتسلم منك ما تريد.

إنـك تشعر بالفـرق الكبير بـين معاملة هؤلاء الجنـود عندما يأتـون لأول مرة في بداية دورتهم، وبين معاملتهم بعد مرور شهر أو شهرين مـن وصولهم، السبب أن هؤلاء الجنـود بعد مرور مدة من الزمن ومـن خلال تعاملهم مع السجناء، تتغـير فكرتهم كثيراً عن السجناء، ويشعرون أن إدارة السجن قد ضخمت الأمر، وكبرت لهم القضية عن السجناء، كثيراً جداً، إنها خدعتهم أو بصراحة كذبت عليهـم، إنهـم يكتشفون أن السجنـاء شيء آخر غـير الذي سمعوه وتعلموه من مسؤوليهم.

إن هـؤلاء السجناء أو أكثرهم أناس لا يحبون عمل المشكلات، إنهـم بريئـون من التهم التي توجه إليهم، ليسـوا جميعاً من تنظيم القاعدة أو حركة طالبان، لقد قال أحد المحققين لأحد السجناء: لم يثبـت حتى الآن على جميع من يوجد بهذه القاعدة من المعتقلين أنه مـن تنظيم القاعدة أو حركة طالبان إلا علـى مجموعة قليلة منهم فقط، إنهم أنـاس نظيفون، مرتبون يؤدون عبادتهم وصلاتهم على

أحسن وجه، لا يوجد سجين إن أقيمت الصلاة لا يصلي جماعة مع بقيـة السجناء، إنهم يقرؤون القرآن أو ينصرفون إلى قراءة الكتب الأخـرى المفيدة، إنهـم أعفَّة لا ينظرون إلى النســاء، كثير منهم لا يقبلـون السلام أو اللمس لأي امرأة، كثـير منهم لا يقبلون الخروج إلى التحقيـق أو المشـي والرياضــة والاغتسال إن رافقتــه امرأة، لا يخرجون إلا مضطرين.

إنهم يفضلون ألّا تقوم النساء بخدمتهم وحراستهم في العنابر، إنهم يطالبــون إدارة السجن بأن يستبدل رجال بهؤلاء النساء، لقد شعر هــؤلاء الجنود، ومن خلال المعاملة والاحتــكاك، أو الكلام مع بعضـ السجنــاء، بحقيقة الأمــر، أحسوا بالوضــع الصحيح لهؤلاء السجنــاء، شعروا أن هؤلاء السجنـــاء أقسام، القسم الأكبر والأكثر كان في أفغانستــان مع حركة طالبــان، وعندما قامت الحرب هرب قســم كبير منهــم إلى باكستان يريـد الفرار، يريـد ألا يدخل هذه الحرب، لكن باكستان قامت باعتقالهم عن طريق القبائل الحدودية وسلمتهم للأمريكان وأحضرهم الأمريكان إلى كوبا.

وقســم منهم فــرَّ إلى الجبال والمدن والقــرى الأفغانية، وقسم بقي في موقعه يقاوم ويدافع، فقتل قسم من هؤلاء، وجرح قسم آخر، واستسلم للقوات الأفغانية وتحالف الشمال قسم من هؤلاء، وجميع هــؤلاء أصبحوا في قبضة القوات الأمريكيــة، سمعت أن بعضهم فرَّ

إلى إيــران، لكن إيران لم تسلم للأمريكان أحدًا منهم، إنما سلمت قسمــاً منهم إلى بلدانهــم، وقسمًا آخر سلمته إيــران إلى الحكومة الأفغانية، التي سلمتهم بدورها للأمريكان.

بــدأت عقــدة الحــذر من هــؤلاء السجنــاء تنفك عــن الجنود الجــدد شيئاً فشيئًــا، عندما سمعوا أن قسماً مــن هؤلاء المسجونين أصحاب شهادات عاليــة، وتخصصات محترمة أو نادرة يتعجبون، عندمــا يسمعون أن قسماً من هؤلاء السجنــاء لم يدخل طيلة عمره أفغانستــان، ولم يدخــل معسكــراً في حياته، لا يعــرف التدريب ولا استعمال السلاح أو المتفجرات، إنه كان يعيش في باكستان في أعمال دراسة وتدريســ في العلم والتعليم، إنه يعيشــ في باكستان مهاجرًا فــارّاً بدينه من بــلاده، إنهم كانوا يعيشــون في باكستان، يعملون في مؤسســات إغاثيــة تساعــد المهاجريــن الذين فروا مــن أفغانستان في أثنــاء الغــزو الروســي لأفغانستــان، يعملون في مدارســ وكليات وجامعــات، يدرســ فيها الطــلاب الأفغان المهاجــرون من بلادهم فرارًا من الغزو الروسي لبلادهم.

هذه المؤسسات كانت تقيم المدارس والمعاهد والمستشفيات وملاجئ الأيتــام لهؤلاء المهاجرين، إنهم يعيشــون في باكستان بأوراق وجوازات رسميــة وتصاريح وإقامات صحيحة من الحكومــة الباكستانية، كانوا يسكنــون في بيوتهــم ويعيشون مع عائلاتهم، عندمــا اعتقلتهم القوات

الباكستانية، كانوا يعيشون في مدن تسيطر عليها الحكومة الباكستانية، ما كانوا يعيشون في الجبال والمغاور، ولا في مناطق القبائل المستقلة التي لا تخضع للحكومة الباكستانية، هذه المعلومات التي سمعها الجنود من السجناء ورأوها بأم أعينهم، ولمسوها بأيديهم، ليس يوماً واحداً، أو مرة واحدة بل أياماً، ومراراً وتكراراً مدة شهور متتالية، تغاير تماماً الصورة التي كانت في أذهانهم.

مشاهدة

إن الجنـدي يطبـق النظام، ينفذ الأوامر التـي تأتي من فوقه، بعض الجنود لا يحب التخريب أو القتـل والتدمير، والجنود كبقية الناس العاديين في بلادهم تحب الحياة وتريد التمتع بزينة الحياة الدنيا، وتلبية شهوات النفس، ليس لها هدف آخر، ولا يهمها، حققت بلادهـم أهدافها وطموحاتها أم لا، الجندي عنده وظيفة أو واجب، يريـد إنهاء ساعـات دوامه دون أن يلحق بـه أي نقص أو خصم في مخصصاتـه ولا ينـال العقاب، لا يحب أن يحـدث في أثناء عمله أو ساعـات دوامـه أي مخالفة، حتى لا تطوله يـد القانون بسببها، أما بعـد إنهاء عمله أو خـارج ساعات دوامه فلتنقلـب الدنيا رأساً على عقب، فلا يهمه شيء.

كان تخزيـن الطعـام في أحد العنابر ممنوعـاً، وكان السجناء بحاجـة إلى المحافظة على هـذا الطعام حتى المغـرب؛ لأنهم كانوا

صائمـين، فلما جـاء الحارس الجديد قـال أحد السجنـاء لرئيس الحراس: إن عند بعض السجناء طعامًا، ويطلب منك أن تسمح لهم بتخزينـه من الظهر (الآن) إلى وقت المغرب، وعند المغرب سيأكلون هـذا الطعام، فقال رئيس الحراسـ: لا بأس، ليس هناك مشكلة في تخزيـن هذا الطعام إلى المغرب، أنا موافـق، لكن بشرط ألّا تعملوا لنا مشكلات تتعبنا، قال السجناء: اتفقنا.

في أحـد الأيام كانت حراسـة العنبر لجنود مـن البيض، فلما قاربت حراستهم على الانتهاء وحضرت مجموعة الحراس الجديدة، وكانـوا مـن السود، قال أحـد الحراس البيض الذيـن أنهوا عملهم للسجنـاء: إن هـؤلاء الحراس الجـدد ليسوا جيديـن، ضايقوهم، وسببـوا لهم المتاعب والمشكلات والمشاغبـات، واكسروا لهم أطباق الطعام وكاسات الماء.

معاملة تغيرت

إدارة السجـن، كما سمعت من السابقين الأوائل الذين وصولوا إلى (جوانتنامـو) كانـت تقدم وجبـات الطعـام- العسكرية- لهم كاملـة غير ناقصة، لكن بعد مدة بدأت تفتـح هذه الوجبات وتأخذ منهـا الكثير ثم تقدمها للمعتقلين ناقصـة وغير كاملة، كانت تقدم لهـم فرشـاة الأسنان، الجيدة التي يدها طويلـة، مما يسهل عملية تنظيف الأسنان، فأصبحـت تقدم فرشاة بسيطة جداً ومن دون يد تمسكهـا فيدخلها المعتقل برأسـ إصبعه؛ حتـى يستطيع أن ينظف مـا يستطيع تنظيفه، التنظيـف بهذه الفرشاة غـير جيد، بعد مدة أصبحـت الفرشـاة أحسن حالاً من هذه، لكن ليسـت مثل الفرشاة الأولى، ولعل سبب هـذا التغيير أن إدارة السجن خافت أن يستعمل السجناء الفرشـاة ذات اليد الطويلة أداة حادة لتهديد الحراس أو ضربهم بها.

الصابـون كان يصـرف لكل سجـين صابونة كبـيرة، ومعجون الأسنـان، كان أيضا يصرف لكل سجـين معجون كبير، تغير الحال فأصبح الصابـون صغيرًا جداً وأصبح معجـون الأسنان أصغر من سابقـة؛ لأن بعض السجنـاء بدؤوا يستعملون المعجـون أو الصابون لغسل أرض الزنزانة وتنظيفها، مع أن أرض الزنزانة لها (شامبو) خاص لتنظيفها يعطيه الحراس للمعتقل عند ما يطلبه، لقد شاهد الحراس مثل هذه الأفعال، فرفعوا تقارير إلى المسؤولين عما يجري، فتم تبديل الفرشاة أو الصابون أو معجون الأسنـان.

اختيار

اختيار لباسٍ للمعتقلين في (جوانتنامو) ولكن لماذا اللون البرتقالي؟

ربمـا يظن بعض النـاس أن هـذا الاختيار لهذا اللـون عفوياً، ومـن دون قصـد، وكنت أنا ممن يظن هذا الظـن، حتى سمعت أن هذا اللون من الألوان المكروهة في الإسلام، وقد نهى النبي ﷺ عن اللون الأحمر، وفي الحديث أحب الألوان إلى الشيطان الأحمر. حتى السلم الذي يستعمله الجنود في التسلق والصعود في أعمالهم داخل السجن أحمر، وحتى الطائرة المروحية التي كانت تحلق وتطير فوق المعتقل لونها أحمر، مصبوغة بصباغ اللباس الذي نلبسه، قد يكون هذا التحليل والتفسير داخلاً في اختيار هذا اللون لملابس المعتقلين، وقد يكون هنالك تفسير أو تحليل آخر، والله أعلم بالصواب.

قصة النظارات

بعض المعتقلين معتاد على لبس النظارات لضعف بصره، لما تم ترحيلنـــا من بجرام إلى كوبا، أخذوا منا جميعاً هذه النظارات، ولما وصلنا إلى كوبا وبعد مطالبات كثيرة من المسؤولين، وبعد مضي شهر ونصــف تقريباً تم صرف نظارة لمن يريــد، لكن قوة النظارة ليست هي القوة والمقاس المطلــوب لكل معتقل، إنها نصف المقاس ونصف القــوة المطلوبة لكل شخص، إنــك لا تكاد ترى بها، لكنها أفضل من العدم، ولما اشتكينا إلى إدارة السجن ما نعانيه من ضعف في الرؤية وتعب في القراءة، قالــوا: إن إدارة السجن لا تستطيع صرف نظارة حســب المقاســ المطلوب لكل سجين قلنــا: لماذا؟ قالــوا: إن القانون في هــذه القاعــدة العسكرية (جوانتنامو) لا يسمــح بصرف نظارة للمعتقــل كاملة المقاس، كما يريد المعتقل لنواحٍ أمنية في القاعدة، لا يسمح إلا بصرف نظارة نصف المقاس ونصف المطلوب لكل معتقل،

إن هذا القانون يعني أن تبقى تعاني من ضعف في الرؤية، وهذا يعني أن رؤيتك ستبقى تضعف شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت، إن النظارة الطبيعية ذات المقاس المطلوب ممنوعة لنواحٍ أمنية.

فما عساك أن تؤثر بهذه النظارة عليهم، وماذا عساك أن تكتشف أو ترى فيها؟ هل هي تلسكوب أو منظار ستكشف به الأسرار، أو تخترق به الحواجز، إنها نظارة، نظارة فقط.

تسليم المصحف

لقد كان يحدث أن يقوم بعض الجنود بتفتيش المصحف، وهذا التفتيش يحدث غضباً، وربما إضراباً ومشكلات مع الحراس بسبب هـذا التفتيش، وحتـى لا يتكرر هذا التفتيش مـن الحراس للقرآن، وحتـى لا تحـدث الإهانـة للقرآن الكـريم قرر الكثير مـن المعتقلين تسليـم مصاحفهم إلى إدارة السجـن، لكن إدارة السجن والمسؤول الديني رفضوا استلام المصاحف من المعتقلين، وحصل إصرار من المعتقلـين لتسليـم المصاحف، قابـل هذا الإصـرار رفض قاطع من إدارة السجن باستلام المصاحف.

تغيير الطعام

في هذا العنبر -عنبر العقوبات- تم تغيير الطعام، أصبح الطعام نوعياً أفضل، لكن كمياً أقل، الكمية لا تكفي أغلب السجناء، الفواكه زادت، بعض الأيام يعطون السجين في الصباح نوعين من الفاكهة، وربما في الظهر، لكن ليس في كل الأيام بل في بعضها، هناك يومان في الصباح يقدمون فيهما علبة (صن فلكس) لكل سجين، والشاي والحليب صباحاً بقي كما هو، لكن الحليب بعض الأيام يأتي غير طبيعي، عندئذ لا يشربه معظم السجناء؛ لأنه مغشوش بالماء، أو يكون حليباً جافاً مذاباً في الماء.

كمية اللحم أو الدجاج زادت، لكن كمية الأرز والخبز نقصت، كمية الخضراوات بقيت كما هي تقريباً.

توجس وحذر

مضت الأيام، وشعر السجناء أن هذه الإجراءات التي تعملها إدارة السجن معنا، إنما هي إشارات وعلامات الخروج من السجن، وأن الفرج قريب بإذن الله تعالى، لكن في أحد الأيام، الرياضية، والخروج والمشي والاغتسال تركني الحراس في الحمام- مكان الاغتسال- أكثر من الوقت المعتاد، وهو خمس دقائق، تركني أكثر من عشرين دقيقة، قلت للحارس: ماذا حدث انتهى وقت الاغتسال، أريد الرجوع إلى غرفتي، قال: انتظر، قلت: انتظرت طويلاً مضى الآن نصف ساعة، هذا وقت طويل جداً، أخيراً أرجعوني، وصلت الغرفة، قلت للجيران: ما الأمر؟

لقد أخرني الحراس كثيراً في مكان الاغتسال، قالوا: ماذا يوجد من الكتابة في غرفتك؟ قلت: لا شيء، لا يوجد عندي قلم؛ لأكتب به، قالوا: لقد حضر المحقق والمصور إلى غرفتك وصور المصور

الكتابة الموجـودة في الغرفة وانصرف، فعرفت السر في تأخيري في مـكان الاغتسال، قلت للجيران: إن الكتابة الموجودة في الغرفة بقلم الحـبر الجاف منذ شهـر، لم أستطع أن أقرأهـا، قلت لجاري: هل تستطيع قراءتها؟ قال: نعم، الكتابة هي: إذا ضاقت عليك الأحوال، أو الدنيـا فعليك بـ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وكلام آخر نسيته، يحض ويأمر بالصبر وتحمل الأذى، قلت: كل هذا التأخير وحضور المحقق والمصور من أجل هذا الكلام.

إن هـذا الكلام لا يشكل أي خطر علـى السجين والسجناء، ولا يحمل أي معنى للتحريض أو الإضراب، لا يشتم ولا ينتقد أمريكا ولا أحـدًا من الناس، لكـن إدارة السجن أو من فوقهم لا يوجد عندهم شيء اسمه مزاح أو هزار، كل ما تقوله وكل ما تكتبه وحتى كل إشارة منك يأخذونها مأخذ الجـد، ويسألون عنها، ويجرون معك تحقيقاً بشأنهـا، إنهـم يحسبون لهـا ليس حسابـاً واحداً بل ألـف حساب، ويفسرونهـا ويحللونها بتفسيرات وتحليلات لا تخطر على بال أحد، ولا تأتي، بمقصد إنســان ويفترضون لها افتراضات لا تتحقق حتى في المنام والأحلام.

حـدث أن أحد السجناء خرج إلى مـكان المشي والرياضة وبدأ يرسـم علـى الأرض الإسمنتية، بحصـى صغيرة جـداً شيئاً يلعب بـه أو يعبـث به، هكـذا دون أن يكون لـه أي معنـى أو أي قصد، رآه

الحارس وهو يلعب ويرسم، وبعد خروجه من مكان المشي ورجوعه إلى غرفته، ذهب الحارس وأخبر المسؤول بما رأى، حضر المحقق والمصور الذي صوّر هذه الرسومات الموجودة على الأرض، وقام المحقق وطلب السجين وسأله عن معنى هذا الرسم وما المقصود منه، ظن المحقق أن هذا الرسم خطة لأمر خطير- كروكة- بروفة- تدريب- لعملية ما.

قال لهم السجين: إن هذا مجرد لعب، شيء لا معنى له ولا أقصد منه أي شيء، إنك تشعر أن هؤلاء القوم لا يوجد عندهم شيء لا معنى له، أو لا قصد فيه، لا بد أن تفسر كل ما تقوله أو تكتبه أو ترسمه أو تشير به، كل شيء يصدر منك يخضع للتحقيق، للفحص، للتحليل، للبحث.

التفتيش

إدارة السجن تقوم بين الحين والحين بتفتيش عام لكل عنابر السجن والسجناء، تفتيش كل ما يوجد عندك من أغراض، حتى الكتب إن كان عندك كتب، أي ورقة أي صورة، أي رسم أو إشارة، أو كتابات، يجمعون كل ما يجدونه في غرفتك يوضع في كيس، كل غرفة لها مغلف أو كيس وحده عليه رقم الغرفة، يذهب هذا المغلف للتحقيق للبحث فيه وتحليله وتفسيره، وربما يطلبونك للتحقيق؛ ليسألوك عنه إن تطلب الأمر ذلك.

التفتيش يكون في ليلة واحدة لجميع عنابر السجن، يقطعون الماء، يغلقونه عن جميع العنابر؛ حتى لا يقوم أحد السجناء بتهريب أو إتلاف شيء وتسريبه في الحمام،- مكان قضاء الحاجة، وحتى هذا المكان يقوم الحراس بتفتيشه؛ حتى لا يقوم أحد بتسريب أو وضع شيء فيه، يبدأ التفتيش عنبراً بعد عنبر، يقيد السجين بالسلاسل

كمـا ذكرنا مـن قبل داخل غرفتـه ويقف ووجهه إلى جـدار الغرفة المشبـك، يقوم الحراسـ بتفتيشه تفتيشاً دقيقـاً جسده، وملابسه، وحـذاءه، وشعر رأسه وشعر لحيته، والطاقية إن وجدت على رأسه، يُفَتش حـذاؤه، ويخرج به الحراس إلى مـكان الرياضة والمشي، ثم تُفَتشـ غرفته، أي تقلب في الغرفـة، وتفتش أغراضه وفراشه وكتبه، حتى القرآن الكـريم، يقوم مترجم عربي بفتح صفحات المصحف، والحارس ينظر إليه، وأي ورقة أو كتاب أو صورة أو رسمة، أي شيء مكتوب يجمع في مغلف ويرسل إلى التحقيق.

والكثـير مـن السجنـاء خضعـوا للتحقيـق بسبب كتابـات أو رسومـات وجدت في غرفهم، حتـى إن أحد السجناء في عنبري كان يكتب شعراً باللغة الإنجليزية، كان هذا السجين لا يعرف العربية إلا قليـلاً، هو من بريطانيا، هذا الشعـر كان يحفظه غيباً، وكان يكتبه رمـوزًا وكلمات ناقصة؛ حتى لا ينتحلها أحـد أو ينسبها إلى نفسه، هـذا الشعر كان ينتقد فيه السجن والسجان والمعاملة القاسية التي يتعامل بهـا السجان مع السجين، ينتقد فيهـا أمريكا وسياستها في معاملـة الشعـوب، يقـول في شعـره: إن الإنسان الأمريكـي مرتاح، مسرور على حساب غيره، الناس تنزف دماؤهم، فقراء بحاجة إلى المساعـدة، لكن لا يلتفت إليهـم أحد. وهكذا كانت معاني القصيدة كمـا أذكر، لما وجد الحراسـ هذه القصيـدة ذات الرموز، ناقصة

الحـروف في أثنـاء التفتيش، وضعت عليه عقوبـة ونقل إلى السجن الانفـرادي بسبب هذا الشعر، وطبعاً صـودرت القصيدة ولم ترجع لـه، رفض تسليمهـم القصيـدة في البداية، وحدثـت مناقشة بينه وبـين الحراس ولم يسلمهـم القصيدة إلا بعد تعـب، لا بد أن يسلم القصيـدة من أول أمر، سجين آخر يسكـن في العنبر الذي أسكنه، رأى الحارسـ عنـده صـورة مسجد، قـال له الحارسـ: يمنع رسم المساجـد والاحتفاظ بهـا، لا بد من تسليم هـذه الصورة للحراس، قال له السجين: أنتم تسلمون لنا الورق والقلم، ماذا سنفعل بالقلم والورقة، إلا الكتابة أو الرسم.

رفضـ السجين تسليـم صورة المسجد للحارسـ، رفع الحارس الأمـر إلى مسؤوله، والمسـؤول إلى مسؤول أكبر منه، حضر المسؤول الكبـير إلى العنـبر وبعـد مشـادة في الـكلام سحب الصـورة من السجـين، وسجلت عقوبة على السجين؛ لأنـه رفض تسليم الصورة من أول مرة للحارسـ، فهذا يُعد عصياناً لأوامر الحراس. والورقة والقلم لا تسلمان إلا لمن كان من الدرجة الأولى.

سجـين آخر كتب على الـورق الذي يتسلَّمه مـن الحراس آيات وأحاديـث تحض على الجهـاد، وتبين أجر المجاهديـن والصبر في الجهـاد، ودرجات الشهـادة، لما جـرى تفتيش عـام للعنابر صودر الـورق من صاحبه، مـع أن هذه الآيـات في القرآن الموجـود بأيدي

السجنـاء، وهـذه الأحاديث موجـودة في الكتب التـي تسلمها إدارة السجن للسجناء، هذا شيء عجيب ومتناقض.

لقـد رأيت أحد جيراني تصادر إدارة السجـن أوراقه التي كتب عليها دروسًا في اللغة العربية، النحو والإعراب وتجويد القرآن، سجين آخر في العنبر الذي أسكنه رأى معه الحارس ورقة فطلبها منه فرفض المعتقـل، قام الحارس ورفع الأمر إلى مسؤوله الذي أصر على تسليم الورقـة، رفض السجـين الأمر وقـام بتقطيع الورقة قطعـاً صغيرة، وأعطاها للمسؤول الذي عَدَّ هذا التقطيع عملاً يستحق عليه السجين عقوبة، وفعلاً وقعت عليه عقوبة ونقل إلى العنبر الانفرادي.

أحد جـيراني الذي بينه وبيني الشبك فقـط أعطاني ورقة عبر الشبـك، فرآه الحارس، جـاء الحارس وقال: ما هـذه الورقة؟ قلت: ورقة مـن جاري، قام الحارسـ ورفع الأمر لمسؤولـه، حضر المسؤول وقال: أين الورقة؟ قلت له: تريدها خذها هي رسالة والرسالة قبل أن تصل لصاحبها تمر على التحقيق ويقرؤها التحقيق ويشطب ما يريده منهـا أو يتركها كما هي، يريد جـاري أن يطلعني على بعض أخباره، وأخبار بلده، إنها أخبار عادية، ومثل هذه الحوادث يقع كثيرًا.

بشارة

في اليــوم نفسه الذي وجد الحراس الكتابة في غرفتي، تم نقلي إلى غرفــة أخــرى، ولكــن في العنبر نفســه، كان النقــل قبل الظهر بساعة، لكن بعد صلاة الظهر مباشرة، جاء الحراس وقالوا: عليك تحقيــق، قلت لهــم: جاهز، قُيدت بالسلاسل -كمــا هي العادة- ثم التفتيــش، سرت مــع الحراســ، ظننــت أن التحقيــق سيكون حول الكتابــة التي وجدوها مكتوبة في غرفتــي اليوم، دخلت الغرفة، لكن وجــدت مصوراً وثلاثــة رجال وقوفــاً، وأمامهم علــى الطاولة حبر وأدوات تتعلــق بالبصمــات، لم أجلس، قــام الحارس بفك قيد يدي اليمنــى فقط، وقام رجل آخر يمسك أصابعي، وأخذ بصماتها على الــورق الأبيضــ، وعلــى أوراق بلاستيكية ملساء، كانــت البصمات لجميع أصابع يدي اليمنى بأشكال مختلفة، رأس الأصابع ثم جميع الأصابــع، ثــم الكف مــرة واحدة، لا يقــل عن عشريــن بصمة لليد الواحدة، ومثلها لليد الأخرى.

ثم جاء دور التصوير، التصوير للوجه من الأمام، ثم عن جهة اليمين، ثم من الجهة اليسرى، ومن زوايا مختلفة، لم يكن الأمر بالنسبة لي مكلفاً أو شاقاً، ما كان يوجد عندي أي مضايقة نفسية أو بدنية مما يفعلونه، كنت أفكر فيما يفعلونه معي في هذه الجلسات الأخيرة، وأتوقع وآمل أن الأمور في السجن في لمساتها الأخيرة، وأن كل ما يجري يشير إلى أن نهاية هذه المأساة قريبة جداً، كان الأشخاص الذين يعملون البصمات لي عاديين، لم تظهر منهم شدة أو قسوة، لا في العمل ولا في القول، انتهى الأمر ورجعت إلى غرفتي، كان هذا اليوم، وما جرى معي في غرفة التحقيق من أخذ البصمات والتصوير هو آخر أيام ذهابي لغرف التحقيق، كانت هذه هي آخر مقابلة تتم بيني وبين إدارة السجن، ولما أخبرت جيراني في العنبر عما حدث معي، قالوا: هذه بشارة خير لك، والفرج قريب -إن شاء الله تعالى- هذه الإجراءات يعملونها مع الذين يتم إطلاق سراحهم.

عنبر جديد

بعد يومين قامت إدارة السجن بنقل جميع هذا العنبر إلى عنبر آخـر؛ لعمل ترميمات وتصليحـات في العنبر، أما السبب أو العلة في هذا النقـل، فإن الاحتجاجـات التي يقوم بها السجنــاء في العنابر يصاحبهـا ضرب على الأسِرّة، وضرب على جدران الغرفة، أو على بابهـا لإحداث أصـوات مزعجـة؛ ليضطر الحراسـ إلى استدعاء المسؤولـين لمعرفة مشكلات السجنــاء، أو للبحث في تلبية مطالبهم، أو أن الاحتجـاج يكـون على عمل قام به الحراسـ، أو المحققون مع أحد السجناء، أو مـع بعضهم كتفتيش المصحف الشريف أو إهانته أو الاستهزاء بالدين أو بالرسول ﷺ.

انتقلنا إلى العنبر الجديد كل شيء فيه نظيف، طلاء الجدران مريح للنظر؛ لأن الطلاء القديم كان متعباً للنظر، ومضعفاً له، الآن الطـلاء الجديد من الأرضـ إلى ارتفاع متر ونصـف تقريباً مطلي

باللـون الأخضر، ومن ارتفاع متر ونصـف إلى سقف الغرفة مطلي باللـون الأسود هذا الترتيب في الطلاء على الجدران الأربعة للغرفة التي تسكنها، وهو ترتيب جميع العنبر من أوله إلى آخره، إنه مريح للنظر وأفضل من الطلاء القديم.

ثم إن السرير أصبح قريباً من الأرض يرتفع نصف متر تقريباً عـن الأرض مغلـق من كافة الجهـات لا يحدث صوتـاً مزعجاً عند الضـرب عليه، الإضـاءة في العنـبر أصبحت قوية جـداً وفي داخل كل غرفـة مصبـاح قـوي، بينمـا الإضـاءة السابقة كانـت عادية، وكانـت الإضاءة موجودة في الممـر الموجود بين الغرف، ولا يوجد في الغرف لمبات أو مصابيح للإضاءة، باب الغرفة أصبحت له فتحتان (نافذتـان) ، نافـذة سابقة علوية لإدخال الطعـام والدواء واللباس منهـا، كما أنها لتقييد يـدي السجين وربطه منهـا وفتحة في أسفل الباب؛ ليتم منها تقييد السجين في قدميه وهو واقف.

عنبر المسافرين

لم أمكث في هذا العنبر إلا عشرة أيام تقريباً، وفي صبيحة اليوم الأخير لي في هذا العنبر، وبعد تناول طعام الإفطار، جاء الحراس وقالوا لي: سوف تنتقل إلى عنبر نوفمبر، قلت لهم: لماذا، ماذا حدث، أنا لم أفعل أي مخالفة؟ عنبر نوفمبر هذا عنبر انفرادي، وقد كان عنبرًا يرسل إليه أصحاب العقوبات والمخالفات، وقد دخلته قبل ذلك مرتين، المرة الأولى عند وصولي إلى كوبا شهر ٨/ ٢٠٠٢ م والمرة الثانية لما حدثت مشكلات في العنبر الذي كنت أسكنه وقام الحراس بمعاقبة كل من اشترك في أعمال الشتم والرش على الحراس ومن لم يرش، وكنت من القسم الأخير ممن لم يشترك في أعمال الرش والشتم، قال الحراس: هيا اجمع أغراضك؛ لتذهب إلى عنبر نوفمبر.

وضعت أغراضي في الكيس، تم التقييد ثم التفتيش، أما الجيران في العنبر، فقالوا: وداعاً أبا عبد الله، اللقاء في الأردن،

هــذا العنبر الذي تنقل إليه نوفمبر أصبح عنبر المسافرين، يتم فيه جمــع السجناء الذين ستجرى لهم ترتيبات الخروج من السجن ثم السفــر، استبشرت خيراً بمــا سمعت، مشيت باســم الله إلى عنبر نوفمــبر، وجدت فيه ثلاثة سجناء، أعرف منهم اثنين من المساكين الطيبــين الذيــن اعتقلهم تحالــف الشمال الأفغــاني وسلموهم إلى الأمريكان، أو باعوهم للأمريكان، أحدهم تركي والثاني كردي من العــراق، لما عرفوا أني أنا الداخل إلى العنــبر، قالوا: أبشر أبا عبد الله، هذا العنبر (نوفمبر) عنبر المسافرين.

لقــد خرجــت وانطلقت من هــذا العنبر مجموعتــان قبلنا إلى بلادهــم، السجين الثالــث ما سبــق أن عرفته إنه دكتــور طاجيكي اعتقــل داخل أفغانستــان، وبعد قليــل جاء الحراســ بسجين آخر، سمعــت أنه مــن العــراق أصبح مجموعتــا خمسة سجنــاء، دخلت الغرفــة الانفرادية في هذا العنبر، طلبت من الحارس أن يبقى معي بعضــ الأغراض، قــال: انتظر سأسأل، ذهب ثــم رجع قال: لا بأس يمكنــك أن تحتفظ بأغراضك كلها، قلت: هــذه واحدة واستبشرت خيراً؛ لأن هذه الأغراض عادة كانوا يأخذونها من كل سجين يدخل هــذا العنبر، قلت له: أريــد الفرشة الكبيرة، قــال: انتظر سأسأل، ذهــب ورجع، قال: خذ هذه الفرشة الكبيرة للنوم عليها، قلت: هذه بشارة ثانية؛ لأن من عليه عقوبة لا يأخذ هذه الفرشة.

بعد ساعتين جاء الجنود من خارج العنبر، وأخذوا قياس كل سجين، البنطال والقميص، الحذاء، قلت: هذه بشارة ثالثة؛ لأن السجين الذي يطلق سراحه يترك اللباس الأحمر ويعطى لباساً آخر جديداً غير أحمر، بدأنا نحن الخمسة نطمئن بعضنا بعضاً بأن الفرج قريب بإذن الله تعالى خلال يومين أو ثلاثة، بعد يومين جاء الجنود الذين قاموا بقياس الملابس والحذاء لنا ومعهم حقائب خمسة، لكل واحد منا حقيبة عليها رقمه في السجن وفيها ملابسه، قمنا بقياس الملابس والحذاء لمعرفة أنها ملائمة أو غير ملائمة، كبيرة أو صغيرة، الملابس تتكون من بنطلون جينز، وجاكيت جينز أزرقين، فانيلة بيضاء ولباس داخلي، وجرابات وحذاء رياضي أبيض اللون، بعد عملية القياس أرجعناها إلى الحقيبة، قلنا: هذه بشارة أخرى بالفرج القريب، وفي اليوم نفسه جاء شخصان وجلسَا مع كل واحد منا على انفراد في مكان المشي والرياضة، وأخبراني أنني سأخرج من هذا المكان قريباً، ستسافر، قلت: إلى أين سأسافر؟

قال أحدهما: أنا لا أعرف إلى أين ستسافر، أنا لم أقرأ ملفك أو أراجع قضيتك، لكن أنا أعرف أنك ستخرج من هذا المكان قريباً جداً، قلنا: هذه بشارة أخرى بأن فرج الله قريب، وفي اليوم اللاحق جاء شخصان من منظمة الصليب الأحمر، وجلسا مع كل واحد منا على انفراد في مكان المشي والرياضة، وقالا لي: أنت ستسافر إلى

بلـدك غـداً أو بعد غد، لكنه ربما تنزل الطائـرة التي ستحملكم في محطـات قبل أن تنزل في بلدك، وربما يقيدون أرجلكم في الطائرة، لكن لن يستروا عيونكم، لن يضعوا عليها ساتراً، قلت: الله المستعان، ماذا سنفعل؟

قلنا: هذه بشارة أخرى بأن فرج الله قد اقترب جداً بعد عصر هذا اليوم جاء الحراس ووضعوا الاسم والرقم لكل واحد منا على كلتـا يديه، الذين معي في العنبر قالوا: السفر سيكون اليوم أو غداً، لكـن لا يستطيـع أحـد أن يجزم أو يحـدد موعد السفـر، نمنا تلك الليلـة مستبشرين على أمل أن يكـون السفر هذه الليلة، وقد وقع ما تأملنـاه، ففـي الساعة الثانية بعد منتصف الليـل دق الحارس على الباب، وقال: انهض خذ هذه الوجبة من الطعام- الوجبة العسكرية المعروفـة التي سبق ذكرها- قلـت له: أنا لا أريد الصيـام غداً، أنا لم أسجـل اسمي في قائمـة الصائمين غداً، لأن هـذه الوجبة عادة يقدمونها سحوراً لمن أراد أن يصوم غداً.

لم يلتفت الحارس إلى كلامي، قال: خذ هذه وكلْها بسرعة ووقف ينتظـرني على فتحة الباب، نظرت فـإذا جميع الذين معي في العنبر يقدمـون لهم هذه الوجبـة وأمام كل غرفة الحقيبـة التي يوجد فيها ملابس كل واحد منا وكل حقيبة عليها رقم السجين، وهذه هي الحقيبة التي رأيناها قبل يومين عندما قمنا بقياس الملابس والحذاء.

أكلت ما أستطيع مـن الوجبة بسرعة ولم يمهلني الحارس لأكل باقي الوجبة وقال: انتهى الوقت، أعطني ما تبقى منها، أخذه ثم بدأ يناولني الملابس قطعة، قطعة، حتى انتهت الملابس وقال: لا تضع أي شيء في جيوبك، حتى مناديل الورق- الفاين- قلت: هذا جيد، قال: مد يديك قيدهما ثـم قيد وسطي بالحزام، واليدان إلى الأمام على البطـن دون تقييد الرجلين، ثم فتـح الباب، فخرجت وقام الحراس بتفتيشـي جيـداً على باب الزنزانة، مع أن كل مـا ألبسه من ملابس كان معهم قبل دقائق، وهم الذين سلموني إياها، قال: أين القرآن؟

قلت: في داخل الغرفة، فتح لي الحقيبة وقال: ضع القرآن داخل الحقيبـة، أغلقها ثم حملها أحد الحراسـ، وانطلقنا نحن الخمسة خلـف بعضنا، شعـرت العنابر المجاورة بحركتنـا وأصواتنا، عرفوا أن هـذه المجموعـة قد أفرج عنها وهي مسافـرة إلى بلادها، بدؤوا يرفعـون أصواتهـم في هذا الجزء من الليل، وكانـت الساعة الثالثة بعـد منتصف الليل، وأخذوا يسلمون علينـا ويودعوننا ويطلبون منا المسامحة، مشينـا إلى خارج العنبر، وجدنـا الحافلة ركبناها وكنا بعيدين عن بعضنا، كل واحد منا في كرسي ويجلس عن يمينه حارس وعن يساره حارس، والحافلة مغطاة لا نرى شيئاً خارجها.

سارت الحافلة لكن لا ندري إلى أين تسير، وصلنا إلى حافة الماء - شاطـئ- كما يبدو شعرنا أن الحافلة قد دخلت على ظهر سفينة،

سـارت السفينـة مسافة قليلة ثم توقفت، خرجـت الحافلة من على ظهرهـا، سارت قليلا، دقائق، ثم توقفـت، بدأ الحراس يفكون عنا كل القيود، نزلنا من الحافلة واحد تلو الآخر، نظرت وإذا بحافلتين أخريـين يبدو أن فيهما أشخاصًا مثلنا قد أفرج عنهم، بدأنا نمشي نحو الطائرة والطائرة عسكرية كبيرة ذات أصوات عالية، وفي أثناء المشي كان هناك مصورون يأخذون الصور.

مغادرة كوبا

على باب الطائرة وقف بعض الجنود يأخذون أرقامنا الموجودة علـى أيدينا، وقفت على باب الطائرة من دون قيد، حراس الطائرة بـدؤوا يقيدونني من جديد، وهذا القيد مثل الذي حصل لنا عندما نقلونـا، مـن بجـرام إلى كوبا لكنـه أخف قليـلاً، تُقَيَّـد اليدان مع الوسط، وهما في الأمام على جهة البطن، ثم السلسلة تنزل وتتصل بالسلسلة التي تقيد الرجلـين، العيون مغطاة بنظارة سوداء لا ترى منهـا شيئاً، كما أن الأذنين مغلقتان، والأنـف والفم مغلقان بقطعة قماش، جلسـت على مقعد الطائـرة الطولي، قـام الحراس بربط وسطـي بسلسلة في مقعد الطائـرة للتثبيت على مقعد الطائرة، وتم تقييـد الرجلين بحلقة مثبتة في أرض الطائرة، لكن الجديد في هذه الرحلـة أن قائـد الطائرة، أعلـن أن رحلته ستستغـرق من ١٦-١٨ سـاعـة من هذه القاعدة- جوانتنامـو- إلى قاعدة في تركيا، نسيت

اسمها، صفق الجنود، ورفعوا أصواتهم موافقين أو قالوا: هذا سفر بعيد أو لا أعلم بالضبط ما قالوه.

أقلعت الطائرة وكان الوقت قريباً من الفجر كنا نشعر بسرعة الطائرة الكبيرة، كان الكابتن يكلمهم بين حين وآخر، عند الأكل والشرب، يقوم الحارس بإنزال أو رفع قطعة القماش عن فمك، ويعطيك الطعام ساندوش فول سوداني يضعه بين يديك، ترفع يديك قليلاً بالطعام، ثم تنحني وتنزل رأسك قليلاً، حتى يصل فمك إلى الساندويش، وإذا احتجت إلى الماء يأتي الحارس ويرفع قارورة الماء إلى فمك ويسقيك منها، بعد انتهاء الأكل والشرب يقوم الحارس بإرجاع قطعة القماش (غطاء الفم) إلى مكانه على الفم والأنف.

عند قضاء الحاجة يقوم الحارسان بفك قيد مقعد الطائرة عن وسطك، وفك قيد الرجلين من الحلقة المثبتة في أرض الطائرة، يمسك بك الحارسان، ويقودانك إلى حمام الطائرة، أنت لا ترى شيئاً، لكن لو حاولت ربما ترى شيئاً، يجلسك الحارسان على الحمام الإفرنجي وأنت مقيد اليدين والرجلين فيقومان بخلع ملابسك، تقضي حاجتك ولا تستطيع أن تنظف نفسك، لأنك مقيد، ثم هم لا يسمحون لك أن تحمل أي منديل ورق، وهم لا يقدمون لك أي مساعدة، هذا الحمام ليس له باب تقضي حاجتك والجنود يجلسون مقابلك بينك وبينهم أمتار قليلة.

بعـد انتهـاء هذه العمليـة يقومان بإرجـاع البنطـال كما كان، يلبسانـك الثيـاب وترجـع إلى مكانك علـى مقعد الطائـرة، ويعود لـك القيد في وسطك وقدميك كمـا كان، كنا نصلي على حالنا دون وضـوء ودون تيمـم ودون معرفـة الوقـت، وإن سألنـا الحراس عن الوقـت لا يجيبـك أحد، كنا نقدر الوقت بالتقديـر والظن، بعد هذا السير الطويل هبطت الطائرة، لكن لا ندري أين هبطت، نشعر أنها أنزلت أناساً لا نعرف من هم، مكثت ساعة في هذا المكان.

ثم أقلعت الطائرة، لا ندري إلى أين أقلعت، بعد ساعات هبطت مـرة أخرى، وبعـد أن توقفت تمامـاً جاء الحراس، وفكـوا الرباط الـذي يربطنا بمقعد الطائرة، وفكـوا القيد الذي يربطنا ويثبتنا في الأرض، أوقفونا على باب الطائرة، أزالوا عنا غطاء العيون، وغطاء الأذن والفم والأنف، وبقيت سلاسل الأيدي والأرجل.

الوصول إلى بجرام

كان الوقت قريباً من منتصف النهار، لكن لا أعرف اسم هذا المكان، أركبونا في سيارة صغيرة إلى مسافة قصيرة، ثم أنزلونا إلى غرفة خشبية فيها أربعة أسِرّة، بعد أن فكوا القيود والسلاسل عنا، فكان هذا الوقت هو آخر عهدنا بالقيود والسلاسل والحمد لله رب العالمين، سألت من معي: ما اسم هذا المكان؟ أنا لا أعرفه، قال لي: إنه قاعدة بجرام الأفغانية.

قلت: أرجعونا إلى المكان الذي انطلقنا منه. عندما وصلنا، قال لنا الجنود: أنتم هنا في قاعدة بجرام القريبة من كابل، وأنتم هنا ضيوف عندنا عدة أيام، وستغادرون هذا المكان إلى بلادكم، لا علاقة لكم بقوانين هذا المكان وأنظمته، لن تذهبوا إلى غرف التحقيق، لن يسألكم أحد عن أي موضوع، سياسي، أو أمني أو غيره...

كل مـن يطلـق سراحه مـن جوانتنامو- كوبا- ويأتـي إلى هذا المكان- بجـرام- يجلس هنـا أياماً، ثم يعـود إلى بلـده، كان أحد الأربعة الذين معي أعرفه، كنا في باكستان عدة سنوات واعتقلنا في باكستان في ليلة واحدة، وكنا في سجن واحد، ثم كنا معاً عندما نُقلنا من بيشاور إلى قاعدة بجرام، وكنا معاً عندما نقلونا من بجرام إلى كوبـا، تجاورنا في معتقل جوانتنامو مدة من الزمن، وأطلق سراحنا من معتقل جوانتنامو معـاً، وعندما رأيته في بجرام، حين نزلنا من الطائـرة القادمة من كوبا فرحت به فرحاً شديداً، وسألته عن كثير مـن السجناء في كوبا، فأخبرني أن الذين أطلق سراحهم في دفعتنا - وكنـا في الطائـرة من جوانتنامو إلى تركيا، ثـم إلى بجرام- اثنا عشـر معتقلاً (١٢) اثنان من السـودان، وواحد أردني، وعراقيان، وطاجيكيان، وتركي.

كل هـؤلاء نزلوا في تركيا، وبقينا نحـن الأربعة نزلنا في بجرام وهم أردني (أنا) وسوري وإيراني وأفغاني، إن هذه القاعدة سبق أن نزلنا فيها معتقلين مقيدين بالسلاسل، عندما رحلونا من باكستان إلى بجـرام، لكن مكان الاعتقـال كان في داخل مبنى من الإسمنت، مكثنـا فيـه شهرين، ولا يـزال هذا المبنـى إلى الآن فيـه معتقلون، ممن تعتقلهـم القوات الأمريكيـة، أو قوات التحالـف الأفغانية، أو مـن تعتقلهم باكستان ومـا جاورها، لكن نحـن الآن نزلنا في غرفة

خشبيـة مجاورة لذلك المبنى الإسمنتـي، وليس بيننا وبين السجناء الذيـن في داخل هذا المبنى أي علاقـة، لا نلتقي بهم ولا نراهم، ولا نكلمهـم، لكن سمعنـا أن أحوالهم الآن أحسن مـن أحوالنا، عندما كنا في هذا المكان قبـل سنتين تقريباً، حياتنا الآن في قاعدة بجرام ليست كالحياة في قاعدة جوانتنامو، هنا الحياة أفضل، لكنها حياة ليس فيها حرية تامة.

الطعام في بجرام

الطعـام هنـا متشابه، طيلة المدة التـي قضيناهـا في بجرام بعد خروجـي مـن كوبا أربعة أشهـر ونصف تقريباً، مـن ١/٤/٢٠٠٤م إلى ١٢/٨/٢٠٠٤م الفطـور، والغداء والعشـاء كان متشابهاً، وجبة معلبـة، إمـا أرزًا بقطـع الدجاج الصغـير والقليـل، أو يوجد مكان الدجـاج لحم، أو معكرونة أو أرزًا بالبازيلاء السوداء بقطع الدجاج الصغير، وإما بطاطا مع الطماطم وقطع الدجاج الصغير والقليل، أربـع أو خمسـ وجبـات معلبة، كل وقـت لك وجبة واحـدة من هذه الوجبات، مع قطعتين من البسكويت وعلبتين صغيرتين من (الصن فلكسـ) نوع من البسكويت الخفيف وكيس صغير جداً من الفستق، مع كيس صغير جداً من لباب- بزر أقراص الشمس.

أمـا الخبز فقد نراه في كل أسبوع مـرة، وقد لا نراه وهو أصلاً لا يأتـي إلينا، بل يأتي للمعتقلـين في داخل المبنى القريب منا، ولكن

ربما طلبنا من الحارس أن يأتينا بقليل من الخبز من الداخل، وقد يوافـق وقد لا يوافق، أما الفاكهة فعندمـا وصلنا إلى بجرام وجدنا في الغرفة صندوق تفاح وصندوق بيبسي كولا، وصندوقًا فيه أكياس مجففـة من الموز، ثم اختفـت الفاكهة بعد انتهاء هـذه الصناديق، والشاي والحليب ممنوعان، رأيناهما مرة أو مرتين طيلة المدة.

رفعنـا شكوى للمسؤول أكـثر من مرة بأن يغـيروا لنا الطعام، فكان الجواب بالرفض، كان الجيش له وجبة معلبة عسكرية خاصة بـه، وكان له وجبة ساخنـة يومياً بعد الظهر فيها دجـاج أو لحم أو سمـك ومشروب بيبسـي أو نحوه، قلنا لهم: تعطوننـا وجبة ساخنة يوميـاً أو وجبـة عسكرية، فرفضـوا طلبنا، لكن أيضـاً حتى الوجبة التي تصرف لنا هي أصلاً تأتينا كاملة مغلقة في كيس، لكنهم يفكون الكيس ويأخذون منها حاجات ويعطوننا الباقي، يأخذون منها كيسًا خاصًـا لتسخـين الوجبـة إن كان الجو بارداً، ويأخـذون منها الملح، والشـاي، والـكاكاو، والقهوة، قلنا لهم: لو تقدمـون لنا هذه الوجبة كاملة ولا تأخذون منهـا شيئاً، فرفضوا ذلك، حقيقة كنا نعاني من مشـكلات في المعدة بسبب تكرار هـذه الوجبة علينا يومياً، بل ثلاث مرات يومياً، فكنا لا نأكل في اليوم إلا مرة واحدة.

لكن هنـا في بجرام لا نمنـع من تخزين الطعـام، فكان عندنا كراتين من هـذه الوجبات التي تقدم لنا، وأحيانا نعطيها للحراس،

يـأكل بعضهم منهـا وبعضهم لا يـأكل منها يردهـا إلى المخزن، أو يلقيهـا في صناديـق القمامة، وأحيانا نأكل نحـن من هذه الوجبات والمتبقـي بعد الأكل نلقيه في صندوق القمامة، مع أنه معلب لا يفسد بالتخزين، والقانـون عندهم أن تأكل الوجبة والمتبقي تلقيه في سلة القمامة، ولا يسمح لك بتخزينه.

الحياة في بجرام

الغرفة التي نعيش فيها هي في الأصل غرفة معدة للجيش، وهي غرفـة مستطيلة تتسع لعشرة أفراد، تهويتها جيدة، لكنها في الشتاء باردة، ونحن وصلنا بجرام آخر الشتاء، كان هناك مدفأة كهربائية صغـيرة، لكنهـا لا تكفـي لتدفئة الغرفـة، أما في الصيـف فالغرفة مجهـزة بجهاز تبريد جيد، لكـن كان يتعبنا الجلوس الطويل وعدم الخروج للمشي والرياضة، وكنا لا نخرج لحمام الاغتسال، أو حمام قضـاء الحاجـة، إلا بإذن من الحراس الموجوديـن معنا في الغرفة، وبمرافقة أحدهم أيضاً.

والغرفة يتنـاوب على حراستها ثلاث مجموعـات يومياً، وكان حمام الاغتسال مرتين كل أسبوع وكنا نغسل ملابسنا مرة كل أسبوع، كل واحـد منا له سرير، مثل أسِرّة الجيش المتنقلة، مع قطعة سجاد أو قطعتـين بعضهما تحـت الرأس (كوســادة) وقطعة تضعها تحتك

ومعك بطانية جيدة تتغطى بها، كان في الغرفة طاولة متوسطة نأكل عليها أحياناً، أو نلعب عليها الورق.

كانت لنا الحرية داخل الغرفة نتحرك فيها كيف نشاء، الكلام مسموح به، القراءة والكتابة كذلك، القلم والورق متوافران، القرآن الكريم موجود، والكتب الدينية وغير الدينية كانت في البداية غير متوافرة، ثم أصبحت متوافرة، حيث أحضر لنا الصليب الأحمر بعضاً منها، كما أحضر لنا سجادة صلاة ومسبحة وملابس باكستانية، وبذلتين في البداية ثم زادهما بعد ذلك بذلتين، أحضر لنا الملابس الداخلية وشبشباً، وفرشاة ومعجون الأسنان، والمياه الصحية متوافرة طيلة الوقت للشرب فقط، أما مياه الوضوء فغير متوافرة بسبب نقص المياه، ولذلك لم نتوضأ مرة واحدة طيلة مدة وجودنا في بجرام (١٣٢) يومًا تقريباً، وطيلة هذه المدة كنا نتيمم.

كنا في الغرفة أحرارًا، ولكننا في الواقع غير أحرار، أحرار لأننا لا نخضع لأي عملية تحقيق أو مساءلة من قبل المحققين أو غيرهم، لا تنطبق علينا أنظمة السجن الموجودة في بجرام، لا يوجد عندنا نظام عقوبات وسحب أغراض، كما هو في معتقل جوانتنامو، أما كوننا غير أحرار، فلأننا لا نستطيع أن نخرج من الغرفة إلا بإذن، ويكون الحارس مرافقاً لنا، إننا نعيش في قاعدة عسكرية مراقبين وليس لنا الحرية الموجودة للناس الآخرين خارج هذه القاعدة.

لقد قال الحراس في سجن جوانتنامو (كوبا) لبعض الإخوة المعتقلين: كل من خلع اللباس البرتقالي ولبس مكانه لباس الكابوي الأزرق، وخرج من هذه الجزيرة (كوبا)، فقد ثبتت براءته من تهمة الإرهاب (كما يسمونها)، ولم يعد له أي علاقة بالقضية التي جمعت أمريكا بسببها هؤلاء السجناء، ليس له علاقة بأحداث نيويورك وواشنطن، ليس له علاقة بقتل أو تفجير أو تخريب أو أي عداء للولايات المتحدة الأمريكية، إنه بريء من هذه التهم كلها براءة الذئب من دم النبي يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لذلك قال لنا الحراس منذ اليوم الأول لوصولنا إلى بجرام: أنتم عندنا ضيوف هنا عدة أيام، وستسافرون إلى بلادكم.

لكن مضت الأيام الأولى، مضى الأسبوع الأول والثاني ولم نسافر، بعد أسبوع من وصولنا من كوبا إلى بجرام حضر إلى الغرفة التي نسكنها شخص يبدو أنه مسؤول كبير، وسأل عنا وعن أحوالنا بسرعة وانصرف؟ لم نكن نعرفه، فلما انصرف قال لنا الحراس: إنه السفير الأمريكي في كابل، قد يكون اسمه خليل زي- أفغاني الأصل، يعيش في أمريكا منذ سنوات ومعه أشخاص من وزارة الخارجية الأفغانية، بعد أسبوع تقريباً عاد الشخص نفسه وسأل عن أحوالنا وقلنا له: وجودنا هنا كم سيكون ومتى سنسافر؟ فقال: نحن نجري اتصالات مع الدول التي ستذهبون إليها، ونحن

مهتمـون بموضوعكم، لسنا ناسين لكـم وانصرف، بعد مضي شهر تقريباً أصبنا بيأس من السفر القريب أو الفرج العاجل.

فقـام الشخص الإيراني الموجـود معنـا وأراد أن يشكل عملية ضغـط وإحراج علـى المسؤولين في القاعـدة؛ ليسرعوا في تسفيرنا، وكان رجـلاً مريضاً، أعصابه قلقة، يتصرف تصرفات غير عادية، كان لديـه كميـة مـن الحبـوب (أقراصـ دواء) مختلفـة الأشكال والألـوان، فبدأ يتنـاول كميات من هذه الأقراصـ، قدرت بخمسين حبة؛ حتـى تؤثر عليه وتزيد في مرضه أو نقلـه إلى المستشفى، فزع الحراس لما رأوه يفعل ذلك، أسرعوا إليه، ثم جاء الطبيب ونقلوه إلى المستشفى القريب، مكث هناك أسبوعًا ثم عاد إلى الغرفة معنا.

لكـن بعد يومين تم نقله من غرفتنـا إلى مكان آخر، إذ الحياة في هـذا المكان دون الحياة في الغرفـة معنا، وقد كان هذا الشخص يتصرف تصرفات عجيبة، كان يدخن وكان يضع النسوار (الشمة) في الفـم، وكان يحصـل علـى كل هـذه الأمور من الحراسـ، وهذا العمل مخالف لقوانين هذه القاعدة، كان يطلب من الحراس الإذن ليسمحـوا له بالخروج خارج الغرفـة؛ ليدخن، كان يتعامل مع بعض الحراس معاملة ليست لينة، هذه المخالفات وغيرها، جعلت الإدارة تنقلـه من غرفتنـا إلى مكان آخر غير جيد، وبقينـا ثلاثة أفراد في الغرفـة إلى أن خرجـت، لكن بعـد خروجي من بجـرام بنحو أربعة

أشهـر رأيته على إحدى القنوات الفضائية يجري مقابلة يشكو فيها من المعاملة السيئة التي حصلت معه في السجن.

كمـا سمعـت أن الشخص الثالث السـوري قد أطلـق سراحه أيضاً، ورجـع إلى أهله الموجودين في باكستان، أما الأفغاني الرابع، فلا أعلم عنه أي شيء.

الرسائل

الرسائل من السجين وإليه لا بد أن تمرّ على قسم المراقبة في السجن، ويقرأ كل كلمة يكتبها المعتقل إلى أهله بأي لغة كانت، وربما تتأخر الرسالة أياماً أو أسابيع من أجل كلمة واحدة لا يستطيع قسم الرسائل معرفة معناها؛ لأنها ربما تكون مكتوبة بلغة عامية، وربما يراجع صاحب الرسالة لفك اللغز أو الكلمة الموجودة في رسالته، ويفسر ويحلل معنى هذه الكلمة.

وطريقة إرسال الرسائل إما عن طريق الجيش، الذي يقوم بإرسال رسالتك عن طريق البريد، وتصل إلى عنوانك، لكن بعد فحصها وتدقيقها، وإما عن طريق الصليب الأحمر الذي يحضر رجاله إلى عنابر السجن، ويقدم لك الأوراق الخاصة بالصليب، وبعد كتابتها يتسلمها منك موظف الصليب الأحمر، ثم يسلمها إلى إدارة السجن، حيث هناك قسم التدقيق والفحص، وبعد أن يوافق

علـى الرسالة من قبـل هذا القسم، يستلمهـا الصليب الأحمر مرة أخرى، ويرسلها إلى عنوانك عن طريق تابعة للصليب الأحمر، حتى تصل إلى عنوانك.

أما وصول الرسائل إليك، فعن طريق الصليب الأحمر الموجود في منطقتـك أو بلدك، وذلـك بأن يكتب أهلـك الرسالة ويسلمونها للصليب الأحمر الذي يوصلها إلي السجن، عن طريق تابعة للصليب الأحمـر يتسلمها قسـم التدقيـق والفحص في السجـن ويفحصها ويقرؤهـا، وربما يوافق عليهـا، وربما لا يوافق، وربمـا يشطب منها كلمة أو سطراً أو سطـوراً وربما يحجزها ولا يرسلها، وربما تصلك الرسالـة عن غير طريـق الصليب الأحمر، وذلك بـأن يكتب أهلك الرسالـة ويرسلوهـا على عنـوان خاص بالجيش، علـى أمريكا، ثم تصل إلى كوبا، إلى السجن، إلى قسم التدقيق والفحص يشطب ما يريـد، كلمة أو سطراً أو سطـورًا أو لا يوافق عليها وقد يحجزها ولا يسلمها لصاحبها.

والرسائل مـن السجين وإليـه تخضع للتحقيـق ويتحكم فيها، فمثـلاً بعضـ المعتقلين وصلته رسائـل كثيرة جـداً وبعضهم وصله رسائـل قليلـة، وبعضهـم وصلتـه كمية مـن الرسائـل لا بأس بها، وبعضهـم لم يصلـه أي رسالة مـن أهله أبداً، بالرغـم من أنه كتب

لهم الكثير، وبعضهم لم يصله أي رسالة أبداً؛ لأنه لا يريد هو ذلك، حيث لم يكتب لهم أي رسالة.

وكل رسالـة تخرج من المعتقـل إلى أهله، أو تصل من أهله إليه يأخذ منها قسم الرسائل نسخة يحتفظ بها، وعادة ما تتأخر الرسائل في الخـروج من المعتقل إلى الخارج أو مـن وصولها من الخارج إلى أصحابها؛ لأن الكتابة للرسائل بلغات مختلفة وكثيرة والألسنة التي يتكلـم بهـا السجناء كثـيرة، ولأن هذه اللغات الكثـيرة متفاوتة بين الوضوح والغموض وبين المفهومـة وغير المفهومة وبين اللغة العامية واللغـة الفصحى، وهذا يحتاج إلى وقـت كبير، وجهد كثير لإنجاز، وإتمام المقصود من هذه الرسائل وتدقيقها وفحصها.

الصليب الأحمر

كان الصليب الأحمر في المعتقل يقدم بعض الخدمات للمعتقلين لمن أراد منهم، منها: حمل الرسائل ذهاباً وإياباً، ويقوم بحمل شكاوى المعتقلين إلى إدارة السجن، وربما يحل بعضها مما يقع في دائرة اختصاصه، وقد كان يعرض على كل معتقل أن يكتب رسائله عن طريق الصليب الأحمر، ومن يرفض كتابة الرسائل عن طريق الصليب الأحمر، يكتب عن طريق الجيش، وفي معتقل بجرام كان الصليب الأحمر هو الطريقة الوحيدة لحمل الرسائل من المعتقلين وإليهم، كان يقدم لهم أموراً لا توجد في المعتقل، مثلاً تراهم يحملون برادات الشاي، وتقديم كأس شاي لكل معتقل، هم في الظاهر يتعاطفون مع المعتقل، لكن إن رفعت لهم شكوى عن وضعك في السجن مثل: العقوبات، التحقيق، مدة السجن، يقال لك: نحن لا نستطيع أن نتدخل في سبب اعتقالك، ولا نسأل عن جلسات

التحقيق التي تكون معك، ولا عن موعد إطلاق سراحك، نحن نعمل في مجال الرسائل، والمساعدة في حالتك الصحية، ووضعك الغذائي، والطعام، واللباس، وهذه نتدخل فيها أو نساعدك فيها في حدود، وليس تدخلاً كاملاً، ندخل فيها أو نساعدك.

سمعت من بعض الأفغان أن الصليب الأحمر يقيم لهم دورات، يقول لهم: إنها دورات تثقيفية ولا يسمح لأي جنسية أخرى أن تشترك معهم لا من العرب ولا من العجم، يقدمون لكل مشترك علبة من البيبسي أو العصير أو ... بعض الأفغان رفض الاشتراك فيها، وقال: إنها دورات مشبوهة؛ لأن المعتقلين الأفغان معظمهم عوام، ليس عندهم تعليم عالٍ، ويخشون أن يدخلوا لهم بعض المفاهيم غير الصحيحة، أو يسببوا لهم نوعاً من التشويش أو...

الصليب الأحمر يظهر دائماً أنه معك أيها المعتقل، وأن السياسة الأمريكية في المعتقل لا تعجبهم، لكن ليس بيدهم تغيير الأمور، بعض موظفي الصليب الأحمر ربما يدافعون عن النظام المطبق في المعتقل، مثلاً بعد شهر من وصولنا إلى كوبا، جاء الحراس وأخذوني إلى مكان جديد، غرفة فيها مقعد وكراسي، ليس زنزانة، ظننت أنه مكان تحقيق، جاء شخص وبدأ يتكلم معي لغة عربية غير واضحة، لكنها مفهومة على كل حال، وعليه إشارة الصليب الأحمر، شكوت له ما يتعرض له المعتقلون في بجرام من تعذيب

وتضييـق، وما نعانيه في كوبا من فقـر في الوجبات الغذائية وقلتها، فقال لي: ما هي وجبة الفطور؟

فقلـت له: بيضـة واحدة وقطعتـان من الخبز وقليـل من الأرز المطحـون... إلخ، فقال: هكذا يأكل الجنـود، قلت: هل يعقل، هذا؟ هـل تصدق أنت هذا؟ لا يمكن هذا، إننا نسأل الجنود الذين تعودنا الكلام معهم عن وجباتهم الغذائية فيخبروننا بوجباتهم الغذائية، هناك فرق كبير جداً بيننا وبينهم، أنا لا أطلب أن نأكل مثلهم، هذا لا يمكن أن يحدث، لكن نطالب بشيء معقول، بشيء يكفي المعتقل.

إن كثـيراً مـن المعتقلين بعـد تعاملهم مع الصليـب مدة طويلة وكمـا سمعت قرروا مقاطعة الصليب الأحمر في كافة المجالات، مثل الرسائـل، عرض المشكلات أو الشكوى له، عـدم طلب أي مساعدة منـه؛ لأنهـم وجدوا أن الصليـب الأحمر عبارة عـن معين ومساعد للأمريـكان، وإن ما لا يستطيع الأمريكان الحصول عليه أو معرفته فإن الصليب الأحمر قد يحصل عليه أو يعرفه من المعتقل، إن كثيراً من هؤلاء المقاطعين للصليب الأحمر، أدرك أن كثيراً من المعلومات التـي رفض تقديمها للأمريـكان استطاع الصليـب الأحمر بذكائه ودهائه، أو بوصفه طرفاً لا علاقة له بالتحقيق، كما كان يظن بعض المعتقلين الحصول عليها بسهولة، وهذا سر زيارات الصليب الأحمر المتكـررة للمعتقلات والسجـون، وهذا سر إلحـاح الصليب الأحمر

وإصراره على مقابلات الكثيرين، وعلى طلبه المتكرر المرة بعد المرة من المعتقلين كتابة الرسائل عن طريقه، وهذا سر تفقُّد الصليب الأحمر بعض الرافضين للتعاون معه وزياراتهم وعرض خدماته عليهم، والله أعلم بما يضمرون في قلوبهم.

ثم إن المعتقلين الرافضين للتعاون مع الصليب الأحمر أسمعوا رجال الصليب الأحمر كلاماً شديداً وقاسياً، مثلاً قالوا لهم: إن الصليب الأحمر والأمريكان شيء واحد، إنهم يعملون في صف واحد، وخندق واحد، ولولا استفادة الأمريكان من الصليب الأحمر لم يسمحوا له بزيارة معتقلاتهم وسجونهم، والصليب الأحمر لا يتحرك قيد أنملة، ولا يستطيع تقديم أي شيء لك، ولو كان بسيطاً وعادياً، إلا بعد موافقة الأمريكان عليه.

الدعوة في كوبا

لقد رأيت أن بعض المعتقلين ممن يجيدون اللغة الإنجليزية، قد أثر إيجابياً على بعض الحراس والجنود، حيث إن كثيراً من الحراس قد داخله شيء من الإنسانية كما يسمونها، وشعر أن هذا المعسكر -جوانتنامو- فيه كثير من المظلومين الطيبين العاديين، لقد كان الكثير من الحراس يتعامل معك ونسي أنه جندي في الجيش الأمريكي، وأنت سجين معتقل، لقد كان بعضهم يقف الساعات الطوال على نوافذ جدران غرف بعض المعتقلين ممن يجيدون اللغة الإنجليزية، هذا الجندي يحدثهم عن آلامه وعن مشكلاته، يحدثهم عن عائلته، عن فقره وقلة حيلته، يحدثهم عن ظلم المجتمع الذي يعيش فيه، وأنه لا يرحم أحداً لا بد أن تكون جيوبك أو محفظتك مليئة بالنقود؛ حتى تستطيع أن تعيش مستور الحال، إن الفقير لا يعرفه أحد في هذا المجتمع، كم هو ظالم هذا المجتمع الذي يطحن الفقير ويسحقه، ويرفع الغني ويعليه!

وقد كانت هناك مجندة تأنس، بل تحب مناقشة أحد المعتقلين، كان يكلمهـا عن الإسلام وعن احـترام الإسلام للمرأة وقال لها: لو كنـت أنت مسلمة لكنـت الآن في بيتك معززة مكرمة، بدل أن تكوني في هـذا الجو الـذي لا يتناسب أبـداً مع أنوثتك، لا يمكـن لأبيك أو لزوجـك أن يرضى أيٌّ منهما أن تكوني بـين هؤلاء الرجال تسمعين منهـم الكلام البـذيء وتجدين منهـم الضيق والتحرشـ، إن هذا العمـل- الجيش- لا يناسبك، ومـن المؤكد أنك تكرهين هذا العمل، وتودين التخلص منه بأسرع وقت.

فجلسـت على الأرضـ تود أن تسمع أكثر وتحـب أن يزول عنها مـا تكنه في قلبها من الآلام والتعب، ومـن الغربة والبعد عن أهلها، قالـت: إني أود الخلاص مما أنا فيه، ولقد غرر بنا مسؤولو الجيش وخدعونـا، لقد أعلن هؤلاء المسؤولون، عندما بدأت الحرب على ما يسمـى (بالإرهاب) وقالوا: إن الجيش بيت من لا بيت له ومأوى من لا مـأوى له، إنـه بيت الجميـع فَخُدِعنا بهذه الإعلانـات ولما دخلنا الجيشـ وجدنا غابة وحوشـ يفترس فيها الكبـير الصغير، ويظلم فيها القوي الضعيف، خاصة أصحاب الرتب القليلة والسيدات.

لقـد كان جميـع المعتقلين- إلا القليل- كبـاراً ومثاليين ونماذج للتضحيـة في عيـون الحراسـ والجنـود، بـل في عيـون المترجمين والمحققـين بسبب الصبر واليقين والرضـا والتسليم لما هم فيه من

البـلاء، لقد عبر بعض الحراس عن هذا الموقف، فقال: لو كان هذا السجـن في أمريـكا ومرت عليه هـذه المدة من الزمـن، وكان بهذا الوصـف والشكل لقتـل السجنـاء أنفسهم وأقدموا علـى الانتحار؛ خلاصاً من هذا الضيق، وقال أحد الحراس: لو كنت أنا مكانكم لم أتحمل هذا الوضع إلا عدة شهور.

ولقـد دخـل بعض الحراسـ مازحاً علـى غرفة أحـد المعتقلين الفارغـة؛ لأن المعتقـل كان في الاغتسـال وأغلـق علـى نفسـه بـاب الزنزانة، فقال: يا إلهي، إنه شيء مفزع، إنه مكان ضيق لا أحتمله! ولقـد رأيـت بعض الحراس يريـدون أن يمزحوا مـع بضعهم بعضاً بإدخال أحدهم عنوة إلى غرفة أحد المعتقلين الفارغة، هم يصرون علـى إدخاله إلى الغرفة، وهو يحاول منعهـم من ذلك واشتد الأمر بينهم، ولم يقبل الحارس الدخول إلى الغرفة الفارغة، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحاً، إنه يرفض الدخول إلى الغرفة، ولو كان عن طريق المزاح.

لقد تأثـر بعض الجنـود، خاصة الذيـن أصولهـم وأجدادهم مسلمـون، كالأسبان أو الأفارقة من النقاش الذي كان يجري بينهم وبـين المعتقلـين، ووعد بعضهم بأنـه سوف يسلم عندمـا ينهي مدة تعاقده مع الجيش، وعندما كان يسأل: لماذا لا تسلم الآن؛ لأن الموت ربمـا لا يمهلك حتى تخرج من الجيش، بعد سنـة أو سنوات؟ فكان

يجيب: إن التدين في الجيش غير مسموح به، لك أن تعتقد ما تريد بأي دين وبأي ملة لكن السلوك والعمل، التطبيق لما تحمله من دين لا يسمح به داخل الجيش، إنه جيش علماني لا يجوز أن يظهر فيه الجندي صلاته أو عبادته، وإلا سيعرض نفسه للعقاب، إنك تسأل الجندي عن دينه، فيقول لك: إنه مسيحي، لكنه لا يعرف أي شيء عن دينه، حتى المبادئ الرئيسة والخطوط العريضة في دينه لا يعرفها، يقول لك: إن أبي أو أمي على هذا الدين، حتى الكنيسة لا يعرف طريقها، إن في الإسلام فرائض كالصلاة والصوم، ومحرمات كالزنا والخمر، هذه أمور معلومة من الدين بالضرورة، لا أحد يجهلها حتى المسلم العامي الذي لا يقرأ ولا يكتب يعرفها.

لقد كان بعض الحراس يريد أن يدخل إلى قلبك، ويريد أن يجاملك، فيقول لك: لقد كان أبي مسلماً أو أذكر أن جدي قد ذهب إلى الحج قبل عشرات السنين، مثال آخر أحد الجنود كان يسمع المعتقلين، يتكلمون عن الإسلام فقال: أنا مسلم لكنه لا يعرف عن الإسلام شيئاً ولا يمارس أي نوع من الشعائر ولا يطبق أي حكم من أحكام الدين، لكنه يقول: إنني مسلم وبعد مناقشات بينه وبين المعتقلين، نشأت علاقة طيبة بينهم، وحدث مزاح ومجاملات بينهم دخل رمضان فصامه، وكنت تشاهد آثار الصوم وعلامات الجوع والتعب والعطش ظاهرة عليه، قال: هذا أول رمضان أصومه في

حياتـي، لكن بقدر ما تكلّم الحراسـ عن الإسلام بقدر ما يوجد في قلبه من جهل وتشويه، وحقد على الإسلام، وبقدر ما يزرع في رأسه ويغرس في قلبه من مطاعـن وشبهات حول الإسلام، وما يتلقاه من ثقافـة مسمومـة عن الإســلام والمسلمين وأنهم خطـر عظيم ووباء جسيـم ضـد الإنسانيـة، وضد كل تقـدم وتطور، إنهـم يزرعون في قلبه باستمرار صورة الإسلام الهمجي، الذي يقطر سيفه من دماء الأبرياء، صورة الإسلام المتخلف الفقير الجاهل.

ولا أدل على ذلك من بلاد العرب والمسلمين الفقيرة والمتخلفة، والمتفككـة، إنهم يرون صورة الإسلام في أهله وفي بلاده، وفي رجاله الذيـن يشاهدونهـم في أثنـاء زياراتهم للغرب، ومـا يمارسونه من أعمـال ومـا يقومون به مـن أفعال، يكفـي أن تحكم علـى الإسلام والمسلمين من خلال هؤلاء الأشخاص.

إن التأثير علـى هؤلاء الحراس يكون بتنظيف عقولهم أولاً، ثم إفـراغ تعاليم الإسلام الصحيـح في عقولهم ثانيـا أي التخلية أولاً ثـم التحلية ثانيا، جنـدي كان يناقش ويتكلم مع المتعقلين كثيراً كان يمازحهـم استطاع الاندمـاج والدخول مع المعتقلـين في موضوعات كثـيرة، قال له أحد المعتقلين مـرة، وأنا أسمع: أتشهـد أن لا إله إلا الله؟ قـال: أشهد أن لا إله إلا الله، قـال له أتشهد أن محمداً رسول الله؟ تبسـم وانصرف، لقد كان بعض الجنـود يأتي في أثناء صلاة

الجماعة الجهرية، صلاة المغرب والعشاء والفجر، ويقف بجانب غرفة الإمام الذي يرتل القرآن ويضع أذنه على جدار غرفة الإمام؛ ليسمع القرآن الكريم، شاهده المعتقلون أكثر من مرة، وكان تعليق الجندي بعد انتهاء الصلاة: هذا شيء رائع، جميل.

الجهاد والإرهاب

إن بعض الجنود كان يقوم بالدعوة لما يعتقده، يدعو للنصرانية، خاصة للمعتقلين الذين يعرفون الإنجليزية، كنت ترى بعض الجنود يقف طويلاً في مناقشة بعض الجوانب في دين الإسلام، أو النصرانية، وربما يقوم هذا الجندي بتقديم الإنجيل للمعتقلين، وقد حدث هذا أكثر من مرة، إن كثيراً من المحققين كان يشغل بالهم في التحقيق مع المعتقلين مدى تعمق معنى الجهاد والإرهاب في الإسلام، وهل انتقلت هذه المعاني إلى عقول هؤلاء الشباب؛ لينفذوها على أرض الواقع، لقد سمعت من بعض السجناء مدى التعب الذي يجدونه من المحققين حول معنى الجهاد وما يسمونه بالإرهاب، وهل معنى الجهاد استباحة دماء الكفار وأعراضهم، وهل هذا دين أو عقيدة؟ إن هؤلاء الشباب إزاء أمر خطير، لا بد من تغيير مفاهيمهم وتصحيح سلوكهم وأعمالهم.

ولقد سمعت من المعتدلين ومن المتشددين من هؤلاء الشباب عن الجهاد، وعن الدعوة وعن قتال من يقف في طريق الدعوة الإسلامية، وعن أهداف الجهاد في سبيل الله، ومتى يكون الجهاد فرض عين، ومتى يكون الجهاد فرض كفاية، وأستطيع تلخيص ما سمعته منهم فيما يأتي:

١- الجهاد في الإسلام ليس معناه سفك دماء البشر، حتى لو كانوا غير مسلمين.

٢- الإسلام لا يحمل السيف على الناس ولا يضعهم تحت تهديد السيف، إنه لا يخيرهم بين الإسلام وبين القتل.

٣- الإسلام يعطي حرية الاختيار لغير المسلمين ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩)، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، لقد اعتنق الناس الإسلام بالاختيار، ولم يعتنقوه بالتهديد والوعيد.

٤- لن يرضى الإسلام أن تكون هناك حواجز تقف حائلاً بين الإسلام وبين الشعوب التي تريد أن تدخل فيه.

٥- الجهاد في الإسلام شرع لإزالة هذه الحواجز التي تحول دون وصول الإسلام إلى الشعوب، وحتى لا تكون هذه الحواجز ضغوطاً وموانع على كل من يريد أن يدخل في دين الله.

٦- الإرهـاب مصطلـح يطلقـه في هذه الأيـام أناس غـير مسلمين علـى الإسلام والمسلمـين؛ لتشويه الإسلام ولتنفـير النـاس من الدخول فيه، وهذا المصطلـح لا يستعمله المسلمون فيما بينهم، ولا يتداولونه في معاملاتهم وأحكامهم.

٧- لا يحكـم على الإسلام وأهله من خلال عمل شخص أو تصرف فرد، ولا حتى من عمل جماعة أو مؤسسة أو دولة مهما كانت.

٨- ما قام به الشباب في واشنطن ونيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ م لا يصح أن يحاكم عليه جميع المسلمين، بغض النظر عن صحة ما قام به هؤلاء الشباب أو عدم صحته.

٩- كثير من المسلمين لم يعجبهم ولم يوافقوا على ما قام به الشباب في ١١ سبتمبر، ومنهم علماء ومشايخ لهم وزن وصيت بين شعوبهم.

١٠- تفاوتت الشعوب وتفاوت العلماء في حكمهم على ما فعله الشباب في ١١ سبتمـبر، وتباينـت نظراتهـم إلى هــذا الفعـل، لكنكم سمعتم لمن أيده ورحب به ولم تسمعوا لمن عارضه وأنكره.

١١- كانـت ردود الفعل من الولايات المتحـدة الأمريكية أكبر بكثير من الحدث الذي وقع عليها، وأخذت الكثير من المسلمين ممن لا علاقـة لـه بالحدث من قريـب أو بعيد، بجريـرة عدد قليل جداً، ممن لهم علاقة بهذا الحدث.

١٢- الـردود الأمريكيـة على الحدث لم تكن فقـط في المجال الذي وقع فيـه وبسببه الحدث، بل تجاوزتها الـردود الأمريكية إلى مجـالات أخـرى، وإلى شعـوب أخـرى لا تعرف عـن الحدث شيئـاً، ولم تسمع به إلا كما سمعه بقيـة الناس، وبعض الناس لم يسمـع بتنظيـم القاعـدة ولا بزعيمها أسامة بـن لادن إلا مـن وسائـل الإعلام بعـد وقـوع أحـداث ١١ سبتمـبر، ولقد قامـت أمريـكا باستغلال هذا الحدث لتحقيـق وتنفيذ برامج ومخططـات أخرى، بعيدة عن الحدث تحـت غطاء وستار ما يسمى بالحـرب على الإرهاب، وظهر للنـاس بعد مرور شهور أو سنين أن الحرب التي تجري الآن، والردود على الحدث ليس المقصود بها حمايـة مصالحهم، أو بلادهم، أو تصفية هؤلاء الإرهابيـين وتدميرهـم، كما يسمونهـم، ولا حتى زرع الخوف والرعب في نفس كل من تسول له نفسه أن يقلدهم ويسير على نهجهـم، بل لقد كان الـرد على ما وقع وحـدث في وادٍ وكل ما يجري ويقع الآن، في وادٍ بعيد جداً عن الوادي الأول.

الأمريكان: يعجبهم، يحبون، يفضلون:

١- المتعلـم في كافـة المراحـل المدرسية والجامعية ومـا بعدها، لكن أظن أنهم لا يرغبون، ولا يميلون إلى المتعلم تعليماً دينياً، خاصة في الـدول أو الجامعات التـي يقولون عنها: إنهـا متطرفة وغير

معتدلة، لكن لا بأس أن يكون التعليم الشرعي للشخص قد خرج من تحـت أيديهم، ومن خلال جامعاتهم أو الجامعات الأوروبية التـي تفتـح أقسامـاً في جامعاتهـا، تسمى كليـة الدراسـات أو الديانات الشرقية، فيدرس الطالـب فيها ديانات الشرق، سواء كانـت سماوية كديانة موسى وعيسـى -عليهما السلام- وديانة محمـد خاتم النبيـين ﷺ أجمعـين، أو يدرسـون الديانات غير السماوية التي ظهرت في اليونان ومصر والعراق والهند وغيرها، والتي لا علاقة لها بوحي السماء من قريب أو من بعيد، ولو كانت قائمـة على الشرك والوثنية وتعـدد الآلهة، وحتى لو كانت قائمة على الظلم والاستعباد ونشر الفواحش والموبقات، وحتى لو كانت قائمة على النهب والسرقة والاعتداء على الآخرين.

فالإسلام يدرَّس في هذه الأقسام كما يدرَّس أي دين آخر، لكنه يدرس على أنه ثقافة وعلم نظري ولا يدرس بصفته دينًا للعمل والتطبيـق أو دينًا للاعتقاد وسلوكًا للفرد والأسرة والمجتمع، ثم إن الطالـب وكما سمعت لا يتخرج في هـذه الأقسام، إلا بعد إن تكون رسالته أو بحثه الذي أعده للتخرج، قد احتوى على مطاعن ومثالب وسلبيات للدين، أو تهجمات على قواعده ومبادئه.

٢- العائلـة المتعلمة زوجة كانـت أو أولاداً -الذكور- وخاصة الإناث يعـدّون عدم تدريس البنـات في أي مرحلة مـن مراحل التعليم نقصاً وعيباً وعدم مسايرة لما عليه الحياة اليوم.

٣- وسائل الاتصال والثقافة العالمية، وتلفزيون، وقنوات فضائية، وإنترنت، والمجلات والجرائد والنشرات الدورية...

٤- معرفة اللغة الإنجليزية محاورة وكتابة؛ لأنها المدخل الأول لمعرفة الثقافة المستوردة.

٥- الذي ليس له أسبقيات أمنية أو سجلات قديمة، ولو انتهت مدتها وقضى ما حكم عليه به ونظف ملفاتها.

٦- غير المتدرب على السلاح الذي لم يدخل معسكرات التدريب، وخاصة صناعة المتفجرات، كل من ليس لديه ثقافة عسكرية أو قتالية، أو جهادية (إرهابية) كما يسمونها.

٧- الذي له علاقات اجتماعية مع غير المسلمين، يهودًا أو نصارى أو غيرهم، مثل: حضور ندواتهم واجتماعاتهم ومطالعة ثقافتهم ومطبوعاتهم ومعرفة أسلوب حياتهم ونمط عيشهم، خاصة الجنس الثاني- الإناث-أو الجنس الثالث كما هو موجود في بعض الدول.

٨- من لم يدخل إيران أو سوريا أو لبنان، وغيرها من الدول التي يسمونها (الإرهابية) أو من دول صناعية أو دول كانت ولا تزال في عداء مع بلادهم.

٩- الدول التـي توجد فيها أنظمة ملكية غالباً، أكثر من الدول التي تحكمها أنظمة جمهورية؛ لأن الأنظمة تعكس توجهها وسياساتها على الشعوب، والشعوب تتأثر وتقتبس كثيراً من أنظمة الحكم، وتتأثر بالقيادات التي تحكمها.

١٠- مَـنْ يكون مِنْ دول غنية فيها الرفاهيـة ورغد العيش، ووسائل الحياة المريحة التي يجد فيها الشاب ما يشغله ويشبع طموحاته وأهـواءه؛ لأن الفقر وقلة ذات اليـد قد يدخله في طرق التعنت والتشدد والانشغـال بأمور السياسة وتغيير النظام، وقد يؤدي به هذا التفكير إلى أمور لا تحمد عقباها.

١١- المتـزوج وصاحـب العائلـة؛ لأن هـذا يشغله ويشـده إلى الدنيا ويجعلـه أكثر حرصـاً عليها من أجـل أولاده، بخلاف الأعزب الـذي لا تربطه عائلة، ولا تقيده نفقات أسرة، لذلك تجد أكثر الأسرى من العزاب، ومن صغار السن.

١٢- لا يعجبهم التتلمذ على شيوخ المساجد وأئمة الكتاتيب بخلاف شيـوخ الحكومات ورجـال الديـن الرسميين الذيـن يتقيدون بقـرار الحاكـم والسلطـان، ويحسبـون للوظيفـة والراتـب والمنصب ألف حسـاب، ولا يرغبون في المشايخ غير الرسميين الذيـن لا يرتبطون بوظيفة أو عمـل رسمي مع الحكومات؛ لأن

هــذا يجعلهم أحراراً في فتاويهم، لا يتقيدون بقانون جامعة أو نظام دولة، لا يخشون من الفصل أو إنهاء التعاقد.

١٣- لا يحبون الشخصيات ذات المال والجاه والاستقامة، وأصحاب الغنى والمنتسبين إلى عائلات قوية وكبيرة ومعروفة بالصلاح؛ حتـى لا يكـون لهم نفـوذ قـوي، وحتـى لا يقومـوا باستخدام أموالهـم في مشروعـات تخدم الدين والبلـد أو تدعم الجهاد والمجاهدين، أو تخفف معانـاة المهاجرين أو الأقليات المسلمة في دول غير عربية أو إسلامية.

١٤-المؤسسـات الخيرية والإغاثة الإسلاميـة؛ لأنها تعرقل أو تؤخر الكثير مـن أعمال المؤسسـات الإنسانية غـير المسلمة شرقية كانـت أو غربية، أو لأنها ربمـا تسخر شيئاً من أموالها في غير الإغاثة الإنسانية لدعم العمليات الإرهابية (كما يظنون).

١٥-يرغبون العمـل في مؤسسات مرتبطـة بالحكومات؛ حتى يكون عمـل هــذه المؤسسـة ضمـن سياسـة البلـد، أمـا المؤسسات والجمعيـات الخيريـة المستقلـة (غير الحكوميـة) فقد تجلب الاتهام والنقد في اجتهادها في العمل (على حد زعمهم).

١٦- قلـة أفراد العائلة، يحبون العائلـة الصغيرة ذات العدد القليل المشابهة للعائلة في الغرب، ولا يحبون صاحب العائلة الكبيرة؛

حتــى يضن صاحــب العائلة القليلــة بولده على المــوت، وحتى يزداد حرصه عليهم وعلى الحياة من أجلهم.

١٧- اســم أبو عبد الله، لا يرغبون في هــذا الاسم؛ لأن فيه ارتباطًا وتذكيرًا وإشارة إلى الرجل الذي كان خلف ما جرى لهم، ليس في ١١ سبتمــبر، بــل ما جرى لهم في اليمــن في ضرب المدمرة كول، وفي تدمير السفارتين الأمريكيتين في تنزانيا وكينيا (دار السلام ونيروبي) كما يظنون هم، أو كما يحللون، أو يفسرون، أو كما يعتقــدون، لا يكرهون أحداً في الأرض مثل صاحب هذا الاســم، لا يحبــون أن يكون هذا الرجل قــدوة للآخرين، لا في عملــه وتصرفه، ولا في ملبسه ومأكله ولا في كلامه وعاداته ولا في أي شــيء من نواحي حياتــه، يتمنون أن ينســى العالم هذا الاســم، خاصة العالم الإسلامي، ولو قلــت: إني ألبس قميصاً مثل قميصه أو أرتب شعر رأسي أو شواربي ولحيتي كما يفعلها هــذا الرجل، فإنهم يتضايقون من هذا التقليد وينزعجون من هــذا التشبه ولو قلت: إني معجب به وبعمله ومن حقه أن يعمل مثــل هذه الأعمال، والذي فعله هو الرد الطبيعي لما يجري لكل إنسان، لــكان هذا كافياً لأن تذهــب إلى التحقيق عدة مرات، ولــو كان قولك هذا مجــرد كلام نظري واقتنــاع بما يقوم به، دون أن يكــون لك علاقة أو مشاركة بما يفعل، أما لو قلت: إني

سمعته في محاضرة أو رأيته في الشارع أو في أي مكان أو قلت: إني شربت معه القهوة أو تناولت معه الطعام أو كان في فصلي الدراسي المدرسي أو الجامعي، فإن الشبه القوية والاتهامات الواضحة ستتوجه إليك وتنصب فوق رأسك.

١٨-أكثر الدول كراهية عندهم الآن (الشعوب) وليس الأنظمة، السعودية ثم اليمن، سمعت من بعضهم أن أحد المحققين قال لأحد المعتقلين: ماذا يظن هؤلاء اليمنيون أنفسهم إنهم شعب أمي جاهل جبلي، متأخر جداً عن ركب الحياة، فقير لا يملك من الاقتصاد والفن شيئاً، إنهم يسمعون كلمة من شيوخهم لا يعرفون معناها ولا يدركون مغزاها فيطبقونها دون أن يفكروا في نتائجها أو يحللوا أو يفسروا ردود أفعالها.

إن أكثر الجنسيات العربية عدداً في معتقل جوانتناموا هم من السعودية، ثم اليمن.

إنهم يرغبون في استمرار الأمن، واستقرار الوضع في دول الخليج، فيحاولون ألّا تكون هناك قلاقل أو احتجاجات على أنظمة الحكم في الخليج، وفي غيره من الدول التي لهم بها علاقات اقتصادية، والتي تقدم لهم النفط وتضخ لهم الذهب الأسود، لا يحبون انفلات الأمن في الدول التي لهم معها

مصالـح وفيها لهـم مشروعـات اقتصاديـة، إن ظهور موجة العنـف والتطـرف والتدمير والقتل والإرهـاب (كما يسمونه) هذا الذي ظهر في دول الخليج مؤخراً قد أزعجهم مما جعلهم خائفين من المعتقلين الذين ينتسبون لهذه الدول، عندما تنتهي مدة عقوبتهم، ويتم إطلاق سراحهم فيما بعد.

لقد كانت أشرطة بعض المشايخ خاصة من دول الخليج، تصل إلى كوبا ويعرضها المحققـون على المساجين، هـؤلاء المشايخ الذين تراجعوا عـن فتاويهم في الجهاد ووجوب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب.

لقد كان المحققون متضايقين مما يجري من تفجيرات في جزيرة العرب حتى إن أحد المحققين غضب من أحد المساجين من جزيرة العـرب، وقال له: ويحك هل يعجبك مـا يجري في بلادكم؟! لقد أصبحت البلاد كلها في حالة فوضى، في حالة رعب وخوف.

١٩- كراهيـة المشايـخ الذيـن تربّى هـؤلاء الشبـاب المعتقلون على أيديهم، أو تتلمذوا على كتبهم وحلقاتهم ومحاضراتهم وتأثروا بفتاويهـم أو التقـوا بهـم في مساجدهـم ومدارسهـم، خاصة المشايخ الذين لم يدخلوا إلى الجامعات الشرقية أو الغربية.

عودة إلى الحياة في بجرام بعد كوبا

مضى الشهر الأول، ولم نسافر، شكونا للمسؤولين، فقالوا: أنتم سوف تسافرون، فقلنا: متى سيكون هذا السفر؟ قالوا: عليكم بالانتظار، فشكونا للصليب الأحمر الذي كان يزودنا ببعض الرسائل من قاعدة بجرام إلى بيوتنا ومن بيوتنا، يحملها إلينا في القاعدة، كان الصليب نافذتنا على العالم وكان أعضاؤه يقولون لنا كلاماً ليس فيه وعد أو وقت محدد للسفر، لكنهم كانوا يقولون لنا: سوف تسافرون.

بعد مضي شهر حضر وفد أفغاني وقابل الشخص الأفغاني ووعده بالخروج، وبعد مضي أكثر من شهر على هذه المقابلة عاد الوفد نفسه وقابله مرة أخرى ووعده بالسفر، لكنّي خرجت من بجرام، والأفغاني لم يسافر.

بـدأ الأمـل يتلاشـى مـن نفوسنا في قـرب الفـرج، خاصة أن المجموعـات التي جـاءت إلى هذا المكان قبلنا لم تمكـث فيه كثيراً، أكثرها مكث أسبوعين وسافر.

لا نـدري مـا سبب تأخيرنـا، قالـوا: أنتم تطلبـون السفر لغير بلادكـم، قلنا لهـم: بعضنا يريـد أن يرجع إلى بلده مثـل الأفغاني ومثلـي ومثـل كل المعتلقين، أمـا الأخ السوري وكذلـك الأخ الإيراني فـلا يريدان الرجـوع إلى بلديهما، ومن ثم فلا يـزال اليأس عندنا مـن الخـروج القريب.بعـد مضي ثلاثـة أشهر وبعد إلحـاح وطلب منا لمقابلـة المسؤولين، قالوا لنا: سوف يجلـس معكم مسؤول كبير، ويحاول أن يجيب عن أسئلتكم وطلباتكم، جاء المسؤول وجلس مع كل واحـد منا على انفراد، طلب الاسم والبلد والجهة التي تريد السفر إليهـا وإن كان لديك مشـكلات أو طلبات فسنجيـب عنها، ووعدنا بالسفر القريب دون تحديد الموعد وانصرف، لكن قبل أن ينصـرف طلبنـا منـه إن كان بالإمكان أن تؤخذ لنا صـورة كبيرة نرسلها إلى بيوتنا؛ حتى يطمئنوا على أحوالنا، قال: لا بأس، أرسل شخصاً وقام بتصويرنـا صورة مكـبرة ٢٠×١٠سم وسلمناهـا للصليب الأحمر الذي قام بإرسالها إلى بيوتنا.

كان المسؤول عنا نحن الأربعة سيدة مجندة برتبة كابتن، كانت تعاملنـا جيـداً، كانت الفواكـه والمشروبات ممنوعـة علينا، فكانت

تأتينا في البداية يومياً أو يوماً بعد يوم تضع البيبسي والفاكهة في حقيبتها وتأتي إلى الغرفة وتقدمها لنا، ولكن بعد ذلك انقطعت عنا ولا ندري أكان الانقطاع منها أم بأمر مَنْ فوقها، كنا نطلب منها الكثير من الحاجات فتلبي بعضها وتعتذر عن بعضها الآخر، كان وقت الصلاة يحيرنا ألا نسمع الأذان، فلا نعرف متى تدخل أوقات الصلاة فأحضرت لنا ساعة صغيرة وتقويماً بأوقات الصلوات الخمس حسب توقيت أفغانستان.

مضت الأيام علينا، ولا يكاد يمر يوم إلا ونسأل فيه عن حالنا وموعد سفرنا، كنا قلقين؛ لأنهم يقولون لنا: أنتم عندنا ضيوف، سترحلون إلى بلادكم، انتهت علاقتكم بالسجن أنتم بريئون من الأحداث التي حصلت ضد الولايات المتحدة الأمريكية، إذاً لماذا هذا الحجز؟ صحيح أننا لسنا في السجن ولنا بعض الحرية والامتيازات التي لا توجد في السجن، لكن لماذا هذا البقاء هنا؟ لماذا لا يطلقون سراحنا؟ منذ أن خرجنا من كوبا مضى علينا مئة وثلاثون يوماً في بجرام، بدأ عندنا إحساس أننا سنبقى هنا ستة أشهر وبعدها سيكون الفرج إن شاء الله، لكن كأن فرج الله أقرب مما توقعناه، بعد مغرب يوم الإثنين جاء أحد الجنود وقال: أين الشخص الأردني؟

قلت: هأنذا، قال: نريد أن نأخذ لك صورة، قلت: ما الأمر؟ قال: لا أدري طلب مني المسؤول أخذ صورة لك، هيأت نفسي، فأخذ

صورة لي، ثم صورة، ثم انصرف الذين كانوا معي في الغرفة، قالوا: هذه الصورة لها علاقة بالإفراج، سوف تخرج قريباً، قلت: إن شاء الله تعالى، لم ننم نحن الثلاثة جميعاً تلك الليلة، كنا نفكر: لماذا هذه الصورة أخذت لي بالذات، أنا دون غيري؟ في اليوم اللاحق الثلاثاء وبعد صلاة الظهر جاء أحد الحراس، وقال: أين الشخص الأردني ؟ قلت: هأنذا، قال: أنت مطلوب للمسؤول، خرجت معه خارج الغرفة، فوجدت هذه السيدة الكابتن التي كانت تزورنا كثيراً ومعها ضابط آخر برتبتها، سبق أن جلس هو وهذه السيدة معنا قبل شهر، قالا لي: أنت ستسافر غداً إلى بلدك واليوم سنقوم بأخذ بصمات يدك وأخذ صور لك ووزنك وطولك وإجراءات أخرى، وغداً عند الظهر تذهب إلى الحمام للاغتسال.

رجعت إلى الغرفة، فوجدت أصدقائي ينتظرون متلهفين لمعرفة الخبر، قلت لهم: أبشروا جاء الفرج، غداً -إن شاء الله- بعد الظهر، سجدت لله شكراً على هذه البشرى، بعد ساعتين جاء الحارس وذهبت معه إلى غرفة داخلية، أخذ مني الموظف المختص بصمات اليدين الكثيرة وبصمات الكفين وأخذ صورة الوجه من جميع الزوايا، وصور العينين، كل ذلك يظهر على الكمبيوتر، أخذ الطول والوزن ثم انصرفت إلى الغرفة، بدأت أرتب أغراضي في الحقيبة التي قدمت معي من جوانتنامو، كان فيها بطانية متوسطة

الجـودة، ومنشفة، لكن الأغراضـ التي جمعتها من بجرام كثيرة لا تتسـع لها هذه الحقيبة، فضغطتها حتى اتسعت وكانت هذه السيدة الكابتن قد قالت لي بالأمس: بإمكانك أن تأخذ معك جميع أغراضك التـي جاءت معك من جوانتنامـو، نمنا تلك الليلـة -ليلة الأربعاء- أهدأ ليلة، وفي ظهر اليوم اللاحـق- الأربعاء-جاء الحارس، وقال: تذهب معي إلى الاغتسال.

قلـت له: أنا اغتسلت الليلة الماضيـة وجسمي نظيف؛ لأن الليلة الماضية كان موعد اغتسالنا الأسبوعي، إذ الاغتسال كان مرتين في الأسبـوع، قال: لا بد أن تأتي وتغتسـل قلت: جيد، ذهبت واغتسلت، ثـم أحضر لي هذا الحارسـ حقيبة وقال: هذه لـك، فتحتها، فإذا بهـا بِذْلتان باكستانيتان وفرشاة ومعجـون أسنان وفرشاة ومعجون حلاقة وقلامة أظافـر وإبريق بلاستيكي صغير، وقال: اجلس قليلاً [شهادة براءة من الإرهاب].

جـاء ضابط وبـدأ يقرأ عليّ ورقة باللغـة الإنجليزية، والمترجم يترجـم ما يقوله الضابط، تقول الورقة: لقد وقعت للولايات المتحدة الأمريكيـة حوادث كبيرة وخطيرة، دُمِّرت فيها البنايات والعمارات، وقُتـل فيها الكثـيرون، وترملت النساء، وقتل أطفـال ونساء، فقامت أمريكا واعتقلت الكثيرين لم تكن تعرف أو تميز المتهم من غير المتهم ولمـا جمعنـا المعتقلين وقمنا بالتحقيق معهـم عرفنا البريء من غير

البريء، وبعد اعتقالك والتحقيق معك تبين لنا أنك بريء، لا علاقة لـك بالأحداث التي وقعـت للولايات المتحدة الأمريكيـة؛ لذلك قمنا بإطلاق سراحك، وأنت الآن حر، لا يوجد عليك شيء وسترجع وتعيش في بلـدك كأي إنسـان وتمارس كافة حقوقك بسـلام، ثم انصرف، هكذا كانت الترجمة كما أظن، وأتذكر رجعت إلى الغرفة.

وبعد الظهر جـاءت السيارة، وقال المسؤول: حان وقت السفر، ودعـت أصحابي وركبت السيارة مع المترجم، وكان في السيارة معي ثلاثـة جنود ومجندة، وفيها ثلاثة ضبـاط، كنت أتوقع أن يربطوني بالسلاسـل ويغطوا عيوني كالمعتاد في كل سفـر مع الأمريكان، لكن لم يكـن ذلك، بقيت حراً طليقاً دون تقييد، وصلنا إلى الطائرة وفي مدرج المطار طائرة نقل كبيرة عسكرية.

مغادرة بجرام إلى الوطن

صعدنـا الطائرة، فجلست بجانب المترجم، لم يكن في الطائرة إلا طاقـم أو حراس الطائـرة كمـا رأيـت، بالإضافـة إلى الجنود الأربعـة الذين عرفـت فيما بعد مـن المترجم أنهم حراس وأمناء علي، حتى يتم تسليمي إلى بلدي، أقلعت الطائرة من قاعدة بجرام بعد العصـر من يوم الأربعاء ٢٠٠٢/٨/١٢ م وقد أخبرني المترجم أنهـا ستنزل في قطـر، وفعلاً بعد العشاء نزلت الطائرة في قطر، لم أكـن أعرف الوقـت، فطلبت من الحراس أن يسمحوا لي بالوضوء والصلاة، وعندما توضأت تذكرت أن هذه هي أول مرة أتوضأ فيها منذ (١٢٤) يومًا وهي مدة وجودي في بجرام، إذ إن الماء هناك قليل فكنـا نتيمم للصلاة، بعد الصلاة والاستراحـة في قاعدة عسكرية لا أعرف اسمهـا، ولم أسأل المترجم ولا الحراس عن اسمها، لكنها قاعـدة كل مـا فيها جنود وطائـرات عسكرية، لم أرَ فيهـا أحدًا إلا

الجنود، عند منتصف الليل قال الحراس لي: تفضل جاء وقت السفر، ركبنا الطائرة نفسها لم أرَ فيها ركاباً أو جنودًا، ليس في الطائرة إلا الحراس الأربعة الذين خرجوا معي من بجرام وأنا والمترجم وطاقم أو حراس الطائرة، قال المترجم لي: إن الطائرة ليس لها أي غرض في عمان، فهي توصلك إلى عمان وترجع، وقد حان وقت تناول الطعام، أما الجنود فكان كل واحد منهم معه وجبته أو طعامه في حقيبة، طلبت منهم وجبة عسكرية فأعطوني واحدة، بينما هذه الطائرة عسكرية ليس فيها ضيافة كالطائرات المدنية.

وهذه الوجبات يأكلها الجنود؛ لأنها طعام الجنود في حال السفر إذا لم يتيسر لهم وجبات ساخنة، وكان أمامي في الطائرة صندوق فيه كثير من أنواع البسكويت والشوكولاتة آكل منه كلما أردت، وقبيل الفجر نزلت الطائرة على المطار، قال لي المترجم: هذه عمان وهذا مطارها، توقفت الطائرة وفتحت أبوابها فصعد ضابط أمريكي إلى الطائرة وبدأ يتكلم مع الحراس الذين سيقومون بتسليمي له، قدموا له أوراقاً وقع عليها، ثم سلمني ورقة باللغة الإنجليزية، وكان يتكلم معي باللغة العربية المكسرة إلا أنها مفهومة تقريباً، الورقة التي سلمها لي هذا الضابط كانت ترجمتها كالآتي:

شهادة براءة من الإرهاب

وزارة الدفاع

القوات المشتركة الموحدة

قاعدة بجرام الجوية- أفغانستان

وثيقة للحفظ

الموضوع: إطلاق سراح حسين عبد القادر

هـذه الوثيقة تؤكـد أن هذا الشخص قد وُقِّـف من قبل القوات المسلحة الأمريكية منذ ١١ آب ٢٠٠٢م.

الرقم الرسمي	المؤقت	الاسم	البلاد	الميلاد
PKgWE000715 DP	BT 171	حسين عبد القادر	الضفة الغربية	١٩٥٣م

لقد تثبتنا من أن هذا الفرد لا يشكل خطورة على القوات المسلحة الأمريكيـة أو مصالحها في أفغانستـان، ولا توجد أي تهمة موجهة إلى هذا الفرد من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، لقد أطلق سراح هـذا الشخص في المكان نفسه الذي ألقي القبض عليه فيه، وتريد الولايات المتحدة الأمريكية إعـادة هذا الشخص؛ ليجتمع بأهله وهذه الوثيقة ليست لحمايته من أي تصرف سيئ مستقبلي قد يقوم به.

توقيع الضابط

SFCMP.CJTF 76 Detair-opsncoic

أما شهادة الصليب الأحمر، فتقول ترجمتها:

إلى من يهمه الأمر

إن اللجنــة الدولية للصليب الأحمر تؤيد حسب هذه الوثيقة أن السيد حسين عبد القــادر يوسف مصطفى مواليد ١٩٥٣م في سيلة الحارثية - فلسطين

وثيقة الصليب الأحمر ٠٠١٤٨٦ وثيقة التسجيل PKg 000715 DP.

تم تسجيله من قبل لجنة الصليب الأحمر في ١٥/٦/٢٠٠٢م في مـكان التوقيف الأمريكي الانتقــالي في بجرام في محافظة بروان في أفغانستان، وتم نقلــه إلى مخيم جوانتنامو-كوبا- في ٤ آب ٢٠٠٢ م حيث تمت زيارته من قبل الصليب الأحمر عدة مرات، وبعد أن أعيد إلى أفغانستان في ٣١/٣/ ٢٠٠٤م تمت زيارته في بجرام في القاعدة الأمريكية الانتقالية وفي بجرام أطلق سراحه في ١١/ ٨/ ٢٠٠٤م.

صدرت هذه الوثيقة في كابل ١٩/١٠/٢٠٠٤م.

التوقيع:

أندريه مكنزي/ الإداري في كابل أفغانستان

سلمنـــي الحراس الأمناء الذين كانــوا يرافقونني طيلة الرحلة مــن بجرام إلى عمــان، إلى الضابط الأمريكــي، والضابط سلمني الورقــة ونزل من الطائرة، ثم ودعت الحراس وشكرتهم على حسن صحبتهــم لي، حيث لم يضايقنـــي أحد منهم طيلة الرحلة، وشكرت المترجــم، ونزلت من الطائرة، بعــد أن حملت حقيبتي السفر اللتين كانتا معي، وبعــد ذلك تسلمني الجنود الأردنيون من باب الطائرة، ذهبــت معهم بالسيارة، وكان وقــت أذان الفجر ليوم الخميس ١٣/ ٢٠٠٤/٨م علــى وشك الدخول، وصلــت إلى معتقل قريب لا أعرف اسمــه، ولم أدخــل إليه ولم أدخــل أي سجن آخــر، لا في الأردن ولا في غيرهــا إلا الاعتقــال عنــد الأمريــكان، وأنــا الآن حديــث عهــد بــالأردن، إذ إني خرجت منها سنة ١٩٨٥م ولم أرجع إليها إلا اليوم بعــد مضي تسعة عشر عامــاً، وصلت المعتقل بــدأ الضابط المسؤول يأخذ المعلومات عني، وقد تسلّم مني ما معي من الأغراض والأوراق وفتشها، ثم سلمني ملابس السجن الزرقاء، جاء الحارس وأدخلني إلى غرفة الاعتقال.

جلســت في هــذا السجــن مــن وقــت أذان الفجــر إلى الساعة الحادية عشرة تقريباً، جــاء الحارس وأخذني إلى غرفة التحقيق، استغــرق التحقيق معي ما يقارب ساعــة، كان التحقيق عادياً وكان المحقــق هادئاً ومؤدبــاً وقال: سنحــاول إخراجك اليــوم الخميس،

وإن لم نستطـع فعليك الانتظار إلى يوم الأحـد، أي بعد ثلاثة أيام، انتهى التحقيق معي وبعد لحظات جاء الحارس وأرجعني إلى غرفة الاعتقـال، بعـد ساعة تقريبـاً جاء الحارسـ وأرجعنـي إلى غرفة التحقيق، عندئذ تسلمت أغراضي التي أخذوها مني عندما وصلت فجـر اليوم، وقال لي المحقق، مع السلامة يا شيخ، سترجع الآن إلى بيتك إن شاء الله تعالى وأطلقوا سراحي عند أذان ظهر يوم الخميس ١٣/٨/٢٠٠٤م.

والحمد لله رب العالمين